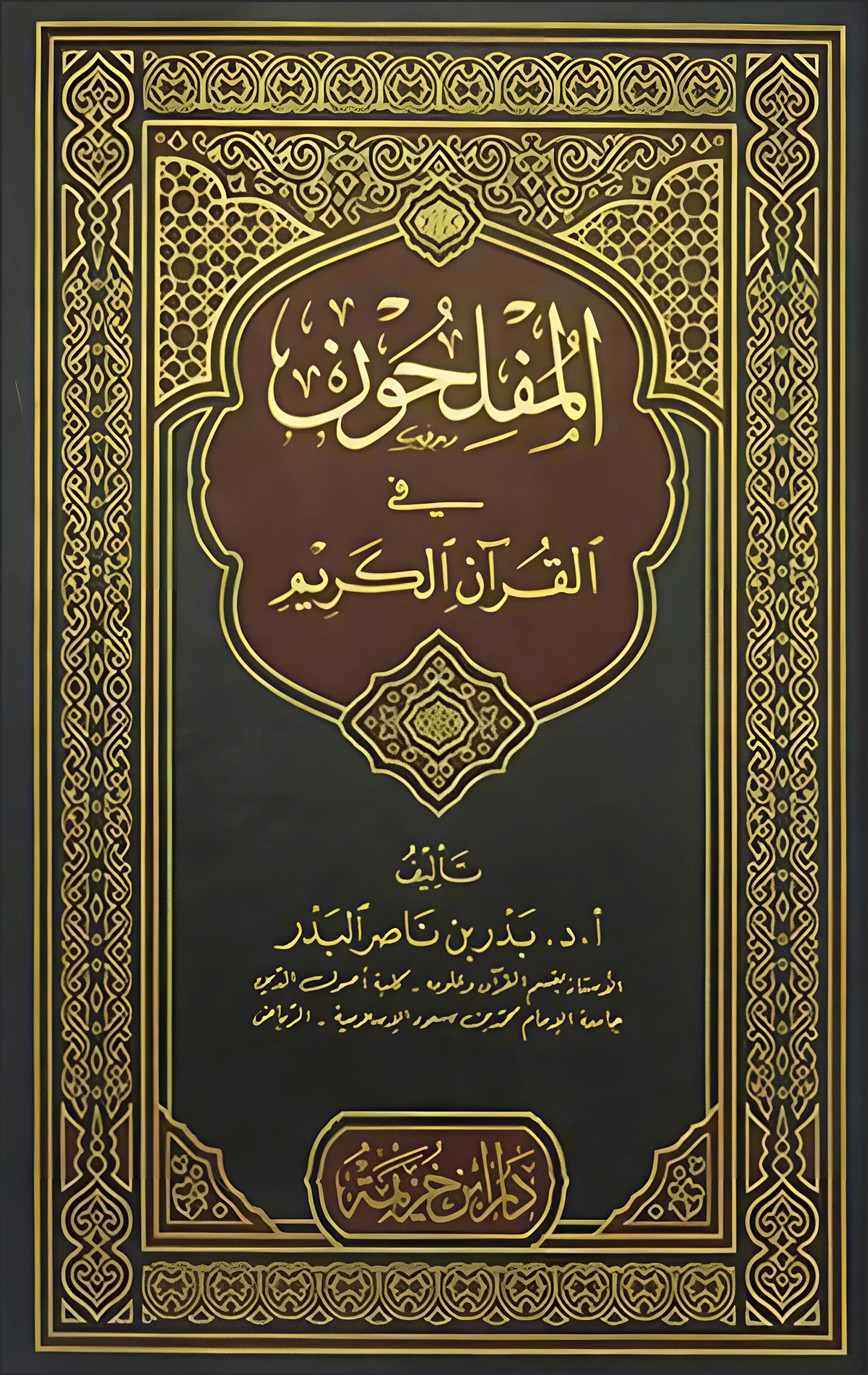


المفلحون
في
القرآن الكريم
تأليف
أ.د. بدر بن ناصر البدر
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض
دار ابن خزيمة



تأليف

أ.د. بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض



ح دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

البدر، بدر بن ناصر

المفلحون في القرآن الكريم/ بدربن ناصر البدر.الرياض،١٤٣١هـ

٣٧٦ ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٤-١٢-٨٠٣١-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣١/٩٩٣

رقم الإيداع: ١٤٣١/٩٩٣
ردمك: ٤-١٢-٨٠٣١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٣ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة مطلبٌ هام وهدف أساس يسعى إليه المؤمنُ الذي نوَّر الله قلبه بالإيمان ومحبةِ القرآن والسنة، والتصديقِ الجازمِ الذي لا يخالطه ريب ولا شك بموعودِ الله سبحانه لأوليائه المتقين المؤمنين الصادقين، في جنات عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أعظمُ نعيمِ أهلِها النظرُ إلى وجه الله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، وذلك أعظم النعيم وأفضلُه.

كما أن المؤمن يؤمنُ ويصدق بما أعد الله سبحانه لمن كفر وجحد وعاند، وأبى واستكبر، وانحرف عن دينه وتجاوز حدودَه وتعدى محارمه، أعد لهم ناراً تلظى، ناراً وقودها الناس والحجارة، طعامُ أهلها الزقوم، وشرابُهم القيحُ والحميم، أهونُ أهلها عذاباً مَنْ يوضع تحت أخمصِ قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، يظن أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة وإنه لأهونهم عذاباً في ذلك اليوم.

وقد أبان الله سبحانه رحمة منه بعباده وإقامةً للحجة عليهم صفاتِ الجنة والنار وما أعد لأهلها، كما بين جلَّ وعلا صفاتِ المفلحين الفائزين بالرضوانِ والجنة، وصفاتِ مخالفيهم الذين باؤوا بالخسران والويلِ والثبور.

وفي هذا الكتاب «**المفلحون في القرآن الكريم**» بيانٌ لأوصاف عبادِ الله المفلحين وتوضيحٌ لنعوتهم، كما جاء في الكتاب والسنة، وذكرُ ثوابهم وأجرهم عند الله سبحانه، وفي المقابل بيانٌ لأوصاف الخاسرين الأشقياء - عياذاً بالله سبحانه من حالهم - وما ينتظرهم من العقوبة والنكال في الآخرة، وقد جاءت خطة هذا الكتاب كما يلي:

- المقدمة
- التمهيد

* **الفصل الأول: الإيمان وأركانه ولوازمه**، وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الإيمان بالغيب
- المبحث الثاني: الإيمان بالكتب
- المبحث الثالث: الإيمان بالنبي ﷺ
- المبحث الرابع: الإيمان باليوم الآخر
- المبحث الخامس: الولاء والبراء

* **الفصل الثاني: الإسلام وأركانه**، وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: إقام الصلاة والمحافظة عليها والخشوع فيها
- المبحث الثاني: الزكاة والصدقة

- المبحث الثاني: الوفاء بالعهد
- المبحث الثالث: حفظ الفروج عن الفاحشة
- المبحث الرابع: إتيان البيوت من أبوابها

* **الفصل السادس: اجتناب المحرمات**، وفيه مبحثان:
- المبحث الأول: الإعراض عن اللغو
- المبحث الثاني: اجتناب الخمر والمسكر

* **الفصل السابع: المحرومون من الفلاح**، وفيه خمسة مباحث:
- المبحث الأول: الكاذبون القائلون على الله بلا علم
- المبحث الثاني: المكذبون بآيات الله تعالى
- المبحث الثالث: الكافرون المعاندون
- المبحث الرابع: الظالمون
- المبحث الخامس: السحرة

* مسألة: ثقل الموازين في الآخرة للمفلحين
* الخاتمة
* ثبت المصادر والمراجع
* فهرس الموضوعات

أما المنهج الذي سرت عليه في الكتابة فهو ما يلي:

- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.
- خرجت القراءات القرآنية مع عزوها إلى مصادرها.

- اكتفيت بتخريج الأحاديث والآثار في المتن دون العزو إلى الجزء والصفحة في الحاشية، وتركت - بعد البحث - ما لم أستطع تخريجه، وهي قليلة بحمد الله تعالى.
- وثقت النقول من كتب أصحابها إن كانت مطبوعة وإلا وثقتها من المصادر الأخرى.
- عزوت الأبيات إلى قائليها مع توثيقها من دواوينهم، وتركت ما لم أهتد إلى قائله.
- بينت الغريب وضبطت بالشكل ما يحتاج إليه.
- لم أقم بترجمة الأعلام لكثرتهم ولتوفر مصادر تراجمهم بين أيدي القراء.

وختاماً فإني أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين في الدنيا والآخرة، وأن يدخلنا الجنة برحمته وأن يوفقنا للإخلاص في القول والعمل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.




تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهيد

معاني الفلاح في اللغة والاصطلاح:

الفلاح في اللغة بمعنى الفوزِ والنجاةِ والبقاء في النعيم والخير، قال الشاعر:

ولكن ليس في الدنيا فلاح، أي: بقاء.

قال ابنُ السكِّيت: الفلح والفلاح البقاءُ، ومنه قولُ الأعشى[1]:

ولئن كُنا كقومٍ هلكوا ... ما لحي يا لَقومٍ من فَلَح

أي: بقاء.

ومن معاني الفلاح: السَّحور لبقاء غَنَائه، وفي الحديث «**صلينا مع رسول الله ﷺ حتى خشينا أن يفوتنا الفَلَح أو الفلاح**» رواه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه. يعني السَّحور، قال أبو عبيد في غريب الحديث «وفي الحديث قيل: وما الفلاح؟ قال: السَّحور» قال: وأصل الفلاح البقاء، وأنشد للأضبط بنِ قُرَيعٍ السعدي:

لكل هم من الهموم سعه ... والمُسْيُ والصبح لا فلاح معه

يقول: ليس مع كر الليل والنهار بقاء[2]، فكأن معنى السحور أنَّ به بقاءَ الصوم.

---

(١) ديوانه ٢٣٧.

(٢) غريب الحديث ٤/ ٣٨.

ومن معاني الفلاح: الظفرُ والفوزُ بما يُغتبطُ به، وفيه صلاحُ الحال، قال أبو إسحاق في قوله عز وجل: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، يقال لكلِ من أصاب خيراً مفلح، وقال الليثُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]، أي: ظفر بالملك من غلبا ومن ألفاظ الجاهلية بالطلاق: استفلحي بأمرك أي فوزي به، وفي حديث ابن مسعود أنه قال «إذا قال الرجل لامرأته استفلحي بأمرك، فقبلته فواحدةٌ بائنة»[1]. قال أبو عبيد: معناه اظفَري بأمرك وفوزي بأمرك واستبدي بأمرك، ومنه ما في جُمل الأذان «حي على الفلاح»، قال الأزهريُ في التهذيب: يعنى: هلم على بقاء الخير، وقيل: حي أي عجِّل وأسرع على الفلاح، معناه إلى الفوز بالبقاء الدائم، أي: هلموا إلى سبب البقاء في الجنة والفوز بها، وهو الصلاة في الجماعة.

ومن معاني الفلاح: الشقُ والقطع، يقال: فلح الشيءَ يفلَحهُ فَلْحاً: أي شقه، قال الشاعر:

قد علمتْ خيلُك يابن الصحْصَح   إن الحديدَ بالحديدِ يُفلحُ

أي: يشق ويقطع.

وفلح رأسَه أي شقه، وفلحتُ الأرض إذا شققتُها للزراعة و الحرث، وإنما قيل للمزارع فلاح لأنه يفلح الأرض أي يشقهاا والفَلَح شق في الشفة السفلى، فإن كان في الشفة العليا فهو علم، قاله الأزهري في التهذيبا والفُلُوح

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية ٣/ ٤٦٩.

في اليدين والرجلين شقوق بهما»[١].

ولدقة كلمة الفلاح وشمولها لمعاني النعيم من البقاء والفوز والظفر والنجاح وغير ذلك قال الزَّبيدي «فليس في كلام العرب كلهِ أجمع من لفظة الفلاح لخيري الدنيا والآخرة، كما قاله أئمة اللسان»[٢].

وقد ذكر الراغبُ الأصفهاني أن الفلاح على ضربين دنيوي وأخروي، فالدنيوي الظفرُ بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والعزُ والغِنَى، وإياه قصد الشاعر بقوله[٣]:

أفلحْ بما شئتَ فقد يُدْرَكُ ... بالضَّعْفِ وقد يُخدعُ الأريبُ

وفلاح أخروي وذلك أربعة أشياء، بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزٌ بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيشُ الآخرة، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١][٤].

وقد جاء الفلاح في القرآن الكريم على معنيين، الأول: بمعنى السعادة، ومنه قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: سعدوا، وقوله عز وجل ﴿قَدْ أَفْلَحَ

(١) ينظر: تهذيب اللغة ٥/ ٧١، لسان العرب ٢/ ٥٤٧.
(٢) تاج العروس ٢/ ١٩٩.
(٣) قائله: عبيد بن الأبرص، ديوانه ٧.
(٤) المفردات ٣٨٥.

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، يعني سعد، والمعنى الثاني الفوز، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، أي: لا يفوزون[1].

أما عن معناهُ في أقوال المفسرين من الصحابة ومن بعدهم فقد روى أن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥]، أنه قال: «أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شرِّ ما مِنْهُ هربوا»[2]، قال الطبري: «أي أولئك هم المُنجِحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكرُه، بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبِه ورسلِه، من الفوز بالثواب والخلود في الجنان، والنجاةِ مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب»[3]، وبنحو ما قاله ابن عباس ذكر أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن وإعرابه[4]، ونقل القرطبي في تفسيره الجامعِ لأحكام القرآن أن معنى الفلاح في العرف: الظفرُ بالمطلوب والنجاةُ من المرهوب[5]، قال الزمخشري «المفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه»[6].

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ٣٦٣-٣٦٤.
(٢) جامع البيان ١/ ٢٥٦.
(٣) جامع البيان ١/ ٢٥٦.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٧٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٨٢.
(٦) الكشاف ١/ ١٤٩.

الفصل الأول
الإيمان وأركانه ولوازمه

المبحث الأول: الإيمان بالغيب

جاء بيانُ صفات عبادِ الله المفلحين في القرآن الكريم وسنة سيد الأولين والآخرين وإمام المرسلين عليه أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم ومما تضمنه كتابُ الله عز وجل حوالي أربعين وصفاً، قد يُفرد أحدها بالذكر وقد يُقرن مع غيره، يُذكر ثوابه وجزاؤه في أول الآية أو يكونُ في آخرها، تارة بصيغة الاسم وتارة بصيغة الفعل.

فأول تلك الصفات الإيمان بالغيب، قال تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

فقد فُسر الإيمانُ في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بالتصديق، رواه الطبري عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ومعنى الإيمان عند العرب التصديق، فيُدعي المُصَدِّق بالشيء قولاً مؤمناً به، ويدعى المصدِق قولُه بفعله مؤمناً، ومن ذلك قول الله جل ثناؤه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يعني: وما أنت بمصدق لنا في قولنا» ورُوي عن الربيع أنه فسر الإيمان هنا بالخشية، قال الطبري «وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القولِ بالعمل، والإيمانُ كلمةٌ جامعةُ الإقرارِ

بالله وكتبه ورسلِه، وتصديقُ الإقرارِ بالفعل، وإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بتأويل الآية وأشبهُ بصفة القوم: أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، إذْ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى، بل أجمل وصفهم بها من غير خصوصِ شيءٍ من معانيه أخرجَه مِنْ صفتِهم بخبر ولا عقل»[1].

وقد زاد هذا الأمر إيضاحاً وتفصيلاً الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال: «فأما إذا استعمل مطلقاً الإيمان الشرعي المطلوبُ لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيده وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وقد ورد فيه أثار كثيرة و أحاديث... ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] والخشية، خلاصةُ الإيمانِ والعلمِ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال بعضهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، كما يؤمنون بالشهادة، وليس كما قال الله عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]»[2].

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٦٤.

وقد اختلفت أقوالُ المفسرين في المراد بالغيب في الآية السابقة، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «المعنى: بما جاء منه، أي من الله عز وجل، وروي عن ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم قالوا: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار، وما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن، لم يكن تصديقُهم بذلك، يعني المؤمنين من قِبَل أصلِ كتابٍ أو علمٍ كان عندهم».

وروي عن زر بن حبيش رحمه الله تعالى قال: «الغيبُ القرآن»، وعن قتادة قال «آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة، وكلُّ هذا غيب»، وعن الربيعِ بن أنس قال: «آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت، فهذا كله غيب».

وكل هذه الأقوال صحيحة، فإن الغيب يشمل ما ذكر وغيره، قال الحافظ ابن كثير قبل أن يسرد هذه الأقوال وغيرَها: «وأما الغيبُ المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلُّها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد»، ثم قال بعد سردِ هذه الأقوال: «فكلُّ هذه متقاربة في معنى واحد، لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به»[1].

وفي تفسير هذه الآيه روى سعيد بن منصور عن عبدالرحمن بن يزيد رحمه الله تعالى قال: «كنا عند عبدالله بن مسعود رضي الله عنه جلوساً فذكرنا أصحابَ النبي ﷺ وما سبقونا به فقال عبدالله: إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه، والذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٦٥.

لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١-٣] الآيات، ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكمُ في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ويعضد هذا ما رواه الإمام أحمد وابن حبان عن أبي سعيد الخدري ﷺأن رجلاً قال: يَا رَسُولَ الله طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، وَطُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي». وأخرج أبو داود الطيالسي وعبدُ بن حميد عن نافعٍ قال: «جاء رجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمن رأيتم رسول الله ﷺ بأعينكم هذه؟ قال: نعم، قال: طوبى لكم، فقال ابن عمر: ألا أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال سمعته يقول: طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، وَطُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي ثَلاثَ مَرَّات».

إن الإيمان بالغيب ركيزة أساس في عقيدة المؤمن، لها آثارها العظيمة وثمارها اليانعة على نفسه وحياته، ومعاملاته وتصرفاته، ونظراته وتصوراته، ومن ذلك إيمانه بالقضاء والقدر الذي هو شيء مغيب عنه لا يعلم عنه شيئاً، فهو أحد أركان الإيمان الستة، ومقتضاه: أن الله عز وجل قد سبق في علمه وتقديره ما هو كائن إلى يوم القيامة وكتب ذلك عنده، من هداية أو ضلالة، من توفيق أو حرمان، من غنى أو فقر، من صحة أو سقم، من عطاءٍ أو منع، كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟

بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وغير ذلك من الآيات التي تؤسس وثبت هذا الركن العظيم في قلب المؤمن؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وإيمان المؤمن بهذا يورث له الطمأنينة والراحة، والأنس والرضا بما يكتب الله ويقدره له ويقضيه عليه، فاللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، بيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله، علانيته وسره.

وقد تضمنت السنة النبوية من أقوال المصطفى ﷺ أعرف الخلق بالله وأخوفهم منه وأشدهم له خشيه وأعظمهم إيماناً وتعلقاً بالله سبحانه ما يؤكد الإيمان بالقضاء والقدر، الذي هو سر الله في خلقه، المغيب عنهم، بهذا كان عليه الصلاة والسلام يعلم ويؤسس، وبه يرشد ويوصي، ففي وصيته عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» رواه الترمذي وغيره.

وفي الصحيح عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال حدثنا الصادق المصدوق

قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِي أَوْ سَعِيدٍ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَوالله إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوْ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**».

وهذه العقيدة لا تتصادم مع العمل والأخذِ بالأسباب، بل تحث على العمل والأخذِ بها، وهي من التوكلِ على الله سبحانه، فليس الإيمان بالغيب وبالقضاء والقدر مدعاةً إلى الكسل والتواني والخمول والعجز، فعن أنس بن مالك ﵁ في قصة صاحب الناقة أنه قال لرسول الله ﷺ: أعقلُها وأتوكلُ؟ أو أُطلِقُها وأتوكل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**اعقلها وتوكل**» رواه الترمذي وهو القائل: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**» رواه الترمذي من حديث عمر ﵁ وقال حديث حسن، فهي متوكلة على الله حق التوكل مع أخذها بأسباب المعيشةِ وطلب الرزقِ.

إن الإيمان بالغيب ومنه الإيمان بالقضاء والقدر يفيض على القلب الرضا والتسليم والقبولَ والقناعة، يجعل المسلم لا يحزن على ما لم يحصل ولا يتألم لفواتِ محبوب أو وقوعِ مكروه، ولا يأشر ويتكبر بما آتاه الله، بل كما قال تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]

وعن صهيب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ**

خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رواه مسلم.

وعلى هذا الأساس العظيم كان الصحابة ومن بعدهم يربون أبناءهم وطلابهم، عقيدة وإيماناً، أداء للأمانة ونصحاً للأمة، روى الإمام أحمد عن عبادةَ بن الصامت ﷺ أنه قال لابنه: «يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ، قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وهم بهذا يقتدون بالقدوة المعلم نبينا ﷺ الذي كان يتعاهد أصحابه بالوصية ويَمْحضهم النصيحة، يشملُ بذلك الصغير والكبير، ولا أدل على ذلك من وصيته الجامعة لابن عباس رضي الله عنهما، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» رواه الترمذي.

وإن الخوض في الأمور الغيبية المقدرة والبحث عن معرفتها والتنبؤ بما سيكون منهيٌّ عنه، ويعظم تحريمُ ذلك إذا كان طلبُه عن طريق التنجيم أو السحر أو الكهانة، عن أبي هريرة ﷺ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ

فَقَالَ: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ» [رواه الترمذي]، ولهذا لما سئل أبو هريرة عن القدر قال: «طريق مظلم لا تسلكه، فكُرر عليه السؤال فقال: بحر عميق لا تلجه، فكُرر عليه السؤال فقال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه»(١) وروي عن الإمام أحمد قوله «القدر سر الله في خلقه».

ومن الإيمان بالغيب الإيمانُ بالدار الآخرة، بدءا من الموت فإن من مات قد قامت قيامته، وإن الإيمان بهذا كله يبعث المؤمن على أن يعمل الصالحات ويسلكَ طريق المتقين ويلزمَ نهج المفلحين ويسيرَ على دربهم، حتى يبلغ الجنة ويتبوأ منازلها وينعَم بما فيها من لذة وسرور ونعيم وحبور.

إن المؤمن بالآخرة وما فيها من عَرصاتٍ ومواقف بعيدٌ عن الجزع والهلع على الدنيا، لا تكون الدنيا همه ولا شغله، بل يراها دارَ ممر لا دار مقر، هي مزرعةٌ يحصد جناها في الآخرة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، يعلم حقاً أنها لا تساوي عند الله شيئاً، فلو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، يقول عنها النبي ﷺ: «مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ فِي شَجَرَةٍ ثُمَّ قَامَ وَتَرَكَهَا» [رواه مسلم]، وبهذا كانت وصيته لابن عمر رضي الله عنهما «يَا ابنَ عُمَرَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» [رواه البخاري]، ومن كان هكذا فإنه لا يضرب في الدنيا حبالاً طوالاً ولا يتعلقُ بها، لا يحب ولا يوالي ولا يعادي من أجلها.

---

(١) تحفة الأحوذي ٦/ ٣٣٤.

إن المؤمن وهو أعقلُ الناس يرفض أن يعيش لشهواته ونزواته، ومن أجل إشباع غرائزِه المحرمة فترة قصيرة مقابلَ العيشِ أحقاباً في نار جهنم، كما أنه لا يتهاون ولا يتكاسل في طاعة الله عز وجل والقيام بفرائضه وأداءِ حقوقه لأنه يخاف الله ويخشى عقابه ويرجو ثوابه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩ - ١٠] وهذا عين الحكمة والصواب.

إن الموت في نظر المؤمن بالله واليوم الآخر الغيبي لا يمثل إلا انتقالاً إلى حياة أخرى واسعة رحبة لا نكد فيها ولا تعب ولا نصب، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، الدار الآخرة دارُ الجزاء والحساب حيث لا عمل، بينما هذه الدنيا دار العمل، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» [رواه الترمذي].

إن الإيمان بالدار الآخرة يعطي المسلم قوة في التضحية والفداء وحب البذل والشهادةِ في سبيل الله عز وجل، وما قصة عمير بن الحمام الذي ألقى التمرات اللاتي كنَّ في يده لما سمع النبي ﷺ يُرَغِّبُ في الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم تقدم مجاهداً في سبيل الله لينال شرف الشهادة وينتقل للدار الآخرة في الجنة، بينما نجد منكِر الآخرة ينكِصُ على عقبيه، لأنه يخاف على أثمن ما يعتقد وجودَه وهو الدنيا، لأنه أسقط الآخرةَ من اعتقاده، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ

حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦].

الإيمان بالغيب يحقق للمؤمن الطمأنينةَ والأمان والسكينة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ويقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، المؤمن لا يقع عليه اليأسُ والقنوط، إذ أن أيمانَه يُفيض عليه الراحةَ وهدوءَ البال، فلو أُغلقت أبواب الدنيا في وجهه فإن بابَ الله عز وجل مفتوح لا يغلق، يحب من دعاه ولا يتبرم بكثرة المسائل، خزائنه ملآى لا تغيضها نفقة، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهو القائل كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**» [رواه مسلم].

ومن آثار الإيمان بالغيب على المؤمن الراضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، أنه قويُ الصلة بالله واثقٌ بموعودِه جل وعلا، ونصرتِه ومعونتِه وفرجه، فهو القائل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢] فأي طمأنينةٍ يعيش فيها المؤمن بعد هذا، حين يعتصمُ بالله ويلجأ إليه وحده دون سواه، لا يقنطُ من رحمته ولا ييأس من روحه، ولا يُعجبُ بعمله ولا يدلي بحسناته على ربه، والله يقول: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال ابن مسعود: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»[1]. قال الغزالي: «إنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير، والقلب القانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجبُ يعتقد أنه قد سعى وقد ظفر بمراده فلا يسعى، والسعادة موجودة في اعتقادِ المعجَب حاصلة له، مستحيلة في اعتقاد القانط، فَمِنْ ههنا جمع بينهما»[2].

إن الذي لا يؤمن بالغيب ولا يصدق بموعود الله فلا يثق به جل وعلا ولا يتوكلُ عليه مضطربُ البال قلقُ النفس لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، لا يحسُ بطمأنينة ولا يستلذ لراحة، يخاف من الصغير قبل الكبير، ويهاب الحقيرُ قبل العزيز، بخلاف المؤمن بالله، فله من الثباتِ والرسوخ ما يحول بينه وبين الأمور، فالأرزاق والآجال بيد الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وروى ابن ماجه عن أبي حُميد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أجملوا في الطلب فإن كلاً ميسر لما خلق له**».

إن المؤمن الصادقَ لا يعاني مما يعانيه الآخرون من اضطرابات نفسية وقلقٍ وخوفٍ وهَمٍّ، لأن الآخرين تهمهم الدنيا بزخارفها وما فيها من جاه ومنصبٍ ومال وسمعة، وهذه كلُها وما شابهها لا قيمة لها عند المؤمن، لأن

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦٩.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦٩.

همّه الأكبر رضى ربه عز وجل عنه مستعدٌ للقائه في كل حين، لأنه لا يعلم متى ينزل به الموت، قيل لأحدهم لما اشتد مرضه: إنك ستموت ، فقال: وإلى أين يذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى مَنْ لا أرى الخيرَ إلا من عنده»، يقول الشاعر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من منزل الفاني إلى المنزل الباقي

ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ الله أَهُوَ المَوْتُ؟ فَكُلُّنَا يَكْرَهُ المَوْتَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْعَبْدَ المُؤمِنَ إِذَا كَانَ فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ الله، فَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْعَبْدَ الْفَاجِرَ أَوْ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ بُشِّرَ بِسَخَطِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَكَرِهَ لِقَاءَ الله فَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ**».

إن ثقة المؤمن بربه تجعله مطمئناً إليه، وهذا من أهم عواملِ السكنِ النفسي، فطريقُه وغايته واضحة، يسعى لها ويكدح من أجلها، وفرق بينه وبين الضال الحائر التائه، لا يدري لم خلق وإلى أين يسير وأين يصير، يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢]، إن السكينة وهدوء البال لا تكون إلا من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، إنها السكينة التي عمرت قلبَ رسولِ الله ﷺ في الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وهي أيضاً للمؤمنين المجاهدين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

إن الإيمان لا يرفض المال ولا الدنيا، ولكنه يعتبرها مزرعة ووسيلة إلى الآخرة ومعينة على تحقيق العبودية لله عز وجل والقيام بطاعته، وبدون الإيمان لا تساوي شيئاً بل تكون سبباً في تعاسة صاحبها وشقاوته، قال عز وجل: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وعند الإمام أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ»**.

وقد بين عليه الصلاة والسلام أحوال الناس في الدنيا وآثار ذلك عليهم بقوله: **«مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ الله شَمْلَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ هَمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ الله عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ»** [رواه البيهقي بسند صحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه].

إن السعادة شجرة عظيمة غذاؤها الإيمان بجميع أركانه وشعبه، ومن ذلك الإيمان بالغيب بجميع مقتضياته وما يدخل فيه ويتضمنه، حيث يجلب للنفس اللذة والسعادة، والسكينة والهناءة، يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. ولذلك روي عن بعض الصالحين قوله: «إنه لتمر عليَّ ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة بمثل ما أنا فيه الآن إنهم لفي

عيش طيب»، بخلاف الكثيرين من الحيارى التائهين، الذين لم يعرفوا للسعادة طعماً ولا إلى الراحة والطمأنينة سبيلاً مع أنهم مغرقون في النعيم عابثون لاهون بكل ما حُرِّم عليهم، يقول أحد صرعى المدنية الزائفة: «إنني أعيش في خوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها، ولا الصحة ولا الرجولة ولا المرأة ولا السهرات الحمراء، ضقت بكل شئ بعد أن جربت كل شئ»، ويقول بعضهم:[1]

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

إن الإيمان بالغيب كفيل بعلاج الأمراض العقلية والاضطرابات النفسية والمعضلات الصحية التي يرى الأطباء أنها لا تعالج إلا بصعوبة، وربما لا يشفى صاحبها، بعكس المؤمن بالغيب فهو لا يتحسر على الماضي ولا يسخط على الحاضر ولا يخاف من المستقبل، يؤمن بقضاء الله وقدره وأنه جل وعلا لا يختار لعبده إلا ما هو أصلح وأنفع له، يستشعر معية الله الخاصة له، ومن مقتضاها النصرة والتأييد، والتوفيق والتسديد كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، وبخلاف هذا الاعتقاد يحس الإنسان بالوحدة والخوف يقول أحد علماء النفس: «إن مرض إحساس الإنسان بوحدته من أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية»، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه قوله عليه الصلاة والسلام: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٠.

خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

إن المؤمن بالغيب بعيد النظر واسع الأفق والفكر، يتطلع إلى رضوان الله والجنة، يتعامل في دنياه بنظرة واسعة وميزان عادل، وتعايُشٍ متكامل مع جميع الظروف والأحوال، وتقبل تام لما يحل به أو ينزل عليه من الهموم والأحزان، والنوازل والابتلاءات، بخلاف الساخط الذي يقول فيه ابن القيم: «قلَّ أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به»[1].

ولذلك ورد في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الترمذي «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**».

المبحث الثاني: الإيمان بالكتب:

من صفات عباد الله المفلحين الإيمان بالكتب المنزلة من الله عز وجل على رسله، وأفضلها وأعظمها وناسخها القرآن الكريم، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤] وقد اختلف في المراد بهؤلاء في الآية، فقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وقيل نزلت في مؤمني العرب.

قال الإمام القرطبي: «قوله تعالى ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٠٨.

﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يعني: الكتب السالفة، خلاف ما فعل اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾[البقرة: ٩١] الآية، وقيل لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[البقرة: ٣] قالت اليهود والنصارى: نحن آمنا بالغيب، فلما قال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة: ٣] قالوا: نحن نقيم الصلاة، فلما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] قالوا: نحن ننفق ونتصدق، فلما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾[البقرة: ٤] نفروا من ذلك»[1].

إن الإيمان بالكتب المنزلة من الله عز وجل على رسله أحد أركان الإيمان، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام الطويل وفيه «**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» [متفق عليه]، والإيمان بالكتب يكون تفصيلاً بالكتب التي ذكرها الله عز وجل وأخبرنا عنها، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والزبور المنزل على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم، والقرآن العظيم المنزل على نبينا محمد ﷺ، ونؤمن إجمالاً بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله ولم تسم لنا، والأدلة على هذا كثيرة، يقول تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٨٠.

ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. ولا ريب أن الإيمان بهذه الكتب له ثمرات كثير، أهمها:

أولاً: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أنزل على كل قوم كتاباً يهديهم إلى طريقه المستقيم، وبه تكون سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: ظهور حكمة الله سبحانه، حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مناسباً لجميع الخلق في كل عصر ومكان إلى يوم القيامة.

ثالثاً: شكر نعمة الله تعالى على ذلك، حيث أنزل الله ما به النجاة والخروج من الظلمات إلى النور، وبه الوصول إلى رضوانه والجنة، ومعرفة الواجب والقيام به.

وقد ذكر أهل العلم في الإيمان الواجب تجاه القرآن: أنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه سور محكمات وآيات بيّنات وحروف وكلمات، وله أول وآخر، متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور ومسموع بالأذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخاص وعام وأمر ونهي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن الإيمان بالقرآن الاعتقاد الجازم بأنه كتاب هداية ونجاح، وإصلاح وفلاح في كل الأمور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] الآية. وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا

يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: ١٥-١٦]، وهداية القرآن قد انداحت دائرتها منذ نزل على رسول الله ﷺ، فانتظمت الإنس والجن، والدنيا والآخرة، لخصائص ومميزات انفردت بها تلك الهداية، قال الزرقاني: «وهداية القرآن تمتاز بأنها عامه وتامة وواضحة.

أما عمومها: فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، قال سبحانه وتعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[الأنعام: ٩٢] وقال عز اسمه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف: ١٥٨].

أما تمام هذه الهداية: فلأنها احتوت أرقى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من الهدايات، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكمية بين مطالب الروح والجسد.

وأما وضوح هذه الهداية: فعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، أسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه،

واستدلال بسيط عميق، يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم مختار يقوي الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز، ويصقل الأفكار والعواطف، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار»[(١)].

فهدايات القرآن الكريم ليست مقصورة على قوم دون قوم، أو خاصة بفئة دون فئة، ولكنها للإنسانية جمعاء إذا آمنت وصدقت به، وسارت على هديه، والتزمت منهجه واستضاءت بنوره كما قال تعالى﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[إبراهيم: ١].

وهو حجة الله على الناس به سعادتهم وفلاحهم وعزهم ورفعتهم ونصرهم متى تمسكوا به وانقادوا له وتحاكموا إليه، وعليه يكون الحساب والجزاء، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ٤٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» [رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ].

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن حياة الشقاء والتعاسة إلى الحياة الطيبة والسعادة الهانئة لا يكون إلا بالعمل بالقرآن، والتمسك بتوجيهاته في جميع جوانب الحياة، والعناية به في شتى المجالات دون غلو أو

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٢٤-١٢٥.

جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، كما قال تعالى ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، الآية.

وهذا هو الإيمان الكامل المتكامل، والعناية الحقة الصادقة بالقرآن الكريم حين يقترن الإيمان الصادق بأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل له المكانة العظمى في النفوس، والتصديق التام والتعظيم الكامل في القلوب مع العناية به، تلاوة لآياته وحفظاً لها، تدبراً وتأملاً في هداياتها ودلالاتها، خدمة له بتفسيره وبيان أحكامه والوقوف على سماته البلاغية ولطائفه البيانية، تحقيقاً تاماً في العمل به والتقيد بتوجيهاته وتطبيق أحكامه والتزام آدابه، كما حكى جل وعلا حال المؤمنين الصادقين المفلحين بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ومن لوازم الإيمان بالقرآن الكريم الإيمان والتصديق بما تضمنه كتاب الله عز وجل من أخبار غيبية ماضية أو مستقبلة، وأحوال الأنبياء مع أقوامهم ونحو ذلك، فهو الذي وصفه ربنا جل وعلا بقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وكذا الإيمان والتصديق بما وصف به جل وعلا كتابه وسماه به، بأنه رحمة ونور وهدى وشفاء وبشرى، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ

إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إن القرآن الكريم ربيع قلوب العارفين، وأنيس المؤمنين، وبهجة الموحدين، وعز المسلمين، لأنه مصدر تشريعهم ودستور أحكامهم، والينبوع العذب الصافي لآدابهم وأخلاقهم، ومشعل الهداية ونبراس الطريق، وحصن الأمن والسلامة، والهداية لكل خير، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

إن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، من أجل هذين الهدفين نزل، وعليهما دل، وأعظم هداياته الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وإقامة الأدلة والبراهين على أنه جل وعلا المستحق للعبادة دون سواه، وبيان ضلالات المشركين وإقامة الأدلة على فساد آلهتهم التي يعبدونها من دون الله عز وجل، وكان القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز يحاكم الناس إلى عقولهم، ويفتح عيونهم على الكون، وما فيه من أرض وسماء، وبر وبحر وإنسان وحيوان، ونواميس وسنن، كان حديثه عن تلك الكونيات حديث العالم بأسرارها، الخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومعارفها، معجزاً أبهر الإعجاز وأدقه، على حين أنه نزل على نبينا ﷺ، وهو رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها،

بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال، فثبت أن ذلك من لدن حكيم عليم، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨ – ٤٩].

لقد تضمن القرآن الكريم من وجوه الإعجاز ما لا تتطاول القدرات البشرية مجتمعة أو متفرقة إلى الإتيان بمثله، مهما تعاقبت العصور وتوالت الدهور، وهذا الإعجاز بجميع صوره وأشكاله في كتاب الله عز وجل إلى قيام الساعة، وليس أدل على ذلك من حاجة الإنسانية المتجددة يوماً بعد يوم إلى ما يدعو إليه من قيم ومبادئ تتفق مع الفطرة الإنسانية السوية؛ لأنه كلام الله سبحانه المنزل على محمد ﷺ الرحمة المهداة والنعمة المسداة، الذي ذكر ربنا جل وعلا الغاية من إرساله بقوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وأعظم رحمة للبشرية إنقاذهم به مما أوحاه ربنا إليه من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور الإسلام والإيمان، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥]. ومما تضمنه القرآن الكريم الإخبار القاطع بأن الله أنزل قبل القرآن كتباً يصدق القرآن بها على ما كانت عليه يوم أنزلت ومهيمناً عليها، لا على ما هي عليه الآن من التحريف والتغيير، والزيادة والنقص، وليس لها سند متصل يصحح نسبتها إلى من أنزلت عليه وبخاصة التوراة إلى موسى، والإنجيل إلى عيسى عليهما السلام، فلذلك لا يصح أن يوثق بهما؛ بل إن التوراة والإنجيل

الموجودة الآن لا يصح بأي حال من الأحوال نسبتها إليهما ففيهما الكثير من الأغلاط والمتناقضات والتحريفات وهي على وجهين:

الأول: تحريف معنوي، وذلك بتغيير مدلولات الألفاظ وترجمتها إلى ما لا يوافق مرادها.

الثاني: تحريف لفظي، ويكون هذا التحريف بأحد ثلاثة وجوه، بالتبديل أو الزيادة أو النقصان.

وقد ذكر القرآن الكريم أهل الكتاب من يهود ونصارى بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وبأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً ويخفون كثيراً، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] الآية وقال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤] الآية، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: ١٥]، وقد تتبع المحققون كتب أهل الكتاب فوجدوا فيها الشيء الكثير من التحريفات التي يشهد العقل بداهة أنها تحريف وتغيير، وكشفوا أيضاً كثيراً من المتناقضات والأنماط والمخالفات التي ملئت بها هذه الكتب المحرفة.

إن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم لا يجوز بحال أن يكون منفصلاً عن هداية القرآن مبتوراً عن تحقيق هذا الغرض وإبراز هذا الهدف الأساس؛ فالقرآن كتاب هداية للخلق، إلى بارئهم وخالقهم، للقيام بعبادته وتحقيق توحيده أداء للغاية التي خلقوا من أجلها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

وقد سلك القرآن الكريم جميع الأساليب والمسالك النقلية والعقلية والفطرية لحمل الإنسان على هذا الهدف، فلفت الأنظار من أجل ذلك إلى الكون المحيط، بأفلاكه وكواكبه، وليله ونهاره، وسهوله وجباله، وبحاره وأنهاره، وسحبه وأمطاره، ونباته وأشجاره، ولفت النظر إلى أعماق النفس الإنسانية بعواطفها ومشاعرها، وطاقاتها وقدراتها، وشد الانتباه إلى ما يحيط بالإنسان مما هو مسخر لخدمته وتحقيق مصالحه، وتسهيل أموره من الحيوان والنبات والجماد، ولما كان المخاطب الناس بعامة بمختلف طبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال ما يعم شرائح المجتمع على مختلف العصور وتنوع البيئات، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤].

المبحث الثالث: الإيمان بالنبي ﷺ

لقد منَّ الله على هذه الأمة بأن أرسل إليها أفضل رسله وخيرته من خلقه محمداً ﷺ، سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، والمخصوص بالشفاعة العظمى يوم الدين، صاحب اللواء المعقود والحوض المورود والمقام المحمود، إمام الأنبياء وخاتم الرسل عليهم السلام، هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وألزم جميع الخلق الإيمان به وطاعته واتباع سنته واقتفاء أثره إلى يوم الدين.

اصطفى الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ من خلقه، فأعلى قدره وعظم منزلته، وفضله على خلقه، وخصه بفضائل لم تكن لغيره، وكرَّمه بخصائص انفرد بها عليه الصلاة والسلام، عن غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام، فوجب الإيمان به وتعظيمه وتوقيره، ونصرته والذب عن سنته، والدعوة إلى دينه والنصح له.

وتلك وأيم الله من أسس الفلاح وركائز النجاح في الدنيا والآخرة، فلا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان به ومحبته وطاعته واتباع سنته، وتوقيره وتعظيمه فيما يليق به، ونصرة دينه والذب عن سنته، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقد اشتملت الآية على جملة من أوصاف النبي ﷺ مما في التوراة والإنجيل ثم ختمت ببيان أن المفلحين حقاً من آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا ما معه من الهدى والنور الذي أُنزل عليه من الله تعالى.

والرسول والنبي اسمان لمعنيين، فإن الرسول أخص من النبي، وإنما قدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم، وقوله «الأمي» أي أنه عليه الصلاة والسلام منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا القراءة، قال ابن عباس رضي الله عنه «كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، قال الله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]»[١].

وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**» الحديث، وهذا لا ينقص من قدره ولا يضع من منزلته بل هو تهيئة لأمر عظيم، وهو تحمل هذا الدين والدعوة إليه وإبعاد جميع التهم والشكوك بأنه افتراه واخترعه من عنده، إلى آخر كلام طويل ذكره أهل العلم في هذه المسألة، وقيل: نسب النبي ﷺ إلى مكة أم القرى ذكره النحاس[٢]، وهو بعيد، ومما تضمنته الآية قوله ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، يفسره ما رواه البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٤٢٥.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٨٩.

أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: «أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً».

ومما وصف به عليه الصلاة والسلام في الآية قوله ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] قال عطاء: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام وقطع الأرحام»[1].

ومن وصفه قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحامي ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما «كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى»[2].

قال بعض العلماء: «فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه الله فهو خبيث ضار في البدن والدين».

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٦٢، معالم التنزيل ١/ ٢٨٨.

ومن وصفه عليه الصلاة والسلام قوله تعالى ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧] أي «أنه جاء بالتيسير والسماحة، يدل لهذا قوله عليه الصلاة والسلام «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ» [رواه أحمد]، وقال لأميريه معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: «بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا» [رواه البخاري ومسلم]، وكانت الأمم قبلنا في شرائعهم ضيق وتشديد عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها ويسرها لهم، ببعثة هذا النبي الكريم الرؤوف الرحيم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» [رواه البخاري].

وقال أيضاً: «إِنَّ اللهَّ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» [رواه ابن ماجه]، وأرشدنا الله إلى هذا الدعاء العظيم الذي استجاب لمن دعاه به «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ» قال الله: قد فعلت [رواه مسلم]، والإصر هو الثقل قاله مجاهد وقتادة، وقيل: هو العهد. روي عن ابن عباس والضحاك والحسن، وعلى هذا فالمعنى: إن بني إسرائيل قد أخذ عليهم عهداً أن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال كغسل البول وتحليل الغنائم ومجالسة الحائض ومآكلتها ومضاجعتها، فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه، وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء

فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها إلى غير ذلك[1].

ثم ختمت الآية بأربعة أمور واجبة تجاه هذا النبي الكريم وهي قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهي: أولاً: الإيمان به عليه الصلاة والسلام، والثاني: تعزيره، كما في قوله ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقرأ الجحدري ﴿وَعَزَرُوهُ﴾ بالتخفيف[2]، وفي معناه قولان: أحدهما: عظموه ووقروه، روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، والثاني: أعانوه ونصروه[3]. قال الراغب الأصفهاني: «التعزير: النصرة مع التعظيم»[4]. والأمر الثالث: النصرة في قوله ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي على كل أعدائه في الدين، والأمر الرابع: قوله تعالى ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن، وعبر عنه بالنور لظهوره في نفسه بإعجازه، وبيان أحكامه وجلاء هداياته، ثم قال تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب، لا المتصفون بأضداد صفاتهم، وفي الإشارة بقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى علية تلك الصفات، وكاف البعد للإيذان ببعد المنزلة وعلو الدرجة في الفضل والشرف[5].

---

(١) ينظر: جامع البيان ١٠/ ٤٩٥-٤٩٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٤١٥-٤١٦.

(٢) مختصر في شواذ القرآن ٥٢.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٤٩٧.

(٤) المفردات ٣٣٣.

(٥) ينظر: روح المعاني ٩/ ٨٢.

وفي بيان أوسع لهذه الحقوق أقول: إن من أسس الفلاح وركائزه، الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه وما يستلزم ذلك، وذلك بتحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهما مفتاح الإسلام، لا يمكن الدخول إلى الإسلام إلا بهما، ولهذا أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [رواه البخاري ومسلم]، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله عز وجل.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله التي نحن بصدد الحديث عنها: الإقرار باللسان والإيمان بالقلب أن محمد بن عبد الله رسول الله عز وجل إلى جميع الخلق من الجن والإنس، كما قال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله تصديق رسول الله ﷺ فيما أخبر، وامتثال أمره فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، ومقتضى هذه الشهادة أيضاً أن لا يعتقد أن لرسول الله ﷺ حقاً في الربوبية وتصريف الكون أو حقاً في العبادة، كما يزعمه الغلاة والضلال من المتصوفة وغيرهم فيه، بل هو عليه الصلاة والسلام عبد لا يعبد ورسول لا يكذب، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ

ﭐلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقال عز وجل: ﴿ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن: ٢١ - ٢٣] الآية.. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ومن حقه عليه الصلاة والسلام أن ينزل منزلته التي أنزله الله إياها، فهو بشر كرَّمه الله وفضَّله واصطفاه من خلقه وأرسله بهذا الدين العظيم وأنزل عليه أفضل كتبه، وجعله خاتماً للرسالات السابقة، يجب على كل من أدركه الإيمان به والتصديق برسالته والدخول في دينه دين الإسلام، كما قال تعالى ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي صحيح مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

ومن الإيمان به عليه الصلاة والسلام الإيمان والتصديق بمعجزاته الدالة على رسالته وأنها حق، وأعظمها القرآن الكريم، كما قال تعالى ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٠ - ٥١]، وهناك من الآيات والمعجزات

الحسية ما مضى وانقضى ومنها ما يزال يحدث، ذكر جملة منها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، والحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية.

وقد جاء الأمر بالإيمان برسول الله ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن بأساليب متنوعة، ومن الملاحظ أن أغلب الآيات التي جاء فيها الأمر بالإيمان به ﷺ قرن فيها بالإيمان بالله تعالى، من ذلك قوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الحديد: ٧-٨]، وقال تعالى ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [التغابن: ٨].

بل أمره جل وعلا أن يعلن عموم دعوته لجميع الناس وأساسها الإيمان بالله ورسوله واتباعه، قال تعالى ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وجعل الله من صفات المؤمن الحق الإيمان به سبحانه وبرسوله ﷺ قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢]، وفي المقابل فقد

كفر الله سبحانه من لم يؤمن به وبرسوله عليه الصلاة والسلام، قال تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣]، وحذر من عدم الإيمان به وأنهم لو آمنوا به لكان خيراً لهم، قال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠]، وجعل الله الإيمان به سبحانه وبرسوله محمد ﷺ أولى التجارات الرابحة والمنجية من عذابه جل وعلا، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠-١١] الآيات.

وقد أمره الله عز وجل أن يدعو الناس إلى هاتين الشهادتين العظيمتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن يقاتل الناس حتى يؤمنوا بها، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله**» الحديث [متفق عليه]، وقد عبر في هذا الحديث بالشهادة «**حَتَّى يَشْهَدُوا**» لأنها أعمق من القول وهي تشمله وغيره، لأن الشهادة بتوحيد رب العالمين وبرسالة محمد ﷺ تنفي كل ما يعارضها ويخالفها، وتلزم قائلها لوازم كثيرة من الإيمان والتصديق والطاعة وغير ذلك، ولهذا كانت الشهادتان أول ما يدعو إليه النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله**»، وفي رواية

«**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله**» [رواه البخاري ومسلم].

والمراد والله أعلم: أي توحيده سبحانه والإيمان برسوله المصطفى ﷺ وطاعته لأنه المبلغ عن ربه عز وجل.

أما الحق الثاني فهو تعزيره بمعنى توقيره واحترامه وتعظيمه، بما يليق بمكانته وقدره، فلا يرفع ولا يعطي شيئاً من حقوق الله، وذلك بأن يصرف له شيئ من العبادة، كالدعاء وطلب النفع وكشف الضر وتفريج الكروب فهذه لا تطلب إلا من الله عز وجل، كيف لا وهو القائل «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**» [أخرجاه]، وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله**»، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** – أو كلمة نحوها – **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ الله شَيْئًا، يَا عَبَّاس بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ الله شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله** ﷺ **لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ الله شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّد سَلِينِي مِنْ مَالي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ الله شَيْئًا**»، وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ**» [رواه الضياء

في المختارة بسند جيد] لقد اصطفى الله عز وجل نبينا محمداً ﷺ من خلقه وأعلى قدره وعظم منزلته وفضله على خلقه وخصه بفضائل لم تكن لغيره، ومما جاء في القرآن الكريم مما يدل على عظيم قدره ورفعة منزلته عند ربه ما يلي:

١- أن الله عز وجل أخذ العهد له على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إن بعث هو عليه الصلاة والسلام وهم أحياء وجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصرونه، وأن يأخذوا هذا العهد على جميع أممهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

٢- أنه عليه الصلاة والسلام أول المسلمين وخاتم النبيين، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] وقال عز وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٣- كونه عليه الصلاة والسلام منة الله على عباده، فلا هداية لهم إلا على يديه وعن طريقه الداعي إليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وجعله رحمته المهداة للعالمين مؤمنهم وكافرهم، كما جعله رؤوفاً رحيماً لأمته خاصة، قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وجعل وجوده عليه الصلاة والسلام بين أمته أمنة لهم من العذاب والهلاك بخلاف ما حصل لبعض الأمم السابقة حيث عذب بعضهم وأهلك آخرون مع وجود أنبيائهم، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٤- أن الإيمان به عليه الصلاة والسلام مقرون بالإيمان بالله تعالى، فلا يصح إيمان من لم يؤمن برسول الله ﷺ، وإن ادعى الإيمان بالله تعالى، بل لابد من وجود الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]. كما أن طاعته ومبايعته عليه الصلاة والسلام هي طاعة الله عز وجل ومبايعته، حيث قرن جل وعلا بين طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام وجعل اتباعه عليه الصلاة والسلام موجباً لمحبته سبحانه، والأدلة على هذا كثيرة منها قوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] الآية.. وقال عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] وقال تعالى ﴿قُلْ

إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

٥- من أدلة رفعة قدره وعظيم منزلته عليه الصلاة والسلام عند الله عز وجل أنه جعل رسالته عامة لكل الناس، بخلاف ما كانت عليه الرسل، حيث كانت ترسل إلى أقوامهم خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] ، وقال عز وجل ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ - وفي رواية: وَبُعِثْتُ إِلى النَّاسِ عَامَّة - وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»** [متفق عليه واللفظ لمسلم].

٦- من أدلة علو قدره ورفعة منزلته عند الله عز وجل أن الله تكفل بحفظه وعصمته، كما كفاه المستهزئين فلا يصلون إليه وتكفل أيضاً بحفظ دينه من التبديل والتحريف ليكون باقياً معجزاً، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٥]، وقال عز وجل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٧- أن الله عز وجل غفر له -عليه الصلاة والسلام- ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو حي صحيح يمشي على الأرض، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣]، وقد كان عليه الصلاة والسلام مع هذا الإكرام والفضل من الله عز وجل طويل العبادة مكثر الطاعة، كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فإذا قيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» [رواه البخاري ومسلم].

هذه بعض الأدلة على رفعة قدره وعلو منزلته عند الله عز وجل، أفلا يكون له التعظيم اللائق به والتقدير المناسب في قلوب أمته، بلا غلو ولا جفاء فهو عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذب، يقول تعالى آمراً إياه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

أما **الحق الثالث فهو نصرته عليه الصلاة والسلام** وذلك يشمل بذل النفس والمال دونه وفداءً له، وقد سجل أصحابه رضي الله عنهم وهم الصادقون في محبته عليه الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التضحية والفداء، ببذل الأرواح والأموال والجهود دونه وبين يديه عليه الصلاة والسلام، ولا غرو فقد شرفوا بصحبته بعد أن اختاره ربنا جل وعلا، واصطفاهم من الخلق ليكونوا معه رضي الله عنهم أجمعين.

إن السيرة النبوية العطرة مليئة بتلك المواقف المشرفة والصفحات الناصعة الدالة على محبتهم العظيمة ونصرتهم لرسولنا عليه الصلاة والسلام، وصدقوا في ذلك، ومن تلك المواقف روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: شهدت من المقداد بن الأسود ﷺ مشهداً لأن أكون صاحبه أحبُ إليَّ مما عُدِل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين - أي في معركة بدر - فقال: «لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك».

وما جاء في حادثة الهجرة من البذل والتضحيات التي قدمها أبو بكر ﷺ للرسول ﷺ، حيث خرج بماله وسخر أهله في خدمته، ثم دخل الغار قبله يتحسسه له قبل أن يدخله خشية أن يناله أذى، ثم بات يحرسه بعد أن وضع النبي ﷺ رأسه في حجره نائماً من التعب والإعياء، ثم لما كانا في الطريق كان يمشي أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، ويسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فيذكر له خشيته من العدو أن يناله من تلك الجهات.

وفي معركة أحد أبلى المسلمون بلاءً حسناً وبخاصة بعد أن تمكن المشركون من المعركة واستشهد من استشهد من الصحابة ووقف أبطال الصحابة سداً منيعاً دون رسول الله ﷺ خشية أن يناله أذى أو مكروه، روى الشيخان عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لما كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة ﷺ بين يدي النبي ﷺ مجوّب عليه بحَجَفَة» وهي

الترس إذا كان من جلد ليس فيها خشب. قال: «وكان أبو طلحة ﷺ رجلاً رامياً شديد النزع -أي رامي سهم- وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثة» أي من شدة الرمي، قال «ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة ﷺ: يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تشرف، لا يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»، ويروي ابن إسحاق موقفاً آخر من مواقف البطولة والتضحية والفداء لأبي دجانة ﷺ حيث يقول: «وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه - أي جعل جسده واقياً لحماية رسول الله ﷺ - ويقع النبل في ظهره، وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل وهو لا يتحرك»[1].

وها هو موقف آخر من مواقف البطولة والتضحية والنصرة لرسول الله ﷺ والذود عنه، يرويه ابن إسحاق فيقول: «وقال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم: من رجل يشتري لنا نفسه؟فقام زياد بن السكن، وقيل عمارة بن يزيد ابن السكن في خمسة نفر من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، يُقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه - أي نَحُّوهم وأزالوهم عنه - فقال النبي ﷺ: «ادْنُوهُ مِنِّي»، فَأَدْنَوهُ مِنْهُ فَوَسَّدَهُ قَدمُهُ فَماتَ وَخَدُّهُ عَلَى قَدَمِ رَسُول الله ﷺ»[2].

ولا تزال نصرته عليه الصلاة والسلام والذب عن سنته واجبة موصولة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٦، سيرة ابن هشام ٤/ ٣١.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩.

بعد وفاته، لذا فقد اجتهد في هذا الباب العلماء والصالحون في تعليم سنته والتفقيه في دينه وجمع حديثه وتمييز صحيحه من ضعيفه والجلوس لطلاب العلم والناس عامة يبلغونهم ما معهم من العلم وما أنعم الله عليهم من الحكمة، أداء للأمانة ونصحاً للأمة، يقول أبو عبدالله الحاكم في هؤلاء «قوم سلكوا محجة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودفعوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين... فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم ومجالسُ العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم»[1].

وبهذا العمل الجميل من خدمة السنة والعناية بها وتعليمها الناس كانوا يتواصون ويتعاونون، روى المروزي في السنة عن عبدالله بن عون أنه قال: «ثلاثة أرضاها لنفسي ولإخواني: أن ينظر هذا الرجل المسلمُ القرآن فيتعلمه ويقرؤه ويتدبره وينظر فيه، والثانية: أن ينظر ذلك الأثر والسنة فيسأل عنها ويتبعه جهده، والثالثة: ألا يدع الناس إلا من خير»[2].

وأخرج اللالكائي عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: «إن لله عباداً يحيي بهم البلاد، وهم أصحاب السنة»[3]، وصدق رحمه الله فإن البلاد

---

(١) معرفة علوم الحديث ٤.

(٢) السنة للمروزي ٢٨.

(٣) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٦٥.

تحيي بنور العلم والسنة مما تحمَّله العلماء وورثوه، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

المؤمن الصادق المحب لرسول الله ﷺ يبين سنته ويدعو إليها بحكمة وأسلوب حسن، بلا خصومة ولا جدال، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى «الجدال في الدين يُنْشِئُ المراء ويذهب بنور العلم من القلب ويقسي ويورث الضِغْن»(١)، فعلى أهل العلم وطلابهم أن يبينوا السنة للناس ويدعوهم للأخذ بها ويقيموا الحجج على ذلك، فإن لم يقبل منهم فما عليهم إلا البلاغ، وقد برئت الذمة وقامت الحجة، مع لزوم تكرار التعليم ومواصلة التوجيه، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أخبر بالسنة ولا تخاصم عليها»(٢)، وقال الهيثم بن جميل: «قلت لمالك بن أنس: يا أبا عبدالله الرجلُ يكون عالماً بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه وإلا سكت»(٣).

هذا في المخاصمة والمجادلة المذمومة التي تنشأ عنها المفاسد، أما المجادلة بالتي هي أحسن لبيان الحق وإظهار السنة فمحمودة وقد تكون واجبة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.. وكانوا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٦.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٣٦.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤.

يتناظرون في المسالة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة بأخوة الدين، نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة، وما أجمع عليه سلف الأمة لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»[1].

أما الحق الرابع في الآية فهو اتباع النور الذي أنزل معه وهو القرآن الكريم، قال الإمام الألوسي رحمه الله تعالى قوله ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧] «هو القرآن، وعبر عنه بالنور لظهوره في نفسه بإعجازه وإظهاره لغيره من الأحكام وصدق الدعوة، فهو أشبه شيء بالنور الظاهر بنفسه والمظهر لغيره، بل هو نور على نور»[2].

ولأهمية هذا الحق ووجوبه على الأمة لا يعذر أحد بالتفريط والتهاون فيه، روى عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله تعالى ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] «فأما نصره وتعزيره فقد سبقتم به، ولكن خيركم من آمن واتبع النور الذي أنزل معه»، وإن كان يدخل فيما سبق تعظيم سنته ونصرة دينه والذب عن شريعته.

إن المقصد الأسمى من بعثته عليه الصلاة والسلام هو الإيمان به والشهادة بأنه رسول الله، بعثه ربنا جل وعلا بين يدي الساعة مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وذلك يستلزم طاعته واتباع أمره والتمسك بسنته

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٢.

(٢) روح المعاني ٩/ ٨٢.

والسير على نهجه والتزام طريقته، ولا يكون ذلك إلا بالعلم بما آتاه الله تعالى من القرآن والسنة والفقه فيهما، وإتباع ذلك العمل بهما، فقد جمع الله بينهما في مواضع من كتابه، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠] إلى قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤] وحكى الله حال المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وقد سمى الله عز وجل القرآن الكريم نوراً في اثنتي عشرة آية، فهو النور الساطع والبرهانُ القاطع، هو النور حقاً يهتدي به كلُّ تائه وحيران، نورٌ تشفي أشعته من أمراض الشهوات والشبهات، نورٌ استضاء به الصحابة والتابعون لهم بإحسان رحم الله الجميع، فكانت لهم الدنيا مجداً وعزاً وفخراً ونصراً، وكانت لهم الآخرة سعادةً وفوزاً وأمناً.

إن القرآن الكريم منة الله عز وجل وفضله على هذه الأمة، يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥]، قال الإمام القرطبي «النور المنزل هو القرآن وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام، ويهتدى به من الضلالة»(١).

فهو النور الذي أنزله الله عز وجل لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٧.

النور، من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان، ومن ظلمات الجهل والظلم إلى نور العلم والعدل.

وقد أبان الله عز وجل في كتابه أن الأعداء مافتئوا في كل زمان ومكان يريدون إطفاءَ هذا النورِ وطمسَ ذلك الخير بمحاولات جادة ومكرٍ لا هوادة فيه، وأنى لهم ذلك وقد تكفل الله بحفظه ورعايته وانتشارِ عموم نفعه وبركتِه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقد أخبر النبي ﷺ عن بعض سور القرآن بأنها نور، من ذلك ما رواه الإمام مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ، إِلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ، إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**».

والمروي عن الصحابة ﷺ في بيانِ هذا الأمر والحثِ عليه كثير، من ذلك ما رواه الدرامي عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبةُ الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبلُ الله والنورُ والشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيُستعتب، ولا يَعوج

فيقوَّم، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته، بكل حرف عشر حسنات»، وروى أيضاً عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «إن هذا القرآن كائن لكم أجراً وكائنٌ لكم ذكراً وكائن بكم نوراً وكائن عليكم وزراً، اتبعوا هذا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به في رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن يُزخ في قفاه فيقذفَه في جهنم»، فيا شقاوة وتعاسة من حرم هذا النور، وما أضل وأتعس من حاد عنه وتنكب طريقه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ويقول تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

يقول القاضي عياض: «اعلم أن من أحب شيئاً آثره وآثر موافقتَه، وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدعياً، فالصادقُ في حب النبي ﷺ من تظهر علامةُ ذلك عليه، وأولها: الاقتداء به واستعمال سنته واتباعُ أقوالِه وأفعالِه وامتثالُ أوامرِه واجتنابُ نواهيه، والتأدبُ بآدابه في عسره ويسره ومنشطِه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته، فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ولرسوله ﷺ، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها»(١).

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٥٧١-٥٧٢.

فما أكثر من يدعي محبة القرآن والسنة والاعتصام بهما وينكر بشدة على من يشككه في مصداقية هذه المحبة وقوة التعلق بهما، لكن يخالف مَنْ هذه حالُه قولُه فعلَه، وظاهرُه باطنَه، لا يُرى عليه أثر القرآن في دين ولا خلق، ولا سلوك ولا تعامل، إنما هي دعاوى وأمنيات لا تغني عن أصحابها شيئاً، أين مَنْ هذه حاله من منهج سلفنا الصالح فيما يرويه عنهم أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي رحمه الله بقوله «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمانُ بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرُهما ﷺ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعاً»(١).

المبحث الرابع : الإيمان باليوم الآخر

إن عقيدة الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه من البعث والجزاءِ والحساب وعرصات يوم القيامة وأهوالِها وشدائدها ثم المصيرِ إلى الجنة أو النار من الأمور المهمة والقضايا الأساس التي تركز الحديثُ عنها في آي القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة، بل إن القرآن الكريم كله من فاتحته إلى خاتمته فيه ذكر أحوالِ اليومِ الآخر وتفاصيلِ ما فيه.

بدءاً من وجوب الإيمان به والتصديقِ التام بكل ما أخبر الله عنه في كتابه أو صح عن رسوله ﷺ المبلغِ عن ربه عز وجل، يقول الحافظ ابن قدامة رحمه الله تعالى في لمعة الاعتقاد «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقلُ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣١.

عنه فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه... إلى قوله: ومن ذلك أشراطُ الساعة مثلُ خروجِ الدجال ونزولِ عيسى بن مريم فيقتلَه، وخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ وخروجِ الدابةِ وطلوعِ الشمس من مغربها، وأشباهِ ذلك مما صح به النقل، وعذابُ القبر ونعيمه حق، وقد استعاذ النبي ﷺ منه، وأمر به في كلِ صلاة، وفتنةُ القبر حق، وسؤالُ منكر ونكير حق، والبعثُ بعد الموت حق، وذلك حين ينفُخُ إسرافيلُ عليه السلام في الصور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

ويُحشر الناسُ يوم القيامة غرلاً بهماً، فيقفون في موقفِ القيامة حتى يشفعَ فيهم نبينا محمد ﷺ ويحاسبُهم الله تبارك وتعالى، وتنصبُ الموازين، وتنشر الدواوين، وتتطايرُ صحائفُ الأعمال إلى الأيمان والشمائل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧ – ١٢].

والميزان له كفتان ولسان، توزن به الأعمال ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠٢ – ١٠٣]، ولنبينا محمد ﷺ حوض في القيامة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأباريقه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، والصراط حق، يجوزه الأبرار ويزل عنه الفجار، ويشفع نبيُنا ﷺ فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر؛ فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحماً وحُمَماً - أي سوداً - فيدخلون الجنة بشفاعته،

ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات، قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين، والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان، فالجنة مأوى أوليائه، والنارُ عقابٌ لأعدائه، وأهل الجنة مخلدون ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥]. ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبحُ بين الجنة والنار، ثم يقال «يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت»[١].

وقد جاء في القرآن الكريم بيانُ أوصافِ عباد الله المفلحين في الدنيا والآخرة، بياناً شاملاً دقيقاً، مع ذكر ثوابِهم ونعيمِهم وجزائِهم عند ربهم، ومن ذلك إيمانهم باليوم الآخر، إيماناً صادقاً لا يخالجه شك ولا يخالطه ريب، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥]. واليقين أدق دلالة وأعمق معنى، إذ معناه في اللغة التحققُ من الشيء كسكونه ووضوحه، وقال الجوهري: اليقينُ العلمُ وزوالُ الشك[٢]، وذكر الراغب الأصفهاني أن اليقين فوق المعرفة والدراية، وهو سكونُ الفهم مع ثبات الحكم[٣].

ولعظمِ أمرِ الإيمان باليوم الآخر وأهميتِه فقد جاء تقريره والحديث عنه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبأساليب متنوعة وبعرضٍ مختلف،

---

(١) لمعة الاعتقاد ٢٩-٣١.

(٢) الصحاح ٦/ ٢٢١٩.

(٣) المفردات ٥٥٢.

ولاغرو فهو أحد أركان الإيمان الستة، كما في حديث جبريل عليه السلام ومنه «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَةِ وَكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» [رواه البخاري ومسلم]. وقد أمر الله الإنسان بالنظر في حاله وأصل خلقته، فالذي أوجده من العدم قادر على إعادته بعد موته، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩] ومن الأدلة أيضاً الاستدلال بالدورة النباتية على قدرة الله عز وجل على البعث وإحياءِ الخلق، ولهذا يذكر الله سبحانه إحياءَ الموتى بعد ذكر إحيائه الأرض بالمطر فتصبح مخضرةً بعد موتها، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقد أبان تبارك وتعالى قرب هذا اليومِ وسرعةَ وقوعِهِ مع غفلةِ الناس عنه وعدمِ استعدادِهم له، يقول تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وروى البخاري ومسلم عنه ﷺ قال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**».

إن قيامةَ العبدِ الصغرى تبدأ من حينِ موته ومفارقتِه الدنيا وانتقالِه إلى ربه، ما معه إلا عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وما ربك بظلام للعبيد،

والموت له سكرة شديدة وحالة عصيبة ومصيبة كبرى، يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، ويقول جل وعلا: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «يا كعب الأحبار حدثنا عن الموت، فقال: إن الموت كغصنٍ كثير الشوك أدخل في جوف أحدكم، ثم أتى رجلٌ شديد الجذب شديدُ النزع فجذبه جذبة قوية، فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى».

ولقد عانى رسول الله ﷺ وهو أفضلُ البشر من سكرات الموت وشدتِه ما عانى ليُضاعفَ له الأجر وتُرفعَ له الدرجة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدةَ الموت لأحدٍ أبداً بعد رسولِ الله ﷺ» وروى عنها أيضاً أنها قالت: «وبين يديه عليه الصلاة والسلام رَكْوة أو علبة فيها ماء، يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: **لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ** ، ثم نصبَ يدَه فجعل يقول: **فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**، حتى قُبض ومالت يده».

وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: «لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جعَلَ يَتَغَشَّاهُ - أي الموت - فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: **لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ التُّرَابَ».

إن موت النبي ﷺ أعظم مُصيبة نزلت على الأمة، ولكن هو قول الحق

تبارك وتعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والواجب على العبد الذي يريد فلاحه ونجاحه أن يكثر من ذكر الموت وأن يستحضر نزوله به في أي لحظة، تذكراً يدفعه إلى العمل الصالح والقيام بفرائض الله وأداءِ حقوقه والبعدِ عما يغضبه ويسخطه، روى النسائي وابن ماجه والترمذي عنه ﷺ قال: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ المَوْتَ**».

وهذا كان سلفنا الصالح من أكثر الناس ذكراً للموت واستعداداً له، روى القرطبي عن الدقاق قال: «من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيلُ التوبة وقناعة القلب ونشاطُ العبادة، ومن نسي الموت عوجل بثلاثة: تسويفُ التوبة وتركُ الرضا بالكفاف والتكاسل في العبادة»[١].

وقال بعض أهل العلم: «تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي، ويُذهب الفرحَ بالدنيا ويهون المصائب فيها»[٢].

وروي عن الحسن البصري قوله: «لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب بها فرحاً، وما ألزم عبدٌ قلبَه ذكرَ الموتِ إلا صغرت الدنيا عليه وهان عليه جميع ما فيها»[٣].

وكان عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله تعالى إذا ذُكر الموت انتفض انتفاضَ

---

(١) التذكرة للقرطبي ٨.

(٢) التذكرة للقرطبي ٩.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٥١، لطائف المعارف ١٠٨.

الطير، وكان يجمع كلَ ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامةَ ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة[١].

وكان يعقب بكاءهم هذا عملٌ صالحٌ ومسابقةٌ إلى الخيرات وخوفٌ حقيقي من الله ورجاءٌ صادق فيما عنده، يقول حامد القيصري: «كلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلُنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تفرحون؟ وما عَسيتم تنتظرون؟ الموتُ فهو أولُ واردٍ عليكم من أمر الله بخير أو شر»[٢].

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر القبرُ بما فيه من وحشة وظلمة، إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، وفيه فتنة عظيمة، حيث السؤالُ مَنْ ربك وما دينك وما هذا الرجل الذي بُعث فيكم، حين يودعُ العبدُ في قبره فريداً وحيداً، ما معه إلا عمله، لذا أمر النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من فتنةِ عذابِ القبر دبرَ كل صلاة بعد التشهد الأخير وقبل السلامِ.

وقد حث النبي ﷺ على زيارة القبور الزيارة الشرعية للرجال، أما النساء فلا يجوز لهن زيارة القبور، قال عليه الصلاة والسلام: «**كُنتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، أَلا فَزُورُوهَا فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَةَ**» [رواه مسلم]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَعَنَ الله زَائِرَاتِ القُبُورِ وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**» [رواه أهل السنن]. وكان عليه الصلاة والسلام يزور مع أصحابه

---

(١) التذكرة ٨.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٣١.

المقبرة، يعظهم ويذكرهم، روي هذا في غير ما حديث، من ذلك حديث البراء بن عازب ﷺ المشهور، ومن ذلك أنه وقف مرة مع بعض أصحابه على قبر ولما يلحد فرفع رأسه إليهم وقال: «اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، قَالَهَا ثَلَاثًا، فقالوا نعوذ بالله من عذاب القبر، ثم قال: **لَوْ تَعْلَمُون مَا أَعْلَمُ** - أي مما في هذه القبور - **لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصعُدَاتِ تجْأَرُونَ إِلَى الله بالدعاء**»، قال الراوي: فغطى الصحابة وجوههم ولهم خنين من البكاء ﷺ وأرضاهم [رواه الترمذي وابن ماجه].

وجاء في السنة بيان حال الجنازة إذا احتملها الرجال فيما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام قال: «**إِذَا وُضِعَتْ الجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ لأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصَعِقَ**»، ولذلك جاء في ترجمة عثمان بن عفان ذي النورين ﷺأنه زار المقبرة مرة مع بعض أصحابه فبكى وأبكى مَنْ حوله حتى أغمي عليه من كثرة البكاء، فلما حمل إلى بيته وقيل له في ذلك قال: «إن القبر لأول منزلة ينزلها العبد من منازل الآخرة فإما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار» [رواه أحمد في كتاب الزهد].

يقول بلال بن سعد رحمه الله تعالى: «أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما خلقتم للبقاء، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب

إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الجنة أو النار»[1].

إن يوم القيامة يومٌ عظيمُ الأحوال شديدُ الأهوال، ولذلك جاءت أسماؤه في القرآن الكريم، يومُ الدين، الطامة، الحاقة، القارعة، الصاخة وغيرُ ذلك، مع بيان ما يكون فيه من انفطار السماء وتناثر الكواكب وتفجير البحار وتكوير الشمس وتسييرِ الجبال وغير ذلك، ولا أعظم من وصف الله له، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ – ٢]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ – ٣٧].

فبعد النفخة الثانية يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، يحشرون إلى ربهم حفاة عراة غرلاً – غير مختونين –، لا يلتفت بعضهم إلى بعض من هول الموقف وشدته، تقول عائشة رضي الله عنها: «يا رسول الله الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض، فقال عليه الصلاة والسلام: **الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ**» [رواه البخاري ومسلم]، وعند الطبراني في الأوسط قالت أم سلمة رضي الله عنها: «يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضُنا إلى بعض، قال: **شُغِلَ**

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢١٧.

النَّاسُ، قلت: ما شَغَلَهم؟ قال: نَشْرُ الصَحَائِفِ، فِيهَا مَثَاقِيلُ الذَّرِ وَمَثَاقِيلُ الخَرْدَلِ».

واليوم الآخر مما يؤمن به المؤمن، ويصدق بما جاء في وصفه وما يكون فيه من الكتاب والسنة، ومن ذلك أن الشمس تدنو من الخلائق فيعرَق الناسُ ويشتد عليهم الكرب، ويتمنون الخلاص مما هم فيه، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ» [متفق عليه].

وعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»، قال سليم بن عامر: فَوَالله مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمْ المِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ، قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلجَامًا، وَأَشَارَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ» [رواه مسلم].

وفي هذا الوقت الذي يكون فيه عامة الناس في الحر والعرق والكرب فإن بعضَ الناس في الظل مستريحين لا ينالهم شيء من ذلك، وهؤلاء هم الذين أخبر عنهم النبي ﷺ بقوله: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا

تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» [رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ].

وروى مسلم عن أبي اليسر كعب بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّه**»، وعن يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» قَالَ يَزِيدُ وَكَانَ أَبُو الخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعْكَةٍ أَوْ بَصَلَةٍ أَوْ كَذَا»** [رواه الإمام أحمد].

ولعظم الكرب الذي يعيشه الناس في المحشر فإنهم يبحثون عمن يشفع لهم إلى ربهم حتى يقضى بينهم، فيذهبون إلى آدم أبي البشر فيحيلهم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى ثم إلى نبينا محمد ﷺ فيقولون: «**يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الجنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»** [رواه البخاري ومسلم].

ومما يزيد في كرب يوم القيامة وهوله أنه يوم طويل، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وفيه يحاسب العبد ويجازى ولذا سمي بيوم الدين، ففي الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وفي الحديث المتفق عليه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادِي بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». ومما يكون في ذلك اليوم العظيم تطاير الصحف فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله ومن وراء ظهره، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ١٩ – ٣٢].

ومما يكون في يوم القيامة حوض نبينا ﷺ ترده أمته في ظمأ شديد وحاجة إلى الماء فيذاد عنه ولا يمكن منه من لم يلزم طريقه وانحرف عن شرعه، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا**». وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**تَرِدُ أُمَّتِي عَلَى الحَوْضِ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُونَ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» [رواه مسلم].

ومن عرصات يوم القيامة وأهوالها الشديدة الصراط المنصوب على متن جهنم، أدق من الشعر وأحد من السيف، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم، فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوسٌ في نار جهنم، عليه كلاليب وخطاطيف تأخذ من أمرت بأخذه، حتى يمر آخرهم يزحف زحفاً، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

ثم المستقر بعد ذلك في جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أعظم نعيمها النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، قال

تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥]، نسأل الله الكريم من فضله. أو في نار تلظى، طعام أهلها الزقوم وشرابهم القيح والصديد، عياذاً بالله تعالى من النار.

المبحث الخامس: الولاء والبراء

من أصول العقيدة الإسلامية أن يوالي المؤمن أهلها ويتبرأ من مخالفيها، فيحبُ أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويبغضُ أعداء الدين ولا يواليهم، وتلك ملة إبراهيم عليهم السلام الذي أُمرنا بالاقتداء به، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

والولاء والبراء أصل من أصول الدين، وركنٌ أساس في حياة المسلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى في تحريم موالاة الكفار عموماً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١].

بل قد حرم الله تعالى على المؤمن موالاة الكفار ولو كانوا من أقرب الناس إليه نسباً، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وكما حرم الله عز وجل موالاة الكفار أعداء الملة والدين فقد

أوجب سبحانه موالاة المؤمنين ومحبتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ المائدة: ٥٥ – ٥٦، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، وإن تباعدت أنسابُهم وتناءت أوطانُهم وتفرقت أزمنتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي موضع آخر بيّن جل وعلا أن المؤمنين متى حققوا هذا الأصل العظيم الولاءَ والبَراءَ وتمسكوا به والتزموه في حياتهم الخاصة والعامةِ كان لهم الفلاحُ والفوز في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة: ٢٢.

قال الإمام السعدي في تفسير الآية: «أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقةً إلا إذا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازِمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاتِه، وبغضِ من لم يقم به ومعاداتِهِ ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وُجدت ثمرتهُ

والمقصودُ منه، وأهلُ هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبَّته وغرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله بروحٍ منه، أي بوحيه ومعرفتِهِ ومددِهِ الإلهي من إحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جناتُ النعيم في دار القرار، التي فيها كلُ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يُحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المثوبات وجزيلِ الهبات ورفيعِ الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غايةً ولا وراءه نهاية»[1].

جاء في سبب نزول هذه الآية عدة روايات، منها ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: «نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر – وكان كافراً» وفي رواية عند الطبراني والحاكم: «جعل والدُ أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قَصَدَه أبو عبيدة فقتله»، وقيل نزلت في عمر حين قتل خاله العاص ابن هشام يوم بدر، وفي علي وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبةَ ابني ربيعة والوليدَ ابن عتبة يوم بدر.

فقد دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة الكفار ولو كانوا أقاربَ للمسلم، وليس المرادُ من ذُكروا في الآية على وجه الخصوص وإنما المراد الأقاربُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧٨٦-٧٨٧.

فضلاً عن غيرهم من الناس، قال الألوسي: «وقدم الآباء لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتُهم في الدنيا بالمعروف، وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم، وثلَّث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم، وختم بالعشيرة لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالباً»(١).

ويدخل في النهي عن موالاة أعداء الدين موالاةُ أهل البدع والضلالات فيجب الحذرُ منهم ومن مجالسِهم والقراءةِ في كتبهم والنظر في معتقداتهم وأفكارهم والإصغاء إلى حديثهم ومناقشاتهم، قال سهل: «من صحَّح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع ولا يجالسُه ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبُه، ويُظهر له من نفسه العداوة والبغضاء، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله تعالى حلاوة السنن، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أو عرضاً منها أذله الله تعالى بذلك العز وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه»(٢).

وقد ذكر الله تعالى في جزاء من حقق هذا الأصلَ العظيمَ الولاءَ والبراء أموراً عظيمة ومنحاً كريمة، الأولى: قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي جعل في قلوبهم الإيمان وثبته فيها، الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: نصرهم وقواهم وأيدهم، الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾

(١) روح المعاني ٢٨/ ٣٦.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٣٥.

[المجادلة: ٢٢]، فهم من أهل الجنة دارِ أوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الرابعة: قوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال الحافظ ابن كثير: «في هذا سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوزِ العظيم والفضل العميم»، الخامسة: قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: هم أولياء الله وأهلُ كرامته، المخصوصون بكل فلاح ونجاح، وسعادة وهناءة في الدنيا والآخرة.

قال الإمام الشوكاني: «قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: جنده الذي يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريفٌ لهم عظيم وتكريم فخيم، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح، الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاحُ غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح»[١].

وقد جاءت النصوص من السنة وأقوال السلف رحمهم الله تعالى مؤكدة هذا الأصل العظيم من أصول العقيدة، فقد أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحبُ في الله والبغض في الله**»، وروى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، وعادى في الله، ووالى في الله فإنما تنال ولايةُ الله بذلك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ

---

(١) ينظر لما سبق: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢٩، فتح القدير ٥/ ١٩٣.

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية».

إن لموالاة الكفار ومحبتهم مظاهرَ متنوعة، منها: التشبه بهم في الملبس والكلام وغير ذلك، بل إن بعض الناس لجهله ورقةِ دينه يرى في ذلك التقدمَ والرفعة، روى ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» [رواه أبو داود]، فيحرم التشبه بالكفار فيما هو من خصائصهم وعاداتهم وعباداتهم وسمتهم.

ومن المظاهر الإقامةُ في بلادهم والرغبةُ في ذلك بلا حاجة ولا ضرورة، ومن الضرورة العملُ عندهم فيما لابد منه أو السفر لعلاج مرض أو دعوة إلى الله عز وجل أو بقصدِ التعلم مما لا يكون في بلاد الإسلام، ويشترط أيضاً لجواز هذا السفر أن يكون مظهراً لدينه متمسكاً بشريعته، مبتعداً عن مواطن الشرِ والريب، يحذر دسائسهم ومكائدهم، ومن مظاهر محبتهم وموالاتهم تقريبُهم وتقديمُهم على إخوانه المسلمين، والله تعالى قد أبان لنا مدى كراهيتهم لنا وحقدهم علينا وإن أظهروا الرضى والتقرب والمحبة، يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

ومن مظاهر موالاة الكفار مشاركتهم في أعيادهم وتهنئتهم بها وحضور إقامتها، وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يحضرون أعياد الكفار، ومن المظاهر مدحُهم وإطراؤهم والثناء عليهم دون النظر إلى عقائدهم الباطلة وأخلاقِهم الفاسدة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، وهذا لا يعني عدم الاستفادة مما عندهم من العلوم الحديثة والصناعات الجديدة والأخذ بأسباب القوة ونحو ذلك، بل هذا مطلوب من المسلم عموماً في كل زمان ومكان ولو أن يستفيده ويتعلمه من الآخرين.

لقد أبان الله عز وجل ورسولُه عليه الصلاة والسلام مظاهر موالاةِ المؤمنين وأدلةَ محبتهم ومودتهم، وهي كثيرة منها: مناصرتهُم ومعاونتُهم بالنفس والمال واللسان وبذلُ كل ما يحتاجون إليه، مؤثراً ذلك على نفسه وأهله، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر: ٩]، ومن ذلك التألُم لألمهم والسرورُ بسرورهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**» [رواه البخاري ومسلم].

ومن آثار ذلك تهنئتهم بما فرحوا من أجله ومشاركتهم مسراتهم، وفي

المقابل المسارعة في إعانتهم ومحاولة تفريج همومهم وتنفيس كرباتهم، «**واللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**» [رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ].

ومن مظاهر موالاة المؤمنين النصحُ لهم ومحبةُ الخير لهم وعدمُ غشهم وخديعتهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا لِمَنْ يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» [رواه مسلم]، وقال أيضاً: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يحقره ولا يخذله وَلَا يُسْلِمُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**» [رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ].

ومن مظاهر موالاة المؤمنين احترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعيبهم والاستهزاء بهم، ومنها أن يكون مع إخوانه المؤمنين في حال العسر واليسر والشدة والرخاء، يفرح لفرحهم ويأسى ويحزن لحزنهم، يتواطأ على ذلك قلبه ولسانه وعمله، ومنها زيارتهم ومحبة اللقاء بهم والاجتماع معهم وصفاء قلبه لهم فلا حقد ولا حسد، مؤدياً حقوق المسلم على أخيه المسلم، وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي للمُتَحَابِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ**» الحديث رواه أحمد عن معاذ ﷺ، يحترم كبيرهم ويعطف على صغيرهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا**» [رواه أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» [رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص ﷺ].

ومن مظاهر موالاة المؤمنين الدعاء والاستغفار لهم على وجه العموم،

ويخصهم بدعائه متى دعت الحاجة لرفع بلاء عنهم أو دفع ضر نزل بهم أو كف عدوان معتدٍ عليهم، والله تعالى يقول: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].



الفصل الثاني
الإسلام وأركانه

المبحث الأول: إقام الصلاة والمحافظة عليها والخشوع فيها

إن من أسس الفلاح وقواعده التي يقوم عليها حتى يؤتي ثماره في الدنيا والآخرة إقام الصلاة والمحافظة عليها، والخشوع فيها، جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣-٥] وقوله سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]، كما جاءت الآيات الكثيرة آمرة بإقامة الصلاة في أوقاتها، مبينة ثواب القائمين بها المحافظين عليها، ومبينة عقاب المتهاونين فيها المتكاسلين في أدائها، المضيعين لها.

ولا غرو أن يكون الحديث عنها في الكتاب والسنة بهذه المثابة وبهذه الأهمية، فهي عمود الإسلام وأهمُ أركانه بعد الشهادتين، وأولُ فروضه وآخرُ ما يبقى منه، لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، شرعها الله تعالى تعظيماً لشأنه ورفعة لذكره، وأداء لطاعته وتحقيقاً لعبوديته، وتذكيراً بجلاله وطهرة لعباده، وأسراراً أخرى لا يعلمها إلا الله عز وجل، من حفظها وحافظ عيها سعد في دنياه، ففي الدنيا ينشرحُ صدره لعبادة خالقه، ويستنيرُ قلبه لمصالحه، ويطمئنُ فؤاده لما يستقبله، ويجدُ لذةً في حاله وعلمه وعمله، وفي

الآخرة كفى بالقرآن معبراً عن جزائه وحقه، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤ - ٣٥].

ومن أضاعها شقي في دنياهُ وآخرتِه، ففي الدنيا تظلم حياتُه ويضيق صدره ويستوحشُ قلبه، ويزداد همه وغمه، بشكل تعجز العبارة عن وصفه، لا سبيل إلى حله وعلاجه إلا بالتوبة النصوح والإيمان الصادق والعمل الصالح، وأعظمه وأفضله بعد الشهادتين أداءُ الصلوات الخمس جماعة في بيوت الله عز وجل، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول لبلال ﷺ: «**يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**» [رواه أحمد عن رجل من أسلم].

أما في الآخرة فلا تسأل عن كل ما ينتظر المفرط في أداء الصلوات المتهاون بأدائها من العذاب والخزي والندامة، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٥] أي غافلون عابثون لاهون، وقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، والغي كما قيل: وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من حره، فكيف الحال ببعض الشباب بل وكبار السن ممن أنعم الله عليهم بالصحة والعافية وسعة الخيرات والأرزاق، والنعم الكثيرة التي يرفلون فيها ويتقلبون في سرورها، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، رضوا على أنفسهم بالخسارة والندامة، في الدنيا والآخرة، لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، وجملة كثيرة منهم لا يشهدون صلاتي الفجر والعصر جماعة في بيوت الله، اللتين أخبر عنهما عليه الصلاة

والسلام بقوله: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ -أي العصر والفجر- دَخَلَ الْجَنَّةَ» [رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ]، وقد دلَّ مفهوم الحديث أن من لم يصلهما دخل النار، رضي أحدهم على نفسه بالنفاق الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ» [رواه مسلم عن ابن مسعود ﷺ].

إن بعض البيوت لا يعرف أهلها من الرجال والشباب والنساء والفتيات صلاة الفجر إلا عند القيام من النوم للعمل أو للدراسة، لا يصلونها إلا بعد خروج وقتها، وقد ألفوا هذا الأمر واستمرؤوه كأنه شربة ماء، لا حياء من الله ولا من خلقه، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن من عقوبة الذنب أن يألف العبد ذلك الذنب ويهون عليه خطره[1]، قال بعض السلف: «إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها»[2]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق»[3].

إن الصلاة محددة بأوقات معينة، لها بداية ونهاية، جاء ذكرها في القرآن الكريم وبيانها بالتفصيل في سنة النبي ﷺ، حتى المجاهد في سبيل الله عز وجل لا يجوز له تأخير الصلاة عن وقتها بل شرعت بالتفصيل والبيان صلاة

---

(١) الداء والدواء ٧٩.

(٢) الداء والدواء ٧٨.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٢٤، روضة المحبين ٤٤١.

الخوف، فكيف بعد هذا كله يرضى العبد الضعيف الفقير إلى ربه عز وجل في كل أحواله أن يصلي الفجر أو غيرها بعد خروج وقتها، مستمراً على هذه الحال السيئة أياماً بل شهوراً وأعواماً، لا يتعدل وضعه ولا تتحسن حاله.

إن الأمر جد خطير، والواجب المناصحة والرعاية من الأبوين ومن أفراد الأسرة والمجتمع جميعاً، كل يتحمل مسؤوليته في القيام بهذا الواجب، أعني: الصلاة جماعة في بيوت الله عز وجل، والنساء يؤدينها في أوقاتها في البيوت بلا تأخير، ومن الواجب أيضاً إظهار عدم الرضا بحال هؤلاء، والغضب لله عز وجل من تضييع أهم الفرائض ألا وهي الصلاة في وقتها، فآخر ما يفقد المرء من دينه الصلاة.

وإذا تأملنا كتاب الله عز وجل وما فيه من الوعد وجدنا أن للمحافظ على الصلاة من الوعد أجزله وأكرمه وأتمه وأعمه للخير، وأن لتارك الصلاة المتهاون بها من الوعيد أشده وأعظمه وأقساه، تارة نجد المحافظين على الصلاة هم الوارثون الذي يرثون الفردوس هم فيها خالدون، وتارة في جنات مكرمون، وتارة أصحاب الجنة هم فيها خالدون، تلك الجنة التي فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي المقابل نجد التاركين للصلاة المتهاونين بها في سقر، وهي النار، عظيم هولها أليم عذابها، حكى الله عن أهل الجنة أنهم يخاطبون أهل النار بقولهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٣]، كما أن لتارك الصلاة المتهاون بها كلّ أنوار الخسار والبوار والهلاك، متوعدون بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:

٥٩]، وغي قيل: إنه وادٍ في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم، ولهم الويل أيضاً.

لقد دلت الآيات والأحاديث على أن التهاون بالصلاة وعدم الاهتمام بها من أفصح الأدلة على ضياع بقية الدين، ومن أكبر أسباب دخول النار، وأن المحافظة عليها والاهتمام بها من أوضح الأدلة على حفظ الدين ومتابعة سنة سيد الأولين والآخرين وإمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، القائل: «**إِنَّ العَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» [رواه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه عن بريدة الأسلمي ﷺ]. والقائل: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**» [رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما].

وكان عمر ﷺ يكتب إلى الأمصار يقول: «إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع» [رواه مالك]. وقد بين رسول الله ﷺ للأمة كيفية المحافظة عليها بقوله وفعله، وأمره ونهيه، حتى عرف عنه عليه الصلاة والسلام كلَّ ما يرتبط بالصلاة، الأوقات والأركان والواجبات والسنن والهيئات. ومن المحافظة عليها أداؤها في أوقاتها المحددة فلا يجوز الصلاة قبل وقتها أو بعد وقتها.

ولنتأمل هذا الوعيد الشديد للمتخلف عن أداء الصلاة جماعة في بيوت الله عز وجل فيما يرويه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْتَطَبُ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ**» [متفق عليه] وفي رواية «**لولا النساء والصبيان**».

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «من سرَّه أن يلقى الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات، حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف» [رواه مسلم]، فما عذر الأصحاء الذين أسبغ الله عليهم لباس العافية يتخلفون عن الصلاة جماعة في بيوت الله عز وجل، وهذا الرجل كما ورد يتكئ على رجلين ويتمايل من شدة الإعياء حتى يحضر صلاة الجماعة.

وفي صورة أخرى لم يعذر النبي ﷺ من سمع الأذان ولم يجب بالصلاة جماعة، فعن أبي هريرة ﷺقال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال له: **هل تسمع النداء بالصلاة؟** قال: نعم، قال: **فأجب**» [رواه مسلم]، وعن عبدالله وقيل عمرو بن قيس المعروف بابن أم مكتوم المؤذن ﷺ أنه قال: يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، فقال رسول الله ﷺ: «**تسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح فحيهلا**» أي تعال [رواه أبو داود بإسناد حسن] فمع كونه أعمى لا يبصر، وليس له قائد يلازمه، والطريق كثير الهوام، مع هذا كله لم يرخص له النبي ﷺ، فأي حيلة وعذر تبقى لهؤلاء الغافلين عن صلاة الفجر وغيرها جماعة في بيوت الله عز وجل.

وفي مقابل هذا جاء الترغيب في أداء الصلاة جماعة في المساجد والحث على ذلك في أحاديث كثيرة، منها ما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تُضعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلْ المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**صَلَاةُ الجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**» [متفق عليه].

وفي فضل التبكير إلى الصلاة وانتظارها في بيوت الله عز وجل روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**».

صلاة الجماعة:

إن الله عز وجل بفضله وإحسانه وجوده وإنعامه شرع لعباده ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الصلاة جماعة في المساجد، فهي واجبة وفضيلة لا يفرط فيها إلا محروم، بها تكفر السيئات وترفع الدرجات وتضاعف الحسنات، بها يعمر المصلي بيوت الله بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن، بها يفد المسلم على الله كل يوم خمس مرات، ومن وفد إلى بيت

من بيوت الله إخلاصاً لله، ومتابعة لرسول الله ﷺ فقد وفد على الله، وحقٌّ لوافد على الله أن يكرم.

روى الطبراني في الكبير بإسنادين أحدهما جيد عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ، فَهُوَ زَائِرٌ لله، وَحَقٌّ عَلَى المزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ**».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ**»، ومن فضل الله وجوده الذي يسبغه الله على من أتى المسجد في ذهابه وإيابه ما رواه الإمام أحمد عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ قال: «**مَنْ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ الجَمَاعَةِ فَخُطْوَةٌ تَمْحُو سَيِّئَةً، وَخُطْوَةٌ تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ ذَاهِبًا وآيبًا**».

إن أداء صلاة الجماعة بجانب كونها طاعة وقربة لله فهي أيضاً عمارة لبيوته التي أمر جل وعلا أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وإقامة وإظهاراً لشعيرة إسلامية عظمى، شعيرة بها يفقد المسلمون المريض فيعودونه، والغائب فيسألون عنه، فيتجدد بصلاتهم في المسجد تعارفهم وولاؤهم، وتقوى محبتهم وألفتهم، بالجماعة يصان المسلم من أن يتردى في مهاوي الضلال أو أن ينساق في طرق الشر، أو أن يستحوذ عليه الشيطان، روى أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا**

بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُم بِالجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَةَ».

ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «اتفق العلماء على أن صلاة الجماعة من أوكد العبادات وأجل الطاعات وأعظم شعائر الإسلام»[1]، والذي ينظر في أحوال بعض الشباب بله الآباء هداهم الله يجدهم قد فرطوا في صلاة الجماعة في بيوت الله عز وجل بالجملة أو في بعض الصلوات كصلاتي الفجر والعصر، حرموا أنفسهم هذه الفضائل ورضوا بالخسران، ولم يحققوا بتكاسلهم هذا مقاصدَ الإسلام العظيمة وحكمه الجليلة في شرعية أداء الصلاة جماعة في بيوت الله عز وجل.

ومما يرتبط بصلاة الجماعة التبكير في الحضور إليها، اغتناماً للأجور العظيمة المذكورة في الأحاديث السابقة، فالملائكة تصلي على العبد وتسأل الله له المغفرة والرحمة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة، وهو على خير إن سبح أو ذكر الله أو تنفل بصلاة أو تلى من القرآن ما تيسّر له، وإن من ظواهر التقصير في هذا الجانب تأخر كثير من المصلين في الحضور إلى الصلاة إلى حين سماعهم الإقامة، تقام الصلاة وليس في المسجد إلا قليل، ثم تنتهي وما أكثر من تخلف يقضي صلاته بسبب تأخره، وما هي إلا دقائق معدودة كلها أجر وغنيمة ثم تقام الصلاة، وأحدنا تضيع عليه الساعات في أمور مباحة أو فيما يعود عليه بالضرر في الدنيا والآخرة، مع ما يكون في الإتيان إليها من هؤلاء المتأخرين

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٢٢٢.

من سرعة في المشي وعدم خشوع وحضور ذهن.

لقد جاءت الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم رحم الله الجميع آمرة بصلاة الجماعة حاثة عليها مرغبة فيها، محذرة من التهاون بها أو التكاسل في أدائها، عن ابن عباس رضي الله عنهما عنه ﷺ : «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ**» [رواه ابن ماجه]، وروي نحوه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقال علي رضي الله عنه: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، قيل: ومن جار المسجد؟ قال: من سمع النداء» [رواه عبدالرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لأن تمتلئ أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيبه» [رواه ابن أبي شيبة]، أي بالحضور للصلاة في المسجد، وقالت عائشة رضي الله عنها: «من سمع المنادي فلم يجب من غير عذر لم يجد خيراً ولم يُرد به» [رواه ابن أبي شيبة].

فهذه نصوص الصحابة رضي الله عنهم صحيحة مشهورة عنهم ولم يأت عن صحابي خلاف ذلك، وكلها دالة على وجوب الصلاة جماعة في المسجد، ولا عذر لمتهاون، أو نائم، أو كسلان، يقول عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الصَّلَاةُ**» [رواه النسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه]، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صلاة المنافق بقوله: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**» [رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه].

وقد روى ابن خزيمة في صحيحه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال:

«كنا إذا فقدنا الرجل في العشاء والفجر أسأنا به الظن»، كان الصحابة رضي الله عنهم يجعلون حضور صلاة الفجر جماعة في المسجد الميزان الذي توزن به الرجال، فمن حضرها وثّقوه وأثنوا عليه، ومن غاب عنها أساؤوا به الظن.

تلك الصلاة العظيمة التي يقول عنها النبي ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**» [رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه].

فما أسعد هؤلاء الرجال الذي جاهدوا أنفسهم وزهدوا عن الفراش ودفئه، قاموا طلباً لرضا الله عز وجل وأداء لحقه عليهم وهو الغني عنهم.

الخشوع في الصلاة:

إن لب الصلاة وروحَها الطمأنينةُ والخشوعُ فيها، فهو أحدُ صفات عباد الله المفلحين، بل هي المقدمة على غيرها في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، والخشوع كما قال بعض المفسرين من أعمال القلوب وأعمالِ الجوارح، فالخاشع في صلاته لابد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود سبحانه، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى تعظيم الله تعالى، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده، ومن التروك أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، لكن الخشوع الذي يُرى على الإنسان ليس إلا ما

يتعلق بالجوارح، فإن ما يتعلق بالقلب لا يُرى، قال الحسن وابن سيرين: «كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فلما نزلت هذه الآية طأطأ، وكان لا يجاوز بصرُه مصلاه»[1].

قال الغزالي: «المصلي يناجي ربه كما ورد به الخبر، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة، وبيانه: أن الإنسان إذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصودُ منها على بعض الوجوه، وهو كسرُ الحرص وإغناء الفقير، وكذا الصوم قاهرٌ للقوى كاسر لسطوة الهوى.. فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة.

أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوعٌ وسجود وقيام وقعود، أما الذكر فإنه مناجاة مع الله تعالى، فإما أن يكون المقصودُ منه كونه مناجاة أو المقصودُ مجردَ الحروف والأصوات، ولا شك في فساد هذا القسم، فإن تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح، فثبت أن المقصود منه المناجاة، وذلك لا يتحقق إلا إذا كان اللسان معبراً عما في القلب من التضرعات، فأي سؤال في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وكان القلب غافلاً عنه؟ ولا شك أن المقصود من القراءة، الأذكارِ والحمدِ والثناء والتضرع والدعاء المخاطبُ هو الله تعالى، فإذا كان القلب محجوباً بحجاب الغفلة، وكان غافلاً عن جلال الله وكبريائه، ثم إن لسانَه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول، وأما الركوعُ والسجود فالمقصود منهما التعظيم.. ولأنه إذا لم يحصل التعظيم لم يبق إلا مجرد حركةِ الظهر والرأس، وليس فيها

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٧٨.

من المشقة ما يصير لأجله عماداً للدين وفاصلاً بين الكفر والإيمان»[1].

إن الصلاة الكاملة المقبولة بإذن الله عز وجل هي المبنية على الخشوع والخضوع وحضورِ القلب، التي استن فيها صاحبها بصلاة النبي ﷺ القائل: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» [رواه البخاري]، وصلاةٌ بلا خشوع ولا حضورِ قلبٍ كبدن ميت لا روح فيه، وقد حكم جل وعلا حُكماً محققاً لا ريب فيه بالفلاح للمؤمنين الخاشعين في صلاتهم، الفلاحُ الذي يشملُ كل ما يعرفه الناس من معاني الخير، وما لا يعرفونه مما يدخره الله تعالى لعباده المؤمنين من النصر والعز والسعادة والتوفيق والثواب، في الصحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**».

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبَه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة بدنه وغذاء لروحه، ومغفرةً لذنوبه وقرة عين له، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، وذم الله قسوة القلبِ المنافية للخشوع والخضوع في مواضع كثيرة من القرآن، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ البقرة: ٧٤ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٧٨-٨١.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من قلب لا يخشع كما ثبت عنه ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ**» وفي رواية: «**وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**» [رواه مسلم].

وقد يظن البعض أن حضورَ القلب في الصلاة من أشد الصعوبات وأبعد المستحيلات، وهذا خطأ واضح، إذ لو أخذ المصلي على نفسه أن يخشع في صلاته ويستحضرَها بقلبه وقالبه لوجد ذلك، يتدبر ما يقرأ إمامه وما يقرؤه هو في صلاته، يتفكر في كلماتِ الذكر العظيمة، الله أكبر، سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى وغير ذلك، يقبل على ربه عز وجل بقلب مملوء بالحب والتعظيم والإجلال له سبحانه، يستحضر أنه واقف أمام ربه الذي لا معبود بحق إلا هو، بقلب منكسر ذليلٍ مفتقرٍ إلى ربه، يحدوه الأمل ويعظم رجاؤه فيه ويحسن الظن به، يخافه جل وعلا ويخشاه.

ومن الأسباب أيضاً أن يتهيأ المصلي لصلاته قبل الدخول فيها من حيث إحسان الوضوء وتذكر عظمة من سيقف بين يديه، والتبكيرُ إليها، كان علي ابن الحسين زين العابدين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر وجهه وانتقع لونه، فإذا قيل له في ذلك، قال: أتدرون من سأقف بين يديه بعد قليل.

إن الإنسان ضعيف الخلقة، دائم الحيرة، كثير الهلع والجزع، متقلب الأحوال والأطوار، ليس له غنى عن ربه طرفة عين، والصلاة فرصة عظيمة له حين يقف بين يدي ربه يناجيه ويدعوه، يسأله ويرجوه، يجاهد نفسه على

استحضار عظمة الله وخشيته، ومراقبته وحضور قلبه في صلاته، والإنسان في هذه الحياة محفوف بالآلام والمكاره، والأفراح والأتراح، فمن لم يؤمن بالله سبحانه ويرض بقضائه وقدره ويؤد فرائضه على أكمل وجه كان أشقى الناس في حياته، بخلاف المؤمن الذي يحيا بهذا الإيمان حياة طيبة عمودها الصلاة بخشوعٍ وحضور قلب.

لأن الصلاة مع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود منها، من الصلة والمناجاة، والراحة والطمأنينة، والسعادة والأنس بالله، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقوم الليل بالصلاة ويطيل القيام حتى تتفطر قدماه، فإذا قيل له في ذلك قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» [رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها]، وكان يقول: «**يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**» [رواه أحمد عن رجل من أسلم].

إن الخشوع حالة في القلب تنبع من أعماقه، مهابةً لله وتوقيراً، تعظيماً له جل وعلا وإجلالاً، تواضعاً في النفس وتذللاً، ليناً في القلب وسكوناً في الجوارح، ورقة تورث انكساراً وحرقة، وإذا خشع القلب خشع السمع والبصر، والوجه والجبين، وسائر الأعضاء والحواس، وقد كان من ذكر النبي ﷺ: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»، وفي رواية لأحمد: «**وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لله رَبِّ العَالَمِينَ**».

وقد أبان السلف الصالح رحمهم الله تعالى الخشوع في الصلاة ومعناه وأهميته، فعن علي رضي الله عنه قال: «هو خشوع القلب، وتلين كنفك للمرء المسلم» [رواه ابن جرير والحاكم]، ويصف الحسن البصري رحمه الله تعالى حال السلف

بقوله: «كان الخشوع في قلوبهم، فغضوا له البصر في الصلاة» [رواه ابن جرير وابن أبي حاتم]، وعن مجاهد رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] قال: «القنوت: الركود والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح، قال: وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة هاب الرحمن عز وجل عن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا ما دام في الصلاة» [رواه ابن جرير].

كما حذروا من خشوع النفاق وأبانوا أن أول ما يفقد الخشوع الحقيقي، عن أبي الدرداء ﷺ قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» [رواه أحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان]، وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة» [رواه ابن أبي شيبة والحاكم].

بالخشوع الحق يكون المصلي مخبتاً لربه، منكسراً لعظمته، خاضعاً لكبريائه، خاشعاً لجلاله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أين من هذه حالهم في الخشوع والخضوع لله سبحانه من قوم لا ترى في صلاتهم إلا أجساداً تهوي إلى الأرض خفضاً ورفعاً، أما قلوبهم فخاوية وأرواحهم بالدنيا متعلقة ونفوسهم بالأموال والأهلين مشغولة، لما سمع بعض السلف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، قال: «كم من مصل لم يشرب خمراً، هو في

صلاته لا يعلم ما يقول، قد أسكرته الدنيا بهمومها».

لقد حرموا أنفسهم ما ثبت عنه ﷺ فيما رواه عبدالله الصنابحي رضي الله عنه قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَى، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**» [رواه أحمد وأبو داود واللفظ له]، وأصح منه ما رواه مسلم عنه ﷺ قال: «**مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ تُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»، وما ثبت في الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

إن الخشوع استشعار لعظمة الله وملكوته، حين يقف العبد بين يدي ربه، كما أنه شهود للنعم الكثيرة التي أنعمها الله سبحانه على عبده، والتي لا تحصى لكثرتها، وفي المقابل يتذكر تقصيره أمام هذه النعم مما يورث الحياء والانكسار وبخاصة عندما يتذكر ما اقترفه من المعاصي وما شمله الله به من الرحمة والفضل.

إن الخشوع ليس طأطأة الرأس والتهاوت في المشي وتخفيض الصوت، إنه خشوع القلب والقالب، وسكينة النفس والجوارح، كان عمر رضي الله عنه إذا رأى رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة قال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[1]، ولذلك وصفته عائشة رضي

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٩٦.

الله عنها عندما رأت شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: «كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقاً»[١].

لقد عرف الإمام ابن القيم خشوع الإيمان بأنه «خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهودِ نعم الله وجناياتِه هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح»[٢]، وذكر رحمه الله تعالى أن الناس في الصلاة على مراتب خمسة:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي نقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه بالوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول في مجاهدة عدوه لئلا يسرق من صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبَه مراعاةُ حدودها، لئلا يضيع منها شيء، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي.

---

(١) تلبيس إبليس ٣٥٤.

(٢) الروح ٢٣٢.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضعه بين يدي ربه سبحانه وتعالى.. مراقباً له ممتلئاً من محبته وتعظيمه.. فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضلُ وأعظم مما بين السماء والأرض.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه، لأن له نصيباً مما جُعلت قرةُ عينهِ في الصلاة؛ فاستراح بها، كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**أَرِحْنَا يَا بِلَالُ بِالصَّلَاةِ**» [رواه أبو داود]، ويقول: «**جُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» [رواه الطبراني في الكبير]، ومن قرت عينه بالصلاة قرت عينُه بالله، ومن قرت عينه بالله قرت به كلُ عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بمناجاة ربه إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلبٌ قد قهرته الشهوةُ وأسره الهوى ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه كيف يخلص من الوساوس والأفكار»[1].

وقال بعض العلماء: «يحتاج المصلي إلى أربع خصال حتى ترفع صلاته: حضورُ قلب وشهودُ عقل، وخضوعُ أركان وخشوعُ الجوارح، فمن صلى بلا حضور قلب فهو مصلٍ لاه، ومن صلى بلا شهود عقل فهو مصل ساهٍ، ومن صلى بلا خضوع الأركان فهو مصل جاف، ومن صلى بلا خشوع الجوارح فهو مصل خاطئ، ومن صلى بهذه الأركان فهو مصل وافٍ».

وقد أرشد النبي ﷺ هو الرؤوف الرحيم بأمته ما يطرد به العبد الشيطان

---

(١) الوابل الصيب ٣٨.

ويكافحه به من حين خروجه للصلاة، كيما يحصل له الخشوع في الصلاة واستحضارها وعدم الانشغال عنها بوسوسة الشيطان، فإذا خرج المسلم من بيته إلى المسجد أو غيره قال: «**بِسْمِ الله آمَنْتُ بِالله اعْتَصَمْتُ بالله ، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**» ويزيد إن كان خروجه للمسجد «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نُورًا**»، إذا قال ذلك يقال له: «**هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطانُ**» [رواه أبو داود والنسائي والترمذي].

فإذا دخل المسجد قال: «**أَعُوذُ بِالله العَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وَبِسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إذا قال ذلك قال الشيطان: عُصِمَ مِنِّي سَائِرَ اليَوْمِ**» [حديث حسن، رواه أبو داود].

ثم إذا دخل في صلاته استحضر عظمة ربه ووقوفه بين يديه، ثم يقول بعد دعاء الاستفتاح «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم بعد ذلك يتفكر المصلي فيما يقوله ويفعله ويسمعه من الإمام إذا جهر بالقراءة، فإذا أسر اشتغل المأموم بقراءته، ومن أسباب الخشوع في الصلاة قبض اليد اليمنى على كوع الشمال، والنظرُ إلى موضع سجوده، وعدمُ رفع بصره إلى السماء، وعدمُ الالتفات يميناً وشمالاً، وعدمُ الحركة والعبث، والاشتغالِ بالملابس وغيرها، وعدم فرقعة الأصابع أو تشبيكها، فكل هذا ينافي الخشوع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة

والقلب ساهٍ»[1]، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «الصلاة مكيال فمن وفَّى وُفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين» [رواه عبدالرزاق وابن أبي شيبة].

ومما ثبت عنه ﷺ في النهي عما سبق ما رواه الإمام مالك وأحمد وغيرهما بسند رجاله ثقات قوله: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ؟ قَالَ: لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا وَلَا القِرَاءة فيها**»، وسئل عليه الصلاة والسلام عن الالتفات في الصلاة، فقال: «**هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ**»، وفي رواية: «**إِيَّاكَ وَالِالتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ الِالتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ هَلَكَةٌ فَإِنَّهُ هَلَكَة**» [رواه الترمذي وقال حديث حسن، وأصله مخرج في الصحيحين].

المبحث الثاني: الزكاة والصدقة

إن من ركائز الفلاح وأسسه إيتاء الزكاة وبذلَ الصدقات والإنفاق في وجوه البر والإحسان، جاء ذلك في مواضع من القرآن، بأساليب متنوعة فهو من صفات عباد الله المفلحين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ – ٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ١ – ٤] ، وقال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٥١.

٣٨]، وبين سبحانه أن من أُعين على نفسه بالبذل والجود، والسخاء والعطاء، وعوفي من الشح والبخل فهو المفلح حقاً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

إن أداء الزكاة المفروضة أحد أركان الإسلام العظام، وهي قرينة الصلاة في أكثر آي القرآن الكريم، وقد أجمع المسلمون على فرضيتها إجماعاً قطعياً، فمن أنكر وجوبها مع علمه بها فهو كافر خارج عن الإسلام، ومن بخل بها أو انتقص منها شيئاً فهو من الظالمين المتعرضين للعقوبة والنكال، فقد أنذرهم جل وعلا وخوفهم بما يزجر النفوس المؤمنة ويهز القلوب الوجلة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وقد فسر النبي ﷺ الآية بقوله: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، قِيلَ يَا رَسُولَ الله فَالإِبِلُ؟ قَالَ: وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، قِيلَ

يَا رَسُولَ الله فَالبَقَرُ وَالغَنَمُ؟ قَالَ: وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَم لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ بُطِحَ لَهُ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ].

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا عليه الصلاة والسلام هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»، والشجاع الأقرع: هو الثعبان الذي ذهب شعر رأسه لكثرة سمه وطول عمره، عياذاً بالله من ذلك.

وكما أنذر تبارك وتعالى من ترك الزكاة جحوداً أو تساهلاً فقد رغب في أدائها ووعد أهلها الطهر والنماء والزكاة والمغفرة والفضل العظيم، يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال سبحانه بعد أن أمر بإخراجها: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ووعد جل وعلا الخلف بالبركة والخير قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]،

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ**» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ]، وروى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ فَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**».

بل ما من آية تضمنت صفات المؤمنين الموعودين أسمى الغايات وأرفع الدرجات، إلا وكان الإنفاق ابتغاء وجه الله بما في ذلك الزكاة المفروضة من أبرز صفاتهم وأخص أخلاقهم.

فالمؤمن الصادق هو الذي تطيب نفسه بأداء الزكاة وبذل النفقات، فقد تفضل علينا جل وعلا بالكثير وطلب منا القليل، أعطانا المال عارية منه سبحانه لنا كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

كما ينبغي أيضاً التفقه في أمور الدين وأحكامه ومن ذلك الزكاة، من حيث الأشياء التي تجب فيها وأنصبتها ومقاديرها، وقدر المخرج منها، ثم صرفها لأهلها المستحقين لها، فالزكاة بخاصة لا تقبل حتى توضع في محلها الصحيح، وهي المصارف الشرعية التي حددها الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وعند إخراجها لابد أن تكون النية طيبة خالصة لله سبحانه، لا منة ولا أذى، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [البقرة: ٢٦٤].

إن الصدقة والإنفاق في سبيل الله عز وجل، في وجوه الخير ومجالات البر والإحسان مرغبٌ فيه في كل زمان ومكان، مع تعاهد التذكير بفضله والحث عليه وبخاصة مع توافر الدواعي وظهور الحاجة الماسة إليه، فقد جاءت النصوص من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة آمرة بالإنفاق في سبيل الله مبينة آثار الصدقةِ على صاحبها وعلى المتصدَّق عليه المحتاجِ إليها، بما يدعو النفوس الخيرة والقلوب المؤمنة بوعد الله الصادق إلى البذل والجود والعطاء.

يقول تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقد بين جل وعلا مضاعفة ثواب المتصدق مما لا يعلمه إلا الله سبحانه، قال عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

أما الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على فضل الصدقة المرغبة فيها فكثيرة، منها ما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**» ومعنى لا حسد أي لا غبطة، وروى مسلم عنه ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة بل تزده**»، وروى البخاري ومسلم عنه ﷺ قال: «**ما من**

يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»، وفي الحديث المتفق عليه يقول عليه الصلاة والسلام: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»، وروى البخاري عنه ﷺ قال: «**أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله الجنة**».

كل هذه النصوص وغيرها كثير تحث المؤمن الصادق على النفقة والصدقة في سبيل الله عز وجل، إعانة للمحتاجين وتفريجاً للمكروبين وتوسعة على الفقراء والمساكين ومواساة للأرامل والأيتام، ابتغاء وجه الله عز وجل ومسارعة إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

المال مال الله عز وجل، من فضله وجوده وإحسانه، استودعنا إياه واستخلفنا فيه، وسنزول عنه أو يزول عنا، ابتلاءً وامتحاناً، لذا يقول جل وعلا مذكراً بهذا الأمر منبهاً عليه ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وروى البخاري عنه ﷺ قال: «**أيكم مال وارثه أحبُ إليه من ماله؟** قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا مالُه أحبُ إليه، قال: **فإن ماله ما قدم ومال وارثه**

ما أخر»، وروى مسلم عنه ﷺ قال: «**يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، ما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**».

كما ينبغي التنبيه على أنه كلما اشتدت الحال للصدقة أو عظمت مسألة المتصدق عليه واشتد كربه وضاقت حاله كانت الصدقة أفضل وأعظم أجراً ومضاعفاً عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والأدلة على هذا من السنة كثيرة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأملُ الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان**»، وسُئل رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل؟ فقال «**جهد المقل وابدأ بمن تعول**» رواه أبو داود وابن خزيمة.

كما ينبغي التذكير بأن الصدقة كلما كانت سراً كانت أفضل وأعظم أجراً، ما لم تدع مصلحة إلى إظهارها وإعلانها، كقصد الاقتداء به وحث الناس على الخير، وإلا فصدقة السر أفضل، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي الحديث المتفق عليه يقول عليه الصلاة والسلام: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**».

إن دين الإسلام الذي أكرمنا الله به وهدانا إليه ينهى عن سواقط الأخلاق وما قبح من الخصال، ومن ذلك البخل والشح، بحيث لا ينفق من ماله ولا يؤدي الحق الواجب فيه، وهذه خصلة ذميمة وخلة قبيحة، طهر الله منها أنبياءه ووقى شرها أولياءه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» رواه مسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل**» رواه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد.

إن القدوة في الإنفاق نبينا ﷺ الذي كان أجود الناس، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»، وهو القائل: «**اتقوا النار ولو**

بشق تمرة» رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

إن من توفيق الله لعبده أن يستعمله في طاعته وأن يعينه على عبادته وأن يلهمه شكره وذكره، والبذل والنفقة ابتغاء وجهه سبحانه، فمثلُ هذا كفي الشح والبخل وهم آفتان عظيمتان متى حلتا بالعبد كان من الخاسرين الهالكين، ففي الحديث السابق أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» رواه مسلم، لذا فإن الله تعالى حكم بالفلاح لمن وقي الشح وشره، فقال تعالى مثنياً على الأنصار رضي الله عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال الراغب الأصفهاني: «الشح بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[1].

قال قتادة رحمه الله تعالى في الآية: «هم هذا الحي من الأنصار أسلموا في ديارهم وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين، وأحسن الله عليهم الثناء في ذلك، وهاتان الطائفتان الأولتان من هذه الآية أخذتا بفضلهما ومضيا على مهلهما، وأثبت الله حظهما في هذا الفيء، ثم ذكر الطائفة الثالثة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) المفردات ٢٥٦.

جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] الآية، قال: إنما أُمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ ولم يؤمروا بسبهم» رواه ابن جرير والطبراني، ولذا فقد روى البخاري وابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي ﷺ، أن يقبل من مُحسنهم، ويعفو عن مسيئهم».

وقد روى البخاري ومسلم في سبب نزول الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: **ألا رجل يُضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى،** فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ ، لا تدخري شيئاً، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي، وأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة لضيف رسول الله ﷺ، ففعلت، ثم غدا الضيف على النبي ﷺ فقال: لقد عجب الله من فلان وفلانة، وأنزل الله فيهما ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر: ٩].

فقد دلت هذه الحادثة على ما كانت عليه بيوت النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم من الفاقة والحاجة، والشدة والجهد، إذ أكرمُ بيت على وجه الأرض بيت النبوة لا يوجد فيه ما يُطعم به هذا الرجل، وكان عليه الصلاة والسلام مع

هذا أسعد الناس وأشرحهم صدراً وأنعمهم بالاً، كان لا يرد موجوداً ولا يطلب مفقوداً ، يمضي على بيوته الهلال والهلالان والثلاثة لا يوقد فيها نار، وكذا ما عمله هذا الصحابي الذي آثر هذا الفقير بطعامه وطعام عياله مع حاجتهم إليه ورغبتهم فيه إذ لا يوجد عندهم غيره، وروى الحاكم في المستدرك سبباً آخر في نزول الآية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال (أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال : «**إن أخي فلاناً وعياله أحوجُ إلى هذا منا فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر، حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]»، والخصاصة: الفاقة وشدة الفقر والحاجة.

ومن الأسباب المعينة على البذل والجود، والنفقة والصدقة، دعاء الله عز وجل التوفيق لذلك والإعانة عليه، والاستعاذة به سبحانه من ضد ذلك من الشح والبخل، ولذلك كان من الدعاء المبارك قول نبينا وقدوتنا ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**» رواه مسلم.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه كان يطوف بالبيت يقول «اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك، فقيل له فقال: إذا وُقيت شح نفسي لا أسرق ولا أزني ولم أفعل شيئاً»، وروى عبد بن حميد عن حبيب بن شهاب العنبري أنه سمع أخاه يقول: «لقيت ابن عمر يوم عرفة فأردت أن أقتدي من سيرته، وأستمع من قوله، فسمعته أكثر ما يقول: اللهم

إني أعوذ بك الشح الفاحش، حتى أفاض ثم بات بجمع، فسمعته أيضاً يقول ذلك، فلما أردت أن أفارقه قلت: يا عبدالله؛ إني أردت أن أقتدي بسيرتك فسمعتك أكثر ما تقول تتعوذ من الشح الفاحش، قال: وما أبغي أفضل من أن أكون من المفلحين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]».



الفصل الثالث

العناية بأعمال القلوب

المبحث الأول: التوبـــة

جاءت صفاتُ المفلحين من عباد الله في آي الذكر الحكيم، شاملة لجميع جوانب حياة العبد في هذه الدنيا، في إيمانه وعقيدته، في عباداته وطاعاته، في معاملاته وعقوده، في سلوكه وأخلاقه، في صلاح ظاهره وباطنه، وقد جاء الجمع بين ثلاثة منها في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٥ – ٦٧].

هذه إحدى صور ما يكونُ في يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب، حيث ينادي ربنا جل وعلا المشركين الذين اتخذوا من دونه سبحانه شركاء يعبدونهم ويدعونهم من دون الله عز وجل، دليلُ هذا ما جاء في الآية السابقة، ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤]، وفي هذا توبيخ لهم على تكذيبهم الرسل ومخالفتهم.

والمراد ماذا أجبتم المرسلين في الدعوة إلى توحيد الله وإبطال الشرك، والمراد بالمرسلين نبينا محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ﴾ [سبأ: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [يونس: ١٠٣]، والمراد نبينا محمد ﷺ، وإنما جيء بالجمع لأن رسالة الرسل واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله سبحانه والتحذير من الشرك كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ

﴿رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، والمكذب لرسول واحد مكذبٌ للجميع، فالإيمان بالرسل جميعاً أحدُ أركان الإيمان الستة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾[القصص: ٦٦]، أي خفيت عليهم وغابت عنهم الأنباء ولم يهتدوا إلى الجواب، فسكتوا كلهم، هم ومن دعوهم من دون الله سبحانه، وذلك من الحيرة والذعر والخوف، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم، وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه، لا أدري، وهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[القصص: ٦٦] قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب»[1].

وقد ذكر الله عز وجل في الآية بعدها مَنْ لهم الفلاح والنجاح في الآخرة، يوم الحساب والجزاء، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وهم من استجمعوا هذه الأمور الثلاثة، التوبة والإيمان والعمل الصالح، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٠/ ٤٧٨.

﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[القصص: ٦٧]، جاءت التوبة مقترنة بالإيمان هنا لأن المقصود الأعظم من التوبة الإقلاع عن الشرك والبعد عن صوره وأشكاله، إذ لا يجتمع إيمان وشرك، وتوحيد وكفر، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الآية جمع هنا بين الإيمان والعمل الصالح وهذا كثير في القرآن للدلالة على أنه لا بد منهما، إذ لا بد مع الإيمان من العمل الصالح، ولا ينفع العمل الصالح بلا إيمان وتوحيد، ولذلك عرف أهل السنة الإيمان بأنه : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

وقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[القصص: ٦٧] أي الفائزين بالمطلوب عند الله عز وجل وهو الجنة، الناجين من المرهوب وهو النار، و«عسى» للتحقيق، وهي من الله واجبة فضلاً وجوداً وكرماً، كما قال ذلك المفسرون رحمهم الله تعالى.

من المعلوم أنه يحيط بابن آدم أعداء كثر من شياطين الإنس والجن، يحسنون له القبيح ويثبطونه عن فعل الخير وأداء الواجب والقيام بالحقوق، ينضم إليهم النفسُ الأمارة بالسوء والشيطانُ والهوى، يدعونه إلى الشهوات ويقودونه إلى مهاوي الردى، فينحدرُ بسبب ذلك ويتدرج في موبقات الذنوب صغيرها وكبيرها، والعبد مهما قوي إيمانُه وعلا يقينه لا بد له من هفوات وزلات تقع وتصدرُ منه، روى الإمام أحمد والترمذي وابنُ ماجه

بسند حسن عنه ﷺ قال «كلُّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

وإن فرح المؤمن بالمعصية وإقامته عليها دليلٌ على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه. وكذا الجهلُ بسوء عاقبتها وعظم خطرها، والمؤمن الصادق لا تتم له لذة بمعصية أبداً ولا يكملُ بها فرحه، بل يحزن ويتألم أن عصى ربه وفرط في حقه، وأعظم من هذا الإصرار على المعصية والاستقرار على المخالفة والعزم على معاودة الخطيئة، والإصرار على المعصية معصية أخرى وعقوبة عاجلة للذنب، حتى يألف الذنوب والتهاون في أوامر الله، وأعظمُ من هذا كله المجاهرة بالذنوب والخطايا والتفريط في الفرائض والواجبات، وذلك علامة الهلاك ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا من علامة قلة الحياء من الله سبحانه الذي أنعم عليك وتفضل، ثم أنت تقيمُ على معاصيه بل وتجاهرُ بها.

إن الله العليم الحكيم، الرؤوف الرحيم، الذي يعلم مَنْ خَلَق وهو اللطيف الخبير، لما علم من عباده القصور، والخلل، والضعف والزلل، والخطيئة والذنب فتح لهم باب التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها أو تبلغُ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧ – ٢٨]، بل إنه سبحانه بفضله وكرمه، وجوده وعطائه ورحمته التي وسعت كل شيء يبدل سيئاتهم حسنات ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

لقد جعل الله في التوبة ملاذاً مكيناً وملجأ حصيناً، يلجه المذنبُ معترفاً بذنبه، مؤملاً في ربه، نادماً على فعله، غير مصر على خطيئته، ففتح أبوابه للتائبين، يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ومَنْ مِنَّا لم يقترف ذنباً أو يقارف معصية أو يتهاون في واجب أو يفرط في حق، قال بعض السلف: لو أن للذنوب روائح كريهة ما استطاع منا أحد أن يجلس بجانب الآخر.

لقد نادى الله عباده ليتوبوا وينيبوا إليه وهو الغني عنهم لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، فأعظم آية في الرجاء قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**» رواه مسلم. وأعلمنا سبحانه أن التوبة الصادقة تمحو الخطايا وتكفر الزلات مهما عظمت، حتى الكفر والشرك، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] الآية، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وأخبرنا نبينا صلواتُ ربنا وسلامُه عليه عن فرح الله بتوبة عبده فقال: «**لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمةٌ عنده**

فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» رواه البخاري ومسلم.

إن التوبة واجبة على المكلفين ومن عمل الصالحين وسمات المتقين، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١] وهذا نبينا ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**».

إن التوبة ليست كلاماً تلوكه الألسنة ولا خطراتٍ تتردد في القلوب ولا تمنيات تعرض للنفوس، إن التوبة الحقيقية ما استُجمعت فيها هذه الشروط الثلاثة:

الأول: الإقلاع عن المعصية، لأن التوبة مع الإقامة على الذنب والإصرار عليه توبة مغشوشة يغش بها الرجل نفسه، فيرى أنه إذا تأثر بكلمة أو أطرق برأسه لنصيحة أن هذه هي التوبة ، نعم هذه بداية خير ورشد وتقبل حسن، لكن لا بد من الإقلاع عن المعصية، ولذا يقول سبحانه: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥].

الثاني: الندم على فعلها ندماً يوجب له ذلاً وانكساراً بين يدي ربه، وتوجع قلب وانسكاب دمع وتعلقاً به سبحانه، ودافعاً للازدياد من الصالحات وتبديل الحال من سيء إلى حسن، لا أن يغلو في الندم والازراء بنفسه حتى يقنط من

رحمة الله فيرى أن ذنوبه لا تغفر وخطاياه لا تستر، فإن فعل ذلك فقد ظن بربه ظنَّ السوء، وقنط من رحمته ويئس من روحه ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الثالث: العزمُ على عدم العود إلى الذنب عزماً أكيداً فإن عاد إلى الذنب استغفر ربه وتاب إليه ولا يزال كذلك في جهاد حقيقي مع نفسه، وتلك وايم الله هي التوبة النصوح في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] قال عمر: «التوبة النصوح يذنب الذنبَ ثم لا يرجعُ فيه» رواه الطبري. وقال ابن مسعود «يتوب ثم لا يعود» رواه الطبري، وقال الحسن البصري: «التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته»[1].

فإن كان الذنبُ بينك وبين مخلوق كغيبةٍ أو أخذ مال بغير حق ونحو ذلك، فتحلله منه واردده إليه، فإن لم تجده أو خفت شراً أكثر من ذلك فادع له واثن عليه في مجالسك وتصدق بماله عندك إن لم يقبل أخذه.

ومع استجماع هذه الشروط وتحقيقها فعلى العبد أن يدعو ربه بقبول توبته وتوفيقه لها، فيكون المسلم راجياً مؤملاً، خاشياً مشفقاً، وهذا من موجبات دخول الجنة برحمة الله كما قال عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٢.

وللتوبة النصوح المقبولة علامات كثيرة، منها: نشاط العبادة والاجتهاد في فعل الخير، فيكون بعد التوبة خيراً مما قبلها، ومنها: أنه لا يزال الخوف والخشية من الله يصاحب قلبه، لا يأمن مكر الله طرفة عين، حتى تقبض رسلُ الله روحه قائلين له ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ومن العلامات أيضاً: انكسار قلبه وتذلله بين يدي ربه، يعلم علم اليقين أن سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة في رضا ربه عنه وقبول توبته والعفو عما صدر منه، من تهاون وتفريط في جنب الله عز وجل.

ففرق شاسع بين رجلين، أحدهما: غره طول الأمل وزهرة الحياة الدنيا وتوافر النعم وتتابعها عليه، فقارف المعصية ووقع في الخطيئة وتهاون في أداء الواجب والقيام بالحقوق، وسوَّف في التوبة وما خدع إلا نفسه، لا يفكر في عاقبته ولا يخشى سوء الخاتمة، حتى يفاجئه الأجل وتغرغر روحه في الحلقوم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، أما الآخر فإنه إذا أحدث ذنباً سارع بالتوبة، وإذا تهاون في فرض أو قصَّر في واجب بادر إلى أدائه والقيام به، يعلم علم اليقين أن التوبة ليست أماني أو كلاماً إنما هي جد وعمل وتغير حال إلى الأفضل، قد جعل من نفسه رقيباً عليه وملاحظاً له، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]، وهذه هي مرتبة الإحسان العليا التي يقول عنها ﷺ كما في الصحيح: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

إن المؤمن مع قناعته بأهمية التوبة والمبادرة إليها وتحقيقها فإنه قد تعوقه عوائق وتضعفه أمور منها:

١- هوى النفس وطول الأمل والتسويف، فلا أضر على الخلق من كلمة «سوف»، وقد عد الله الهوى إلهاً يعبد من دونه، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤]، فهو عبد لهواه يطيعه ولو كان فيما يغضب ربه ويسخطه عليه.

٢- أرض المعصية، فالذي يريد النجاة لا يسكن الأرض الموبوءة، وأعظم الأوبئة الذنوب والمعاصي، فيترك مجالسه ولقاءاته التي تؤزه إلى الشر وتثبطه عن الطاعة، ولهذا أرشد العالم ذاك الذي قتل مائة نفس أن ينطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله ليعبده معهم، ويترك أرضه فإنها أرض سوء. رواه مسلم.

٣- ويتبع هذا ترك الرفقة السيئة وصحبة أهل الشر، واستبدالهم بمجالس الذكر وصحبة الأخيار، والنبي ﷺ يقول: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» رواه مالك وأحمد والحاكم.

٤- التفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، فهذا دليل على عدم العزم وصدق التوبة، فإنه إذا تذكر ذنوبه السالفة وحلاوة مواقعتها ضعف سيره إلى الله ولربما انتكس إليها مرة أخرى، نعوذ بالله من الخذلان.

المبحث الثاني: تزكية النفس

جاء في القرآن الكريم الثناء على صنف من الناس، اعتنوا بتزكية نفوسهم وتطهيرها من علائق الدنيا وشهواتها المحرمة، ومن دنس الذنوب وشؤم المعاصي، فاستحقوا بذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

وقد روي في معنى قوله تعالى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أقوال كثيرة عن السلف منها، قول ابن عباس رضي الله عنهما «﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] من الشرك، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ [الأعلى: ١٥] أي: وحد الله، ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الصلوات الخمس»، وعن عكرمة قال: «﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] من قال لا إله إلا الله» وهو مروي أيضاً عن ابن عباس وعطاء.

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أي: «من أكثر الاستغفار»، وعن قتادة قال «بعمل صالح»، كما فسرت الآية بأن المراد بها زكاة الفطر قبل أن يخرج لصلاة العيد، وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٥] أي خرج إلى العيد فصلى، روي هذا عن أبي سعيد الخدري وعبدالله بن عمر وواثلة بن الأسقع وأبي العالية وعطاء ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير رحمهم الله تعالى.

وقد ذهب إلى عموم الصدقة قبل أي صلاة جمع من السلف، فعن أبي الأحوص قال: «رحم الله امرأ تصدق ثم صلى، ثم قرأ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وفي رواية قال «من استطاع أن يقدم بين يدي صلاته صدقةً فليفعل، فإن الله يقول، وذكر الآية»[1]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا خرج أحدكم يريد الصلاة فلا عليه أن يتصدق بشيء، لأن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾»[2] [الأعلى: ١٤-١٥].

هذا ما روي في تفسير هذه الآية، أما قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠] فقد روي عن مجاهد «قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا [الشمس: ٩] أي: أصلحها، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] أي: أغواها»، وعن قتادة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] قال: «من عمل خيراً فزكاها بطاعة الله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] قال: مِنْ إثمها وفجورها»، وعن الحسن قال: «قد أفلح من زكى نفسه وأصلحها، وقد خاب من أهلكها وأضلها» وروي نحوه عن الربيع وعكرمة، وعن ابن عباس قال: «قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دس اللهُ نفسَه فأضله»[3].

وقد دلت الأقوال السابقة المروية عن السلف في تفسير الآيتين، أن أول ما تقوم عليه تزكية وإصلاحها تحقيق التوحيد لله رب العالمين والبعدُ عن الشرك والحذر منه، وهذا مقتضى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء: ٣٦]، وهي دعوة الرسل جميعاً قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

---

(١) الدر المنثور ٨/ ٤٨٦.

(٢) الدر المنثور ٨/ ٤٨٦.

(٣) ينظر لما سبق: جامع البيان ٢٤/ ٤٤٣-٤٤٦.

[النحل: ٣٦]، ثم تكون تزكية النفس بعد ذلك بالأعمال الصالحة، ورأسها القيام بالفرائض وأداء الواجبات، والتزود من نوافل القربات وأنواع الطاعات، ويدخل في ذلك زكاة الفطر وغيرها، مع الحذر مما يفسد طهارة النفس ونقاءها بالطاعة وصفاءها بالمجاهدة، يحذر المعاصي والذنوب فإنها سبب هلاكها وشقائها، وعطبها وخسرانها.

ولأهمية تزكية النفس بما ذكر أقسم الله عز وجل بأعظم مخلوقاته على ذلك، الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، أقسم بهذا كله على أن الفلاح والنجاح لمن زكى الله نفسه وأعانه على ذلك، وأنه لا خسارة أعظم لمن أضله الله، فخابت نفسه وخسرت، ولذلك كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**» رواه مسلم وغيره.

إن تزكية النفوس إحدى مهام رسالة النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] الآية، قال قتادة: «مَنٌّ من الله عظيم، من غير دعوة ولا رغبة من هذه الأمة، جعله الله رحمة لهم، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم، بعثه الله إلى قوم لا يعلمون فعلمهم، وإلى قوم لا أدب لهم فأدبهم» رواه الطبري.

هذه هي التزكية المطلوبة أما التزكية المنفية المنهي عنها في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٤٩ – ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: ٣٢] فالمراد بها مدح النفس والثناء عليها، وقد يكون أيضاً بطلبه من الآخرين أو الرضا به، والأمر كله لله سبحانه ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ ، لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها، وصنيعهم هذا كذب وافتراء على الله سبحانه، الذي لا تضيع عنده أعمال العباد مهما صغرت ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩] والفتيل ما يكون في شق النواة.

ولذلك روى الشيخان عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك، ثم قال : إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسبه كذا، ولا يزكي على الله أحداً».

إن النفس متى اعتنى بها صاحبها فزكاها وجاهدها نعمت وقرت، فحيت الحياة الطيبة، التي وجدت فيها حلاوة الإيمان ولذة الطاعة، والأنس بالمناجاة ونعيم العبادة ، فَلَكَمْ سمعنا وقرأنا عن عالم وجد أنسه ومتعته في رؤية ثمرات علمه وترقيه في طلب العلم، ومجاهدٍ أعطى الأعداء نحره ابتغاء نصرة دين الله أو اللحاق بركب الشهداء في سبيل الله عز وجل، وعابدٍ مستغرق في أنسه بربه ومناجاته، وتكسره وخضوعه بين يديه، ولجئه وإلحاح المسألة عند من هو حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه يا رب يا رب أن يردهما صفراً خائبتين، ولذلك روي عن بعض السلف ممن ذاق هذا الأمر

قوله: «إنه لتمر على القلب ساعة، إن كان أهل الجنة في مثل هـذه الحـال- أي من نعيم القلب- إنهم لفي عيش طيب»[1].

المبحث الثالث: تحقيق مقام التقوى

إن من ركائز الفلاح وأسسه تقوى الله عز وجل، أمر بها جل وعلا في مواضع من كتابه في خطاب عام للناس كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقد يكون الأمر بها في خطاب خاص بالمؤمنين كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وهي أيضاً وصيته جل وعلا للأولين والآخرين عن طريق رسله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾ [النساء: ١٣١]، ثم توعد من ضيعها وأهمل أمرها فقال: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وجاء التذكير بها في مواضع أخرى من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٢، مدارج السالكين ١/ ٤٥٤.

[البقرة: ٢٨١] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. وأمر بها نبيه وصفيه من خلقه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

كما جاء الأمر بتقوى الله عز وجل في السنة والحث عليها والوصية بها، فقد أوصى بها النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه والوصية للأمة من بعده بقوله: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**» رواه أحمد والترمذي، وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة**» رواه أحمد وأبو داود والترمذي، قال الحافظ ابن رجب: «فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة»[1]، وعن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً» رواه مسلم.

كما أبان عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى الله وحُسن الخلق**»، وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**» رواه الترمذي بسند حسن، ولهذا كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**» رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) جامع العلوم والحكم ٢٦٢.

وقد جاء الحديث عن التقوى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وفي صور مختلفة وبأساليب متنوعة، فهي من أسس الفلاح وركائزه التي يقوم عليها، فمن رام الفلاح وطلب النجاح في الدنيا والآخرة فليلزم تقوى الله عز وجل، وليحقق أركانها وليتمثل معانيها، يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ١٨٩، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٣٠ ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ٢٠٠ ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٣٥ وجاء الأمر بها مفردة لنيل الفلاح في قوله سبحانه ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وهي من نعوت المفلحين، بل المقدمة على ما سواها، قال تعالى ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٣] إلى قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

ولما امتن الله على عباده بنعمة اللباس على اختلاف أنواعه وأصنافه مما يسترون به عوراتهم ويتجملون به عند غيرهم ويكون وقاية لهم من الحر والبرد نبه إلى لباس أهم وآكد، إنه لباس التقوى الذي من عري منه بقي لا قيمة له ولا كرامة، ونال الخزي والفضيحة، قال تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا

عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد أحسن القائل[1]:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصياً

ولما أمر جلَّ وعلا بأخذ الزاد في السفر من طعام وشراب وما يحتاج إليه وبخاصة في سفر الحج، حتى يكف نفسه عن الناس ويستغني عنهم ويتفضل بما عنده عليهم، أمر تعالى بالزاد الأهم والآكد ألا وهو زاد التقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ١٩٧]، فمن ترك هذا الزاد انقطع به الطريق إلى الله سبحانه فكان عرضة لكل طامع وقريباً من كل شر، وقد أحسن القائل:

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جن الليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علةٍ ... وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

وقد رُوي عن سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى أقوال كثيرة في المراد بالتقوى، وقد أشار كل واحد منهم إلى بعض أسسها وأهم ركائزها وإلا فهي أعم وأشمل، أساسها تحقيق التوحيد لله رب العالمين والخلوص من الشرك، يقول علي بن أبي طالب ﷺ: «التقوى: هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة من الدنيا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل»، وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: «التقوى: أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى وأن

(١) لطائف المعارف ١٢٠، ٢٠٧.

يشكر فلا يكفر»[١]، وقيل: «التقوى: ألا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك»[٢]، وعن طلق بن حبيب قال:«التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[٣]، ولما سئل أبو هريرة ﷺ عن التقوى قال للسائل: «هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قَصُرتُ عنه، قال: ذاك التقوى»[٤] أراد اجتناب المحرمات والبعد عن المعاصي والمهلكات.

وجماع التقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وما روي عن السلف مما ذكرته إنما هو إشارة إلى بعض قواعدها وأسسها.

إن التقوى دعوة الأنبياء، فكل نبي قال لقومه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهي شعار الأولياء والصالحين ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، وفي القرآن الكريم بيان لنعوت المتقين وإشادة بذكرهم ورفعة شأنهم، فالمتقون المفلحون في كتاب الله هم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣ - ٤]، المتقون في كتاب الله هم ﴿مَن

---

(١) زاد المسير ١/ ٤٣١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٧٣، الدر المنثور ١/ ٦٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢١.
(٤) جامع العلوم والحكم ١٥٩.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، المتقون في كتاب الله هم ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤ - ١٣٥].

وصف علي ﷺ المتقين فقال: «هم أهل الفضل، منطقهم صواب وملبسهم في اقتصاد، ومشيهم في تواضع، غضوا أبصارهم عن الحرام، ووقفوا أسماعهم على ما يستفاد، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كما نزلت في الرخاء، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، مطالبهم في هذه الدنيا خفيفة وأنفسهم عما فيها عفيفة، صبروا أياماً قصيرة فأعقبهم راحة طويلة، يصفُّون في الليل أقدامهم يرتلون قرآنهم، جاثون على الركب يطلبون النجاة من العطب، لا يرضون من الأعمال الصالحة بالقليل ولا يستكثرون منها الكثير، من ربهم وجلون ومن أعمالهم مشفقون، يتجملون في الفاقة، ويصبرون في الشدة ويشكرون على النعمة، قريب أملهم قليل زللهم، الخير منهم مأمول والشر منهم مأمون».

وحين يصيب الإنسان بعض القصور ويقع في الزلل ويغلبه طغيان

الشهوة فإن زاده من التقوى كافٍ بإذن الله لكي يرجع إلى ربه ويأوي إلى رحمته ويفر من شيطانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، التقوى عون على استحضار مراقبة الله عز وجل الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

قال بعض السلف: «أوصيك بتقوى الله، الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبُك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال، في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك»(١).

وما عظمت الوصية بالتقوى والأمر بها إلا لأهميتها وغفلة الناس عن تحقيقها والإتيان بها على الوجه الأكمل، كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها ولا يُرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جعلني الله وإياك من المتقين»(٢).

إن التقوى جماع كل خير، كم علق عليها من أجر ووعد عليها من ثواب، وارتبط فيها من فلاح، فالمتقون أولياء الله عز وجل ولهم معيته الخاصة التي من مقتضياتها النصرة والتأييد، والمعونة والحفظ والتوفيق، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٥.

(٢) جامع العلوم والحكم ١٦١.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨].

المتقون هم الأعلون الأعزاء، الذين تقبلت أعمالهم فلم يتقبل من غيرهم، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[البقرة: ٢١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧] روي عن ابن مسعود ﷺ قال: «لو أعلم أن لي سجدة متقبلة لتمنيت الموت بعدها أليس الله يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾».

والتقوى سبب مبارك للعبد فإن الله تعالى يحب المتقين، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ٧٦]، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**» رواه مسلم، كما أنها سبب مبارك لصاحبها في سلامته من الخوف والحزن الذي يصيب غيره، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام والسعادة والفلاح، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[الأعراف: ٣٥]، وهي أيضاً سبب مبارك في حصول الخيرات وحلول البركة فيها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦].

والتقوى مفتاح العلم النافع وفرقان ونور يفرق به المتقي بين الحق والباطل،

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهي من أسباب الرحمة كما قال تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. أما عن نعيم المتقين في الجنة فعظيم وكبير، والآيات في بيان هذا كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥ – ١٦].

المبحث الرابع: الصبر والمصابرة

إن من الأمور التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم في سوره المكية والمدنية الصبر، قال الإمام الغزالي: «ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً»[1]، ونقل الإمام ابن القيم عن الإمام أحمد رحمهما الله تعالى قوله: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً»[2]، ولذلك قال بعض أهل العلم: «أي شيء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى في كتابه في نيف وتسعين موضعاً، ولا نعلم شيئاً ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر»[3].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٦١.

(٢) طريق الهجرتين ٤٠٠، عدة الصابرين ٩٠.

(٣) قوت القلوب ١/ ١٩٧.

وعناية القرآن الكريم بالحديث عن الصبر كبيرة لما له من قيمة في دين الإسلام، فليس هو من الفضائل الثانوية المكملة، بل هو ضرورة لازمة، ليرقى الإنسان مادياً ومعنوياً، ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر، ولا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر، في الدنيا لا تتحقق الآمال ولا تنجح المقاصد ولا يؤتي عملٌ أكله إلا بالصبر، فمن صبر ظفر، ومن عدم الصبر لم يظفر بشيء.

من هنا نعلم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح في الدنيا والآخرة، به دخول الجنة واستحقاق التحية من الملائكة، يقول تعالى ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] وفي شأن عباد الرحمن يقول تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وفي شأن سلام الملائكة على أهل الجنة قال جل وعلا ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

قال بعض أهل العلم: «اعلم أن الصبر سببُ دخول الجنة، وسببُ النجاة من النار، لأنه جاء في الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار.. واعلم أن كثرة معاصي العباد من شيئين: قلةِ الصبر عما يحبون، وقلة الصبر عما يكرهون»[1].

---

(١) قوت القلوب ١/ ١٩٩-٢٠٠.

فأهل الإيمان أشد حاجة إلى الصبر بجميع أنواعه الثلاثة، الصبر على المصائب والابتلاءات والمحن والشدائد، والصبر على الطاعات وأداء الفرائض والقيام بالحقوق، والصبر عن المعاصي والولوج في الخطايا والمآثم، لأنهم أشد الناس عرضة للأذى والمحن، ولأمراض الشبهات والشهوات، وكل هذا يحتاج إلى الصبر، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ولم يكتف القرآن بالأمر بالصبر والثناء على أهله، ونوط كل خير عاجل أو آجل به، بل عُني أيضاً بالباعث على الصبر والدافع إليه، فالصبر المحمود في القرآن ما كان لله تعالى وابتغاء وجهه، لا لكسب محمدة أو طلب ثناء من الناس، لأن الصبر عبادة وقربة إلى الله عز وجل، ولهذا قال سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، وأثنى أيضاً على أولي الألباب الذين لهم عقبى الدار وكان من وصفهم ما جاء في قوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢] فلم يمدحهم لمجرد أنهم صبروا، بل لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم.

ثم إن القرآن لم يكتف من المؤمنين بالصبر فقط، بل طلب منهم درجة أخرى بعد الصبر وهي المصابرة ورتب على ذلك وغيره الفلاح فقال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وجاء في تفسير الآية أقوال كثيرة عن السلف رحمهم الله تعالى، قال أبو غسان «أمرهم أن يصبروا على دينهم ولا يدعوه لشدة ولا رخاء ولا سرَّاء ولا ضرَّاء ، وأمرهم أن يصابروا الكفار، وأن يرابطوا المشركين». وعن قتادة قال: «اصبروا على طاعة الله وصابروا أهل الضلالة، ورابطوا في سبيل الله»، وعن الحسن قال: «اصبروا عند المصيبة وصابروا على الصلوات، ورابطوا : جاهدوا في سبيل الله»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اصبروا على طاعة الله، وصابروا أعداء الله، ورابطوا في سبيل الله»[1] .

فدلت هذه الأقوال على أن المصابرة أمر زائد على الصبر، وهي تفيد مفاعلة من جانبين، والمراد مغالبة الأعداء وجهادهم، فكما أن أهل الباطل ينتصرون لباطلهم ويصرون على ذلك فأهل الحق والإيمان أولى بذلك، وقد وعدوا على ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل.

إن مجالات الصبر في القرآن كثيرة، منها الصبر على الابتلاءات والشدائد في الدنيا، التي لا يخلو منها بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، فلم نر أحداً سلم من آلام النفس وأسقام البدن وفقدان الأحبة وخسران المال ومتاعب العيش ونحو ذلك، لكن المؤمن يصبر ويتجلد رجاء موعود الله سبحانه في قوله: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

---

(١) ينظر لهذه الأقوال: جامع البيان ٦/ ٣٣٢، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٧.

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]، وهذا لا يكون إلا للمؤمن الصادق، الراضي بقضاء الله وقدره، المسلِّم أمره لله سبحانه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن**» رواه مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

ومن مجالات الصبر أيضاً: الصبر عما تشتهيه النفس ويميل إليه الطبع من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها، إذا أقبلت على العبد وتزينت له، فجمعها من كل طريق حتى من الحرام، أو قد يوالي ويعادي من أجل الدنيا، بسبب هلعه وإقباله عليها، لكن الصابر حقاً من أمسك زمام نفسه عن الاسترسال في جمع حطامها الفاني فلم يركن إليها، قال بعض أهل العلم: «الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قال بعضهم: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر»[1].

ولهذا حذر الله عباده من فتنة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا جمعاء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن: ١٥] وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) الصبر في القرآن ٣٦.

فالمؤمن حقاً هو الذي يعتز بما آتاه الله من نعمة الهداية إلى الإيمان والتوفيق للطاعة، ويعلم أن المال ظل زائل وعارية مستردة، ولذلك قال الذين أوتوا العلم لمن افتتنوا بقارون وزينته: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

ومن مجالاته أيضاً: الصبر على طاعةِ الله عز وجل والقيام بواجب العبودية له سبحانه، ولهذا جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

ولا شك أن طريق العبادة وأداء الطاعة يحتاج إلى مزيد صبر وعناية، ومجاهدة ومحاسبة، ولهذا جاءت هنا صيغة الافتعال من الصبر وهي ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ مكان واصبر، لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، والزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى.

ولهذا قال الغزالي: «الصبر على الطاعة شديد.. فإن العبودية شاقة على النفس مطلقاً، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبرٌ على الشدائد، ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى**»، ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

الثانية: حال العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل في تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ – ٥٩] أي صبروا إلى تمام العمل.

الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله»[1].

ومن مجالات الصبر أيضاً في القرآن الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى، وما يحف بها من متاعب وآلام، وما تحتاجه من بذل وتضحيات، وكلُّ هذا يحتاج إلى الصبر، وهذا هو السر في اقتران التواصي بالصبر بالتواصي بالحق في قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، وهو السر فيما ذكره الله تعالى على لسان لقمان حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٧٠.

وأذى عقب وصيته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، كأنه يقول له: ما دمت تدعو الناس إلى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر فوطن نفسك على احتمال المكاره منهم والصبر على ما ينالك من أذيتهم بسبب دعوتك إياهم إلى الخير وتحذيرهم من الشر.

وهذا ما أقسم الله على وقوعه للداعين إليه، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر، فقال تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ومن هنا أمر الله عز وجل رسولنا عليه الصلاة والسلام بالصبر على ما يناله من أذى قومه فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠]، وعزّى الله تعالى خاتم رسله ﷺ بما حدث لإخوانه المرسلين من قبله فقال: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ومن مجالات الصبر أيضاً الصبر في العلاقات مع الناس عموماً ومع أهله خصوصاً، فالعلاقات الزوجية لا تستقيم ولا تستقر إلا بأن يصبر الزوجان على ما يناله من الآخر، ويحتمل منه ما لا يحبه، وكل إنسان فيه ما يمدح ويذم.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

... فأمر القرآن الرجال بالصبر مع أزواجهم وإحسان العشرة معهن وإن أحسَّ أحدهم بالنفرة من زوجه وبغضه إياها، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**لا يفرك مؤمن - أي لا يبغض - مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها آخر**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا النوع من الصبر مطلوب في علاقة الآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم، والأقارب مع أقاربهم، والجيران مع جيرانهم، ويدخل في هذا إلجام النفس بلجام الحلم، وكفها عن الاستجابة لثورة الغضب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

ويدخل في هذا النوع من الصبر صبرُ الأستاذ على تلاميذه وما يلاقيه في تعليمهم من عنت ومشقة، وأيضاً صبر الطلاب على معلمهم وتلقي التعليم منه وأطر النفس على الإفادة منه، وتحمل الجفوة والغلظة التي تبدو منه.

إن الصبر مبارك على أهله في الدنيا والآخرة، وقد سبق ذكر الآيات الدالة على أن من صفات أهل الجنة صبرهم واحتسابهم ذلك عند ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وفي الدنيا متى اقترن الصبر

باليقين كانت الإمامة في الدين، كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[١] رحمه الله تعالى، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، والصابرون لهم معية الله الخاصة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وأجرهم لا حد له: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، وقد أثبت الله محبته لأوليائه الصابرين فقال سبحانه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وأطلق البشرى لهم في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، قال عمر رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعمت العلاوة»[٢] فالعدلان الصلاة والرحمة، والعلاوة الهدى.

إن الصبر شاق، لذا فقد يصعب على النفوس ويثقل على القلوب، ولهذا أشار القرآن الكريم إلى جملة أمور تعين على الصبر وتهونه على النفس بعد توفيق الله عز وجل وإعانته، ومن ذلك:

أولاً: معرفة طبيعة الحياة الدنيا، فهي دار ابتلاء وتكليف، محفوفة بالمتاعب والمشاق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فليست جنة نعيم، لا تنغيص فيها ولا تكدير، بل اختلطت فيها اللذة بالألم والفرح بالترح، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألم أو صحة لا يكدرها سقم أو

(١) الاستقامة ١/ ٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٧٠، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٢٦٩.

سروراً لا ينغصه حزن، أو راحة لا يخالطها تعب، أو اجتماعاً لا يعقبه افتراق أو أماناً لا يلحقه خوف.

فالمؤمن الصادق يعلم هذا فيُعدُّ له عدته بالصبر ويوطن نفسه على ما يكون فيها، قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ صف لنا الدنيا فقال: «ماذا أصف لك من دارٍ من صحَّ فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب»[1].

يقول ابن القيم في علاج المصيبة: «ومن علاجه أن يطفيء نار المصيبة ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة، وأنه لو فتش العالم لم يرى فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلامُ نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهراً ، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة إلا ملأتها عبرة»[2] الخ كلامه.

ومن الأسباب المعينة على الصبر: معرفة الإنسان نفسه، أنه ملك لله تعالى، فهو الذي خلقه من العدم ومنحه الحياة والحركة، ووهب له السمع والبصر وغير ذلك، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣] ، فإذا نزل بالعبد نازلة أو ابتلي بفقد شيء، فإنما استرد صاحب الملك جل وعلا بعض ما وهب وأخذ بعض ما أعطى، فلا

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٠٨.

(٢) زاد المعاد ٤/ ١٧٣.

يجوز للمودَع وهو العبد الضعيف أن يسخط ذلك أو أن يعترض عليه، ولذلك كان قول الصابرين ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

يقول ابن القيم: «وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها متضمنة أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته، أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملكٌ لله عز وجل، وقد جعل عند العبد عارية.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته فكيف يفرح بموجود ويأسى على مفقود»[1].

ومن أعظم ما يعين على الصبر اليقين بحسن الجزاء من الله تعالى، فجزاء الصابرين عظيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، بل إن الله يتفضل عليهم من جوده وإحسانه بلا حساب ولا عد كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وروي عن عمر رضي الله عنه قوله: «ما أصبتُ ببلاء إلا كان لله علي فيه أربع نعم، أنه لم يكن في ديني، وأنه لم يكن أكبر منه، وأني لم أحرم الرضا به، وأني أرجو ثواب الله عليه»[2]، وهو القائل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ

(١) زاد المعاد ٤/ ١٧٣.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ١٢٩.

صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦ – ١٥٧] «نعم العدلان ونعمت العلاوة»[1] الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية، قال بعض أهل العلم: «وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء مَنْ صبرت له، لأنه لو قوي يقينه كان الآجل من الوعد عاجلاً، إذا كان الواعد صادقاً، فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء».

ومما يعين على الصبر أيضاً: اليقين بأن الفرج والتيسير من الله عز وجل، اليقين بأن نصر الله قريب وأن فرجه آتٍ لا ريب فيه، وأن بعد الضيق سعة وأن بعد العسر يسراً، هذا اليقين الجازم جدير بأن يبدد ظلمة القلق من النفس ويطرد شبح اليأس من القلب، ويضفي عليه الراحة والطمأنينة، وصدق التعلق بالله سبحانه واللجوء إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال عز وجل: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

ولهذا خاطب الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ بعد أن قص عليه ما كان بين نوح وقومه وابنه وما انتهى إليه أمرهم فقال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى مبيناً ما نال الرسل من قبل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]، وفي وعد المهاجرين في سبيل الله عز وجل بحسن العوض والإخلاف

---

(١) سبق تخريجه.

لهم بخير قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[النحل: ٤١-٤٢]، وثبت في صحيح مسلم عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها**» قالت: «فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله خيراً منه، رسول الله ﷺ».

ومما يعين على الصبر التأمل في سير الصابرين وما لاقوه من صنوف البلاء وألوان الشدائد، وبخاصة الرسل عليهم السلام، فكانوا بصبرهم وتحملهم وحلمهم قدوة وأسوة لغيرهم، ولهذا لما قص الله في سورة هود بعض قصص الرسل مع أقوامهم قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[الأحقاف: ٣٥].

ومما يعين على الصبر الإيمان بقضاء الله وقدره، فما كتبه الله نافذ لا محالة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣].

المبحث الخامس: تذكر نعم الله وشكرها

إنَّ نعم الله تعالى على عباده لا تعد ولا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣]، أعظم هذه النعم وأجل هذه المنن نعمة الإسلام والإيمان، والهداية والتوفيق لطاعة الله، قال عز وجل: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال سفيان بن عيينة: «أعظم نعم الله على عباده أن عرفهم لا إله إلاَّ الله»[١].

وإن نظرة العبد في نفسه، كيف خلقه ربه في أحسن تقويم وعلى أفضل هيئة وأجمل صورة، أكرمه بالعقل وزوده بالجوارح وحفظه من الأخطار والأمراض، كل هذا بدقة متناهية ونظام لا يختل، مع الصحة والعافية، وقد يغفل العبد عن تذكر هذه النعم واستحضارها لكن إذا أصابه ألم أو نزل به مرض أو فقد إحدى جوارحه تذكر عظيم نعمة الله عليه، وتذكر إخوانه المرضى، يتمنى أحدهم النوم ولو لحظة واحدة، أو الراحة ولو شيئاً يسيراً، أو توقف الآلام والأوجاع ولو برهة من الزمان، وبضدها تتبين الأشياء.

ولذلك قال الحسن البصري: «أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر»[٢]، وقال مطرف بن عبدالله: «نظرت في العافية والشكر، فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة»[٣]، ومن تلك النعم نعمة الأمن في الأوطان، وبها امتن الله

---

(١) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها – ابن رجب الحنبلي ص٥٣.

(٢) عدة الصابرين ٩٨

(٣) تاريخ دمشق ٥٨/ ٣١٧، عدة الصابرين ١٠٠.

على قريش في قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[قريش: ٤]، ومنها نعمة الأرزاق وتعدد أنواع المطعومات والمشروبات مع وجود المال الذي يشترى به، مع تهيئة جميع وسائل الراحة وتوفر سبل المعيشة وتطورها، ودفع العناء والمشقة صغرت أم كبرت في كل شيء، فاللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

إن الشكر منزلة عظيمة ومرتبة عالية، قل من الناس من يقوم بها حق القيام ويؤديها كما أمر الله، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، وقد تكفل الله برفع العذاب متى شكر العباد ربهم وآمنوا به، قال عز وجل: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾[النساء: ١٤٧]، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته السعي في قطع الناس عنه وإشغالهم حتى لا يقوموا بوظيفته، فقال تعالى حكاية عنه ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٧].

والشكر أيضاً من أسس الفلاح وقواعده في الدنيا والآخرة، متى قام العبد به ووفى أركانه واجتهد فيه، وهذا ما ذكَّر به نبي الله هود قومه الذين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، لكنهم جحدوا وعاندوا واستكبروا عن قبول دعوة التوحيد والإسلام لله رب العالمين، المنعم المتفضل، الذي من أوجب شكره الإيمان به وإفراده بالألوهية والبعد عن الشرك به، قال تعالى حكاية عنه ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، قال بعض المفسرين: «ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا، لأن ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة»[١].

ففي الآية بيان ركن من أركان شكر النعم وهو تذكرها واستحضارها وعدم الغفلة عنها، لأنه كلما تذكرها كرر شكر الله عليها وثناءه على ربه المنعم بها عليه، وهذا سر الأمر بالتذكر في الآية مرة أخرى، وربطه بالفلاح، فإن من داوم التذكر الذي يعقبه الشكر أفلح ونجح في الدنيا والآخرة.

ولهذا كان عمر بن عبد العزيز كلما قلب بصره في نعم الله عليه قال: «اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثني بها»[٢]، وقال يونس بن عبيد: «قال رجل لأبي تميمة كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل، ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي»[٣] وقال بكر بن عبدالله: «يا ابن آدم إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك»[٤]، وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٨/ ٢٠٧.

(٢) عدة الصابرين ١٠١.

(٣) عدة الصابرين ١٠١.

(٤) عدة الصابرين ١٠١.

يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه»[١].

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: «أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أجميل ما يسر أم قبيح ما ستر»[٢].

فهذه منزلة الشكر وأهميته في دين الإسلام فبه الفلاح والسعادة والخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، لكن كيف يكون القيام بهذا الأمر العظيم أعني الشكر، فالزيادة مرتبطة بالشكر، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «الشكر مبني على خمس قواعد، خضوع الشاكر للمشكور سبحانه، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره»[٣].

فأول ما يكون به الشكر دعاء الله تعالى الإعانة على الشكر والتوفيق للقيام به قولاً وعملاً، فقد ثبت في المسند وسنن الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «**يا معاذ إني لأحبك، فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٢، عدة الصابرين ١١٨.

(٢) عدة الصابرين ١١٩.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.

وثانيها: الاعتراف بأن هذه النعم من الله وحده، ليس لأحد سواه فيها حول ولا طول، إنما قد يجري أسباب حصولها على بعض خلقه وهو مسببها سبحانه، قال الحسن البصري: «أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يحدث بنعمة ربه عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]»[١]، هذا حديث اللسان بها، ويضاف إلى ذلك حديث الحال بها، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وإذا أردت أن تعرف قدر نعمة الله عليك فانظر إلى من هو دونك، ففي الصحيحين عنه ﷺ قال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه**» وعند الترمذي «**فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم**».

والعجب أن بعض الناس إذا سئل عن أحواله بدأ يعدد همومه وأحزانه، ويذكر مصائبه وابتلاءاته، كأن لم تكن لله عليه نعمة، تراه يتحدث عن أمراضه وأمراض أسرته، أو عن قلة ذات يده أو نحو ذلك، وهذا من نكران نعم الله عليه، روي أن أبا بكر زار رجلاً فسأله عن حاله فبدأ يشتكي من كذا وكذا، فغضب أبو بكر وقال: «أتشكو الخالق للمخلوق».

وروي «أن بعضهم شكا فقره وسوء حاله إلى بعض أرباب البصيرة، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مقطوع

(١) عدة الصابرين ٩٨.

اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً»[1].

ومن شكر النعم شكرها بالجوارح، بأن تصرف في طاعة الله وتبذل فيما يرضيه، وأن تكون عوناً على تحقيق مرضاته ونيل رحمته، لا أن تكون هذه النعم سبيلاً إلى الشر والفجور والمعاصي والسيئات، قال رجل لأبي حازم: «ما شكر العينين؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال: فما شكر اليدين ؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفلُه طعاماً وأعلاه علماً»[2].

فمن كفران هذه النعم استعمالُها وتسخيرها في المعاصي والذنوب، ولذلك قال مخلد بن حسين: «الشكر تركُ المعاصي»[3]، وقال أبو حازم: «كلُّ نعمة لا تقرب من الله فهي بلية»[4].

وكان ابن القيم يقول: «ما أحمقك يا ابن آدم تعصي الله بنعمه»[5] وهذا حق، فإن الفقير المعدم لا يستطيع أن يسخر ماله ويصرفه فيما يغضب الله، إنما

(١) عدة الصابرين ١٠٧.
(٢) عدة الصابرين ١١٠.
(٣) عدة الصابرين ١٠٤.
(٤) عدة الصابرين ١٠٤.
(٥) عدة الصابرين ١٠٨.

يستطيع ذلك من أنعم الله عليه بنعمة المال، وكذا الأعمى لا يستطيع أن يرى ما حرم الله، إنما يفعل ذلك من أنعم الله عليه بنعمة البصر ونحو ذلك.

والمؤمن العاقل لا يغتر بتتابع نعم الله عليه، فقد تكون استدراجاً، وقد تكون طيباته عجلت له في الدنيا، قال سفيان في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]: «يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر»، وقال غيره: «كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة»[١]، وروى الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله عز وجل** ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقد رد الله سبحانه على من يظن أن من ابتلي بالضراء يكون مهاناً وضيعاً، ومن أُغدقت عليه النعم يكون قريباً عزيزاً، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ – ١٧]، أي: ليس كلُ من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كلُ من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء.

ومما روي عن السلف في هذا المعنى: «رب مستدرج بنعم الله عليه وهو

---

(١) عدة الصابرين ١٠٨.

لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم»[١].

لذا فقد اعتنى سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى بهذا المقام العظيم مقام الشكر، وحرصوا على تحقيقه والقيام به، مع اعترافهم على أنفسهم بالتقصير وعدم الوفاء، قال علي ﷺ: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٢]، وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت؟ قال: «أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون»[٣]، وكان الفضيل بن عياض يقول: «عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم»[٤].

ولا أبلغ من كلام الله القائل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢].

ومن شكر النعم الازديادُ من الطاعات والإكثار من نوافل القربات، وخيرُ من حقق هذا المقام نبينا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام، ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه من طول القيام،

---

(١) الجواب الكافي ٢٢.

(٢) عدة الصابرين ٩٨.

(٣) عدة الصابرين ١٠١.

(٤) أصله في مسند أبي يعلى ٦/ ١٣١.

فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

فمسارعة العبد في مراضي الله عز وجل ومسابقتُه في ميادين الصالحات دليلٌ على محبته تلك الأعمال ورعايةٌ للنعم التي أفاء الله بها عليه، مما لا يعده ولا يحصيه إلا الله عز وجل ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣]، يقول طلق بن حبيب: «إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»[1].

وقال مجاهد رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النحل: ٨٣] أي: «يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمة، وينكرونها بقولهم: إنهم ورثوها عن آبائهم، أو اكتسبوها بأفعالهم»[2]، ومن ذلك نسبةُ حصول النعم إلى الخلق وبأسبابهم، والواجب إسداؤها إلى من أنعم بها والاعترافُ من القلب بأنها منه، فهو المنعم المتفضل، وهذا أول الشكر.



(١) جامع البيان ١٣/ ٢٢٧، الدر المنثور ٥/ ٤٤.

(٢) فتح المجيد ٤٢٠.

الفصل الرابع

القيام بطاعة الله تعالى والدعوة إلى دينه

المبحث الأول: عبادة الله تعالى وفعل الخير

خلق الله تعالى الخلق ليوحدوه ويعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، ولهذا كان الأمر بتحقيق العبودية والقيام بها أول أمر بعد أول نداء في القرآن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١] ومعلوم أن أساس العبادة تحقيق التوحيد لله رب العالمين وإخلاص العبادة له، والحذر من الشرك صغيره وكبيره.

وقد جاء الأمر بالعبادة مقرونة بغيرها كي يتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة لمن أتى بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧]، وقد أبان بعض المفسرين وجه الجمع بين هذه الأمور الأربعة في الآية وما رتب عليها من الفلاح فقال: «ذكر الله تعالى أموراً، الأول: الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود، الثاني: قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وذكروا فيه وجوهاً، أحدها: اعبدوه ولا تعبدوا غيره، وثانيها: واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات، وثالثها: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة، لأنه لا يكفي أن يفعل، فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب.

الثالث: قوله تعالى ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق»، والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة، والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود، الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسنُ القول للناس، فكأنه سبحانه قال: كلفتكم بالصلاة، بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات، أما قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فقيل معناه لتفلحوا، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة،.. ولعل كلمة للترجية، فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير، وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى، والعواقب أيضاً مستورة»(١).

وعند هذه الآية ذكر السيوطي السر في إيثار الفعل في قوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ على: واعملوا الخير، حيث قال: «ومن ذلك عمل وفعل، فالأول لما كان من امتداد الزمان نحو ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾، ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ لأن خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد، والثاني - أي فعل - بخلافه، نحو ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [الفيل: ١] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، وقوله: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء، وقوله: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، أي في طرفة

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٧٢.

عين، ولهذا عبر بالأول في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، حيث كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة، وبالثاني في قوله ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] حيث كان بمعنى سارعوا، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] حيث كان القصد يأتون بها على سرعة من غير توانٍ»[1].

والذي يظهر من كلام المفسرين عند هذه الآية أن المراد بالعبادة الإتيان بالأوامر وفعل الطاعات الواجبة، أساس ذلك تحقيق التوحيد والحذر من الشرك، أما قوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ فالمراد به ما زاد على ذلك من أنواع البر والإحسان، وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق، قال الثعالبي: «هذه الآية الكريمة عامة في أنواع الخيرات، ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله ومواساةُ الفقراء وأهل الحاجة، وقد روى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**»[2].

إن العبودية لله عز وجل شرف وعزة للعبد، حيث لم يكن عبداً لغير الله عز وجل، ولهذا جاء هذا الوصف للرسول ﷺ في أشرف المواضع، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) الإتقان ١/ ٥٧١.

(٢) تفسير الثعالبي ٣/ ٨٩.

﴿ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقد أحسن القائل:

ومما زادني شرفاً وتيهاً ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيا

والعبادة بمفهومها العام كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(١)، وقال أيضاً: «العبادة غاية الحب مع غاية الذل»(٢)، وقد نظم هذا المعنى ابن القيم بقوله:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة سائر ... ما قام حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

وقد أبان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حاجة العبد إلى ربه وافتقاره إليه فقال: «والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين، من جهة العبادة.. ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ، ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحده، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٩.
(٢) مجموع الفتاوى ١٦/ ٢٩٦.

يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم تحصل له عبادة الله فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غايةُ مراده ونهايةُ مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكلُ ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا لله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرقها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم، وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم، أتمُهم عبودية لله من هذا الوجه»[1].

والعبادة بمفهومها الواسع تشمل كل ما جاء به الدين الحنيف، الذي رسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة، وحدد سلوكه وعلاقاته، ونظم شؤون تعاملاته مع الأقارب والأباعد وغيرهم، وإن كان بعض الناس لجهلهم وقصور علمهم يخصون العبادة بالصلاة والصيام والحج وتلاوة

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٩٣.

القرآن والذكر ونحو ذلك، ويظنون أنهم إذا أوفوا هذه الشعائر حقها أنهم أتوا بالعبادة على التمام والكمال مع إهمالهم أمور العبادة الأخرى في المعاملات والأخلاق والكسب ونحو ذلك، فعلى هذا دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان وجعلها غايته في الدنيا ومهمته في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] دائرةٌ رحبة واسعة، تشمل شؤونه كلها وتستوعب حياته جميعاً.

إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده أن يُخضع أموره كلها لما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الاعتقادات والأقوال والأعمال، وأن يكيف حياته وسلوكه وفقاً لهدي القرآن والسنة، يأتمر بأوامر الله عز وجل وينتهي عما نهاه عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ويقول عبدالله بن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤] فأرعها سمعك، فإما خير يأمر به أو شر ينهى عنه»[1]، ولما جاء أحدهم بابنه إلى أبي الدرداء رضي الله عنه قال له: «إن ابني هذا قد جمع القرآن - أي قرأه وحفظه- قال: اللهم غفراً، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع»[2].

فمقتضى العبودية لله عز وجل أن يخرج العبد من الخضوع لهواه وشهواته إلى الخضوع والانقياد والاستسلام لشرع مولاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ٣١، حلية الأولياء ١/ ١٣٠.
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ٦٢، المرشد الوجيز ١٩٤.

لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، بل لا يجوز له أن يتردد في القبول أو يعترض على الحكم، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

والإسلام بشريعته الغراء وأحكامه السمحة قد فسح مجال العبادة ووسع دائرتها، فكل عمل نافع خاص أو عام، قصد به صاحبه وجه الله عز وجل لا تصيد الثناء واكتساب السمعة مأجور مثاب عليه، بفضل من الله وإحسانه، فباستطاعة العبد أن يضيف إلى صحائف حسناته الشيء الكثير، له ثقله وتقديره، من الأقوال والأعمال المتنوعة، وقد جاءت بذلك النصوص من الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤]، وروى أبو داود والترمذي عنه ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»، وفي رواية: «**لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**».

وروى الترمذي وابن ماجه عنه ﷺ قال: «**من عاد مريضاً ناداه منادٍ من السماء: طبت وطاب ممشاك وتبوأت في الجنة منزلاً**»، وروى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخّره**

فشكر الله له فغفر له»، بل الأمر أعم من هذا كله حيث جمع الحديث الآتي خصالاً متنوعة من خصال الخير وأعمال البر وكلها داخلة تحت مفهوم العبادة الشامل، فقد روى البخاري ومسلم عنه ﷺ قال: «**كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**».

والأعمال الدنيوية التي يقوم بها العبد تدخل في مفهوم العبادة الشامل، فيؤجر عليها بشروط ذكرها أهل العلم وهي:

١- أن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام، أما الأعمال التي ينكرها الدين وتدخل تحت المحرمات التي نهى عنها وحذر منها، فلا تجوز ولا تحل.

٢- أن تصحبه نية صالحة، بإعفاف نفسه وإغناء أسرته ونفع أمته، وإشغال وقته بما يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع.

٣- أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان، ويجتهد في ذلك ما استطاع بما تبرأ به ذمته، ففي صحيح مسلم يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**»، وعند البيهقي وأبي يعلى قال ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**».

٤- أن يلتزم فيه حدود الله، فلا يظلم ولا يخون، ولا يغش ولا يجور على حق غيره.

٥- ألا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية التي كلف بها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ووصف جلَّ وعلا عباده المؤمنين الذين عمروا بيوته بالذكر والصلاة وأنواع الطاعات فقال: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

إن المسلم في تحقيق العبادة لله عز وجل لا يتناقض في حياته ولا يخالف ظاهره باطنه وفعله قوله، فليس هو ممن يعبد الله في المسجد ويخافه ويخشاه فإذا خرج كان من عبدة الدينار والدرهم، فالحلال ما حل بيده من أي طريق كان، ليس هو ممن يهمل الفرائض ويقصر في الواجب فإذا كان يوم في الأسبوع أو ليالٍ في العام أقبل على الطاعة ولزم الصلاة، فإذا انقضى ذلك الزمان عاد إلى لهوه وفجوره وتهاونه بأوامر الله وفرائضه.

ليس هو ممن يجيد تنميق الخطب وارتجال الكلمات أمام الناس، ثم هو يخالف فعله قوله، ويتنكب ما أرشد إليه وحث الناس عليه، إلى آخر ذلك من الصور التي نراها ونعيشها كل يوم، بل حاله صدق والتزام، كما قال تعالى ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

المبحث الثاني: السمع والطاعة واتباع القرآن

أنزل الله عز وجل كتابه القرآن الكريم فضلاً ورحمة ومنةً منه على خلقه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ – ٥٨]، وقد تكفل الله لمن تمسك به واعتصم به الهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ – ١٠]، وقال تعالى مبيناً حال المؤمنين الصادقين مع كتابه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام ، الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، وقال قتادة في هذه الآية: «ذكر لنا أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أميه: ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى، قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا

تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله»، وقال قتادة أيضاً: «ذكر لنا أن أبا الدرداء ﷺ قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة».

والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان»[1].

والآيات والأحاديث الآمرة بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ كثيرة، تارة بلفظ السمع والطاعة كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢١]، وتارة بلفظ الاستجابة، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤] الآية.

وأبان جل وعلا جزاء من سمع له وأطاع وثوابه، وهو سبحانه الغني عن عباده، لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، فالمطيع مع أفضل الخلق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩]، المطيع لله ولرسوله ﷺ هو

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٩٨.

الفائز حقاً حين يعظم الغبن بين الخلائق وتشتد عليهم أهوال يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وأهل السمع والطاعة أقرب الخلق إلى رحمة الله عز وجل، يقول تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال عز وجل ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، وهم المحظوظون بجنات النعيم جزاءً وفاقاً، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

المؤمن الصادق من يسمع لله ويطيعه قولاً وعملاً، في الظاهر والباطن، والغيب والشهادة، وهذا حال الخُلَّص من عباد الله، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أما من أعرض وعاند، واستكبر وتجبر فسيلقى عاقبة من عصاه وفرط في حقه، حكى الله حال أهل النار من الكفرة بقوله: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**».

إن المؤمن ينظر في حاله وموقفه مع نصوص الكتاب والسنة، أهو ممن يسمع سماع متفهم قابل للحق ويتبع ذلك العمل بلا تردد ولا تلكؤ أم هو بخلاف ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يحاسب نفسه على ذلك فإن رأى تمسكاً واعتصاماً حمد الله أن وفقه لذلك وأعانه عليه، ثم ازداد من الخير والتزم ما كان عليه، وإن كانت الأخرى عاتب نفسه وألزمها صراط الله عز وجل، فالقرآن كما قال عليه الصلاة والسلام: «**حجة لك أو عليك**» رواه مسلم.

ولذلك كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «إن أخشى ما أخشاه يوم القيامة، أن يقال لي يا عويمر، أعلمت أم جهلت؟ فأقول: بل علمت، فلا تزال كل آية آخذة بفريضتها الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة هل ازدجرت، والناهية هل انتهيت»[١]، ولما جاءه رجل بابن له قد حفظ القرآن قائلاً: «يا أبا الدرداء إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال: اللهم اغفر، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع»[٢].

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٤.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ٦٢، المرشد الوجيز ١٩٤.

وقد ذكر الله عز وجل جملة من الحقوق الواجبة على الأمة تجاه نبيها وقدوتها محمد عليه أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم، ورتب على ذلك الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالأمر الأول الإيمانُ به، بشهادة أنه رسول الله، ومعناها: تصديقه فيما أخبر وطاعتُه فيما أمر واجتنابُ ما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع، والثاني: تعزيره بمعنى توقيره واحترامه وإجلاله في مرتبته اللائقة به، فلا يرفع إلى منزلة الله عز وجل فيدعى من دونه أو يعطى من خصائص الله عز وجل، فهو بشر لا يُعبد ورسول لا يُكذب، والثالث، نصرته والذب عن سنته والدعوةُ إلى دينه والدفاعُ عنه، وهذه الأمور الثلاثة تحدثت عنها فيما سبق.

وبقي الأمر الرابع، وهو اتباعُ النور الذي أنزل معه وهو القرآن الكريم، عملاً به وسيراً على نهجه وتحاكماً إليه، كما قال تعالى في وصف حال عباده المؤمنين الصادقين المفلحين ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وأمر بالاستجابة له فقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] الآية، وحذر من مخالفته والإعراض عنه فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبالعمل به فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾

[البقرة: ١٢١] قال المفسرون: أي: يتبعونه حق اتباعه، بفعل الأوامر واجتناب النواهي، يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بها تضمنه، روي هذا عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم، قال عكرمة: «أما سمعت الله يقول: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢] أي تبعها»[1].

ومما روي عن السلف في الحث على اتباعه ووجوب العمل والتمسك به قول سفيان الثوري: «سمعنا أن قراءة القرآن أفضلُ الذكر إذا عُمل به»[2]، وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: «ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف ولكن بإقامة حدوده»[3]، وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «إن هذا القرآن كائن لكم ذكراً وكائن لكم أجراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يُزَخ في قفاه حتى يقذفه في نار جهنم»، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»، وعن الحسن البصري قال: «إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه» ورأى حذيفة ﷺ كثرةً من الناس فقال يا عامر بن مطر إذا أخذ الناس طريقاً والقرآن طريقاً مع أيهما تكون؟ قال: أكون مع القرآن، أموت معه وأحيا معه، قال: فأنت إذاً أنت، فأنت إذاً أنت، وعن الشعبي في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ

---

(١) ينظر: جامع البيان ٢/ ٥٦٨، أخلاق حملة القرآن ٥٠، فضائل القرآن لأبي عبيد ٦١.

(٢) الاستذكار ٥٥.

(٣) التذكرة ٧١١.

﴿ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، «أما إنه كان بين أيديهم، ولكن نبذوا العمل به»(١).

ومما يستدل به على محاسبة العبد نفسه على العمل بالقرآن واتباعه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فالضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائد للقرآن، فهو رفعة لمن تمسك به وعزة، وعليه يكون السؤال والحساب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» الحديث رواه مسلم، وعلى هذا ربى الصحابة رضي الله عنهم تلاميذهم ومجالسيهم من التابعين، وساروا بهم على هذا المنهج، يقول أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم، أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»(٢).

إن اتباع العمل والعمل به سببٌ مبارك من أسباب رحمة الله عبده وتفضلهَ وإحسانه عليه، يقول تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، كما أنه سبب مبارك في تقدمهم على غيرهم يوم القيامة وكرامتهم عند الله عز وجل، فعن النواس بن سمعان ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون**

---

(١) ينظر لما سبق: التذكار ٥٥-٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣١.

به، **تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**» رواه مسلم.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضمني رسول الله ﷺ وقال: «**اللهم علمه الحكمة**» رواه البخاري، قال الحافظ ابن حجر: «المراد بالحكمة هنا قيل القرآن، وقيل العملُ به»[1] يقول الإمام القرطبي: «فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حُمل أعباءَ الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل»[2].

ومن الاستجابة للقرآن واتباعِهِ الإذعانُ والقبول لأمره ولو خالف هوى النفس ومرادها، قال السدي في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢] الآية، «**إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله، كف ووجِل قلبُه**»[3].

فمن خالف القرآن وأعرض عنه ولم يأبه بأوامره ونواهيه، فتعدى حدوده وفرط في حقوقه، عد هاجراً له وإن كان يتلوه كما ذكر ذلك الإمام ابن القيم في أنواع هجر القرآن بقوله: «هجرُ العمل به والوقوف عند حلاله

---

(١) فتح الباري ١/ ١٧٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٢١.

وحرامه ، وإن قرأه وآمن به»[١]، ولهذا روي عن الحسن البصري قوله: «نـزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً، وتدبرُ آياته اتباعُه والعمل بـه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقـول: لقـد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كلـه، مـا يُـرى لـه القرآن في خلق ولا عمل، ومن أحب أن يعلم مـا هـو فليعـرض نفـسه عـلى القرآن، وإن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل مـن ربهـم فكـانوا يتـدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»[٢]، وعن سفيان رحمه الله تعالى قال: «ليس في كتاب الله آيةٌ أشد علي من قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية، وإقامتها: فهمهـا والعمل بها»[٣]، يقول الإمام القرطبي: «مـن أوتي علـم القـرآن فلـم ينتفـع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من الإثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً، كان القرآن حجة عليه وخصماً لديه»[٤].

المبحث الثالث: ابتغاء الوسيلة

أمر جل وعلا عباده بالتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه بطاعتـه والعمـل بما يرضيه، والتحبب إليه بجميع النوافل والقربات وأنواع الـبر والإحـسان،

---

(١) الفوائد ٨٢.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٢٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة ٤/ ١٦٨٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧.

فإن هم فعلوا ذلك أفلحوا وفازوا في الدنيا والآخرة، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقد جاء في معنى الوسيلة هنا أقوال مروية عن المفسرين، فقيل الوسيلة بمعنى القربة والحاجة، أي تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه، وفي أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرني عن قوله ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم: أما سمعت عنترة يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة   إن يأخذوكِ تكحلي وتخضبي»

وهو مروي عن مجاهد وقتادة والحسن وأبي وائل شقيق بن سلمة والسدي وغير واحد، ويدل له قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧][1].

وتأتي الوسيلة أيضاً بمعنى أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلته عليه الصلاة والسلام، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»** وفي صحيح مسلم من حديث

---

(١) ينظر: جامع البيان ٤/ ٥٦٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٧٣.

عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**».

وتأتي الوسيلة أيضاً بمعنى المحبة، روي هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أي تحببوا إلى الله بطاعته وامتثال أوامره والحذر من معاصيه[١].

وهنا توسع أقوام في مسألة الوسيلة بلا دليل ولا برهان، فأجازوا الاستغاثة بالصالحين ودعاء الميتين من دون الله عز وجل، وهذا من الشرك بالله عز وجل، قال الإمام الألوسي: «واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم، بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله تعالى الصالحين، يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من ابتغاء الوسيلة، ويروون عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور، أو فاستغيثوا بأهل القبور**» وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل»[٢].

قلت: بل ما ذكروه أحاديث موضوعة على النبي ﷺ وحكايات مختلقة وقصص واهية عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا

---

(١) ينظر: جامع البيان ٤/ ٥٦٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٧٣.

(٢) روح المعاني ٦/ ١٢٤.

تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦ – ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وروى الطبراني بإسناده: «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله**».

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: **يا معشر قريش – أو كلمة نحوها– اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليُعبد وحده لا شريك له، ولا يدعى معه إله

آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يُدعى أحدٌ من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة»، وقال أيضاً «من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً»[١].

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن أنواعه -أي الشرك- طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده»[٢]، وقال بعض أهل العلم: «وقد ظهر فيما بين المسلمين جماعة يدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وهذا بلا شك فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق»[٣].

---

(١) فتح المجيد ١٧٢.

(٢) فتح المجيد ١٧٣.

(٣) فتح المجيد ١٧٣.

ومع كثرة الأدلة ووضوحها الدالة على التحذير من هذه الأمور وأنها الشرك بعينه وبيان بطلان ذلك إلا أن الغلاة في أصحاب القبور من الأنبياء والأولياء والصالحين لا يزالون متعلقين بهم، يرجون النفع منهم ويعتقدون ذلك فيهم، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

إن التوسل إلى الله عز وجل لا يكون إلا حسب ما دل عليه الكتاب والسنة، فالتوسل المشروع ثلاثة أنواع، أحدها: التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو صفة من صفاته العليا، ودليل مشروعيته قوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والمعنى: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى من دعاء سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»، رواه النسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول في تشهده: «اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال عليه الصلاة والسلام: **قد غفر له، قد غفر له**» رواه أبو داود والنسائي وأحمد، وسمع النبي ﷺ رجلاً آخر يقول في تشهده: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان

يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : **تدرون بم دعا؟** قالوا : الله ورسوله أعلم، فقال: **والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**» رواه أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح.

وروى أحمد والحاكم بسند صحيح عنه ﷺ أنه قال: «**من كثر همه فليقل: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ الله هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا**»، وروى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**».

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي ليكون أرجى لقبوله وإجابته، ويدل على مشروعيته قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ومما يدل عليه قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانحدرت

عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فكلٌ توسل إلى الله تعالى بأرجى عمل عمله فيما سبق، فأحدهم توسل إلى الله ببره بوالديه، والآخر توسل إلى الله عز وجل بعفته عن الزنا مع ابنة عمه مع قدرته عليه وتمكنه منه، والثالث توسل إلى الله تعالى بإعطائه الأجير حقه مع رعايته وتنميته له ولم يأخذ على ذلك أجراً ، فانفرجت الصخرة شيئاً فشيئاً حتى خرجوا يمشون ، وهي بطولها مخرجة في الصحيحين.

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء رجل صالح في حياته، كأن يقع المسلم في ضيق وشدة أو تحل به مصيبة ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تعالى، فيذهب إلى رجل حي يرى فيه العلم والصلاح فيطلب منه أن يدعو له، وقد دل على مشروعيته السنة وفعل السلف، فمن ذلك قصة الأعرابي الذي جاء والنبي ﷺ يخطب الجمعة فشكا إليه الجدب والقحط وطلب منه الدعاء فدعا لهم النبي ﷺ فسقوا بفضل الله ورحمته إلى آخر الحديث، رواه البخاري ومسلم، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فيقول: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون» رواه البخاري.

ومعنى قول عمر: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، أننا كنا نقصد نبينا ﷺ في حياته ونطلب منه أن يدعو لنا، ونتقرب إليك ربنا بدعائه، والآن وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يعد من الممكن أن يدعو

لنا، فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس، ونطلب منه أن يدعو لنا، ليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم بجاه نبيك اسقنا، ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته عليه الصلاة والسلام «اللهم بجاه العباس اسقنا»، لأن هذا الكلام مبتدع ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، ولم يفعله أحد من السلف رحمهم الله تعالى.

ومثل هذا ما رواه ابن عساكر بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس، فقال ليزيد بن الأسود: «قم يا بكَّاء، فما دعا إلا ثلاثاً حتى أمطروا مطراً كادوا يغرقون منه»، ونحوه رواه عن سليم بن عامر قال: «قحطت السماء فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهلُ دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال أين يزيد بن الأسود؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية فصعد على المنبر، فقعد عند رجليه ثم قال: يا يزيد ارفع يديك إلى الله فرفع يديه - أي بالدعاء- ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت لها ريح، فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم»[1].

فهذه هي التوسلات المشروعة بالكتاب والسنة وما عداها فباطل لا يصح، وقد أنكرها العلماء، فالمؤمن الحريص على قبول دعائه يلزم ما دل عليه الكتاب والسنة، ويحذر كل الحذر مما يخالفهما أو أن يقع فيما نهينا عنه من الشرك والبدع.

لقد ذكرت فيما سبق أن من معاني الوسيلة المحبة، أي طلب محبة الله عز

(١) الطبقات الكبرى ٧/ ٤٤٤.

وجل بطاعته وامتثال أمره، وهو مروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

فالمؤمن الحريص على النجاة من عذاب الله والظفر بفضل الله عز وجل ورحمته مجدٌ مجتهد في البحث عن الأسباب الجالبة لمحبته جل وعلا لعبده، ليحققها ويجتهد في تحصيلها، وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عشرة أسباب جالبة للمحبة موجبةٍ لها وهي:

أولاً: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال، باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتُها ومعرفتها، وتقلبُه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الظاهرة والباطنة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسارُ القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غيرُ الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوفُ بالقلب والتأدبُ بأدب العبودية بين يديه، ثم ختمُ ذلك بالتوبة والاستغفار.

التاسع: مجالسةُ المحبين الصادقين، والتقاطُ أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدةُ كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة[1].

هذه الأسباب العشرة وغيرها توصل العبد إلى محبة الله عز وجل ونيل رضاه عنه، لكن مع بذل الجهد والحرص على الإتيان بها وتحقيقها، مستعيناً بالله عز وجل متضرعاً إليه بالدعاء أن يوفقه لذلك، وقد ثبت في الصحيح من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الصالح الذي يبلغني حبك**».

إن المحبة أمرها عظيم وشأنها كبير يقول عنها ابن القيم «هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاءُ الأرواح وقرةُ العيون، وهي الحياة التي مَنْ حرمها فهو من جملة

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

الأموات، والنورُ الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاءُ الذي من عدمه حلت بقلبه جميعُ الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشُه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفرُ نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة»[1].

وقد ذكر بعض السلف أن قوماً ادعوا محبة الله سبحانه، فأنزل الله تعالى آية المحنة، وهي قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فدليل صدق المحبة وثمرتها وعلامتُها اتباعُ الرسول ﷺ فيما أمر به، وأعظمه تحقيق التوحيد لله رب العالمين والحذر من الشرك صغيره وكبيره، ثم الإتيان بالفرائض وأعظمها الصلاة وما بعدها والبعد عن المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

كما حذر جل وعلا من تقديم أي أمر على ما يحبه ويرضاه ولو كان أقرب شيء إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] فقد أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ

(١) مدارج السالكين ٣/ ٦.

أن يتوعد من قدم هذه المحبوبات الثمانية الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والمال والتجارة والمساكن وغيرها من باب أولى على ما يحبه الله ويرضاه، فلا يأتمر بأوامر الله ويتهاون بأداء فرائضه ويتكاسل في القيام بحقوقه، وتكون هذه المحبوبات إلى النفس مدعاة إلى الوقوع فيما حرم الله وانتهاك حرماته وتجاوز حدوده، فمن فعل ذلك فقد خاب وخسر، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى «أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه، وقد روى أحمد وأبو داود -واللفظ له- من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**»[(١)].

وجاء في السنة بيان وجوب تقديم محبة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وأثر ذلك في الإيمان، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» وفيهما أيضاً عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**» وروى الحافظ ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٥١.

قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً».

المبحث الرابع: ذكر الله تعالى

إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وتحتاج إلى الري كالأرض، ولن يكون لها جَلاءُ ما بها وريها إلا بالإكثار من ذكر الله عز وجل، رحمة بالمؤمنين وحثاً لهم على هذا الزاد السهل الميسّر على من يسره الله عليه، فمن الأمر به قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] ويقول جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]، وحذر من الإعراض عنه وتقديم غيره عليه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[المنافقون: ٩]، وفي وصف عباد الله المؤمنين الذين يعمرون مساجد الله قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[النور: ٣٧] بل إن الذكر أفضل العبادات وأجل الطاعات، يقول عز وجل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت: ٤٥]، ومن ثواب أهله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي السنة الكثير مما يدل على فضل الذكر والترغيب فيه وبيان ثواب أهله وثماره في الدنيا والآخرة، ففي الحديث القدسي الذي رواه البخاري ومسلم عنه ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»، وفي البخاري عنه ﷺ قال: «**مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره مثل الحي والميت**»، وفي الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «**سبق المفردون، قيل: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»، ولما قال له رجل: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

المسلم الصادق لا ينقطع عن ذكر ربه ولا يفتر لسانه عن ذلك ، فليس الذكر ساعة مناجاة محدودة في صباح أو مساء، أو في المسجد أو في مجالس الذكر، بل في حياة المسلم كلها، في دائرة عريضة لا تحد مجالاتها من القول والعمل، فالذاكر الحي يراقب ربه في كل حال وحيثما كان، لا أن تستقيم حاله حال الذكر وفي مجالسه فإذا تركها عبث كيفما شاء، دون خوف أو رادع من الله سبحانه، وفي هذا يقول سعيد بن جبير«**كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله تعالى**»[١]، ويقول عطاء: «مجالس الذكر: الصلاة والصيام والحج، ومجالس الحلال والحرام: البيع والشراء والنكاح والطلاق»[٢]، فالمؤمن لا يهنأ بالعيش

(١) الأذكار ٢١.

(٢) الأذكار ٢١.

ولا يتذوق طعم الراحة والسعادة إلا بمحبة الله عز وجل والطمأنينة بـذكره، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد جاء الحديث عن ذكر الله عز وجل في القـرآن الكـريم باعتبـار أنـه أساس عظيم من أسس الفلاح والنجاح، والفوز والظفر بكل خير عاجل أو آجل، جاء هذا في موضعين من القرآن الكريم، قال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفـــال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فالموضع الأول فيه الأمر للمجاهدين في سبيل الله عز وجل أن يثبتوا في مواضع القتال أمـام الأعـداء، واثقـين بنـصر الله يطلبـون إحـدى الحسنيين الشهادة أو النصر، ثم أرشدهم إلى سبب عظيم من أسـباب النـصر ألا وهـو كثرة ذكر الله عز وجـل، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقد نقل القرطبي عن العلماء في المراد بالذكر هنا ثلاثة أقوال:

«الأول: أي اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعـين عـلى الثبـات في الشدائد.

الثاني: أي اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عنـد اللقاء ويضطرب اللسان، فأمروا بالذكر حتى يثبت القلب على اليقـين، ويثبـت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقـرة: ٢٥٠]، وهـذه

الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم.

ثم قال القرطبي: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان، قال محمد بن كعب القرظي «لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، ولرخص للرجل في الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال قتادة: افترض الله جل وعز ذكره على عباده أشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيوف»[١].

ثم إن هذا الذكر يكون خفياً لأن رفع الصوت في مواطن القتال مكروه إذا كان الذاكر واحداً، فأما إذا كان من الجميع عند الحمل على العدو فإنه حسن، لأنه يفت في عضد العدو ويرهبهم ويلقي الرعب في قلوبهم حتى يكون لهم النصر عليهم بإذن الله عز وجل.

وقد روى عبدالرزاق عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن جنحوا وصاحوا فعليكم بالصمت**»، وفي بيان أهمية الذكر وأنه أحب الأعمال إلى الله عز وجل، روى ابن كثير عن كعب الأحبار

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٣.

قال: «ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ثم قال الحافظ ابن كثير: «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم»[١].

أما الموضع الآخر الذي جاء الأمر فيه بذكر الله عز وجل مقروناً بالوعد بالفلاح، فبعد الفراغ من صلاة الجمعة، يقول تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، قال الإمام القرطبي: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي: بالطاعة واللسان وبالشكر على ما به أنعم عليكم، من التوفيق لأداء الفرائض ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي كي تفلحوا، قال سعيد بن جبير: «الذكر طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كان كثير التسبيح»، وكان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين» رواه ابن أبي حاتم.

وقد روي عن ابن عباس في تفسير الآية قوله: «لم يؤمروا بشيء من طلب

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٧.

الدنيا، إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة، وزيارة أخٍ في الله»[1]، ولا يخفى أن المراد من الأمر بذكر الله عز وجل بعد الفراغ من الصلاة والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله أن يكون المؤمن على صلة دائمة بذكر الله عز وجل لا يفتر عنه.

وفي مقابل الترغيب في الإكثار من ذكر الله عز وجل فقد حذر سبحانه من الغفلة والإعراض عن ذكره وأبان أثر ذلك، عيشةً سيئةً في الدنيا ونكداً وهماً وغماً، وفي الآخرة عذاب شديدٌ وخزي وضلال، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات ، وفي الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي وابن ماجه واللفظ له يقول عليه الصلاة والسلام: **«من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»**.

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه الوابلِ الصيب للذكر مائة فائدة ، وذلك عند شرحه قول النبي ﷺ في حديثه الطويل: **«وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثلَ ذلك مثلُ رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»**، رواه أحمد والترمذي، ثم قال رحمه الله تعالى: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩٦.

تعالى، وألا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع»[١] أهـ.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس»[٢]، وعن أبي الدرداء ﷺ قال «لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل»[٣].

ومن فوائد الذكر التي ذكرها ابن القيم أنه يرضي الرحمن ويطرد الشيطان، وأنه يزيل الهم والغم من القلب ويضفي عليه الراحة والطمأنينة كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ومنها أنه ينور الوجه والقلب ويجلب الرزق، ومنها أنه يورث محبة الله عز وجل التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين، كما أنه يورث مراقبة الله عز وجل والإنابة إليه سبحانه والقرب منه.

ومنها أنه يورثه ذكر الله عز وجل له، كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وفي الصحيحين عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**» ومن فوائد الذكر أنه يورث حياة القلب، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

---

(١) الوابل الصيب ٥٦.

(٢) الوابل الصيب ٥٦.

(٣) الوابل الصيب ٥٦.

تعالى يقول: «الذكر للقلب مثلُ الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء»، يقول ابن القيم: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ هذا الغداء لسقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا، وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وراحتها، لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه».

ومن فوائد الذكر أنه يحط الخطايا ويذهب السيئات، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات، ومنها أنه سبب تنزل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، كما أخبر به النبي ﷺ، ومنها أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة واللغو مجالس الشيطان، والمؤمن العاقل يتخير أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة، ومنها أن ذكر الله عز وجل يؤمِّن العبد من الحسرة يوم القيامة، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان حسرة عليه وشرة وندامة يوم القيامة.

ومن فوائد الذكر أنه مع البكاء في الخلوة سببٌ لإظلال الله عبده في ظله يوم لا ظل إلا ظله يوم الحر الأكبر، والناس قد صهرتهم الشمس وصلتهم بحرها في ذلك الموقف، فقد عده عليه الصلاة والسلام من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وفيه «ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[(١)].

---

(١) ينظر لما سبق: الوابل الصيب ٥٦ وما بعدها.

إن الذكر من العبادات اليسيرة التي لا تكلف صاحبها عناء ولا مشقة، ولكن من يسرها الله عليه، يشغل به المؤمن وقته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولن يتم له ذلك إلا بتوفيق وهداية من الله سبحانه ثم بمجاهدة النفس على ذلك والحرص على استثمار الوقت به، وطلب الفضل المرتب عليه وهو عظيم كثير.

من ذلك سيد الاستغفار، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» رواه البخاري.

ومما ينبغي أن يكثر منه العبد في يومه أن يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» مائة مرة، فإن من قالها كذلك كتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة خطيئة ولم يقربه الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بعمل أفضل من عمله إلاَّ من عمل أكثر من عمله، ومنه أيضاً أن يقول: «**سبحان الله وبحمده**» مائة مرة، فإن من قالها كذلك غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنه أيضاً ما ثبت في الحديث الصحيح وقد ختم به

البخاري صحيحه عنه ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

المبحث الخامس: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

جاء بيان بعض أسس الفلاح وركائزه في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فهذه أمور ثلاثة: **الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

قال الطبري رحمه الله تعالى: «يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يعني: إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ويقول: يأمرون الناس باتباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يعني: ينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارح، حتى ينقادوا لكم بالطاعة، وقوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: «المنجحون عند الله، الباقون في جناته ونعيمه»[1].

وقد أبان الألوسي رحمه الله تعالى سر الجمع بين هذه الأمور الثلاثة ووجه عطفِ بعضها على بعض بقوله: «والمراد من الدعاء إلى الخير الدعاءُ إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، فعطفُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه

(١) جامع البيان ٣/ ٣٨٥.

في قوله سبحانه: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، إيذاناً بمزيد فضلهما على سائر الخيرات، كذا قيل، قال ابن المنير: إن هذا ليس من تلك الباب، لأنه ذكر بعد العام جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهي، لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصهما بتميزهما عن بقية المتناولات، فالأولى أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ثم مفصلاً، وفي تثنية الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية»[1].

وفي بيان المعروف المأمور به والمنكر المنهي عنه في الآية، روى ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: «كل آية ذكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف فهو الإسلام، والنهي عن المنكر فهو عبادة الشيطان» فالأصل الأمر بتوحيد الله عز وجل ثم القيام بطاعته وأداء فرائضه والتزود من النوافل والقربات، ويأتي بعد النهي عن الشرك بجميع أنواعه وصوره بقية المعاصي والذنوب.

وفي الآية السابقة وقفات وتأملات، فقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ذكر القرطبي رحمه الله تعالى فيها قولين بقوله: «(ومن) في قوله ﴿مِّنكُمْ﴾ للتبعيض ومعناه: أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء، وقيل لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا كلكم كذلك، قلت: القول الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

---

(١) روح المعاني ٤/ ٢١.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، وليس كل الناس مكنوا»[١].

يوضح هذا قول الإمام أبي السعود رحمه الله تعالى «فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية، وأنها واجبة على الكل، لكن بحيث إذا أقامها البعض سقطت عن الباقين، ولو أخل بها الكل أثموا جميعاً، ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها، فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف، ويغلظ في مقام اللين ويلين في مقام الغلظة، وينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادي والإصرار، وقيل: (من) بيانيه كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] الآية»[٢].

وأيضاً فقوله (أمة) مشعر بأنهم قدوة لغيرهم، فإن من معاني هذه الكلمة القدوة في الخير، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] أي إماماً وقدوة في الخير، ولا غرو أن الداعين إلى الله عز وجل الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر هم أعلام الأمة وقدوتها، المقدمون فيهم لما قاموا به من أفضل الأعمال وأجل القرب من نفع الخلق ونصحهم وإرشادهم إلى الحق وتحذيرهم من الشر والهلاك.

أما اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فهو إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٦٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٦٧.

اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن عداهم، وفيه أيضاً معنى البعد للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الأخصاء بكمال الفلاح، والضمير ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه، وتعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. إما للعهد وإما للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه سُئل عن خير الناس، فقال: «**آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم**» رواه أحمد.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر تعيشوا بخير»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1]، وقال أيضاً: «من لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً نُكِّس وجعل أعلاه أسفله»[2].

إن الدعوة إلى الله عز وجل مهمة الأنبياء والرسل، يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٦٨.

(٢) الفتن للمروزي ٧٠.

يقول ابن القيم: «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم»[1]، وهي مهمة نبينا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام. جاء في ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. وهي أيضاً مهمة أتباعه المقتدين به، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدعوة إلى الله من أحسن صفات الناس قولاً كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ثم إن الداعي إلى الخير له مثل أجور من تبعه، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**».

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لعلي لما أعطاه الراية يوم خيبر: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيراً له من حمر النعم، وهي خيارها

(١) جلاء الأفهام ٤١٥.

وأشرفها عند أهلها، فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس»[١].

ودعوة الناس إلى الخير صدقة من الداعي عليهم ونفقة مما تعلمه وشرف بحمله من العلم الشرعي، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣]، قال الحسن البصري: «إن من أعظم النفقة نفقة العلم»[٢]، وقال الإمام القرطبي: «قال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: «مما علمناهم يعلمون»[٣]. ومما يحمل على دعوة الناس ونفعهم استمرارُ ثواب الداعي بعد موته، فهو صدقة جارية منه على نفسه، فقد روى البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[القيامة: ١٣]، عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «بما قدم قبل الموت من عمل صالح وسيء، وما أخر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها»[٤]، وروي أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] أنه قال: «ما قدمت من خير، وما أخرت من سنة استن بها من بعده، فله مثلُ أجر من اتبعه، أو سيئة فعليه مثلُ وزر من عمل بها»[٥] وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز عن ابن عباس ومحمد بن كعب قالا: «ما قدمت في حياتها، وما أخرت من سنته فعمل بها بعد موتها»[٦].

---

(١) مفتاح السعادة ٦٣.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٠.
(٤) معالم التنزيل ١/ ٢٨٢.
(٥) معالم التنزيل ٧/ ١٨٤.
(٦) المحرر الوجيز ١٦/ ٢٤٦.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلهما الأهمية البالغة في دين الإسلام، جاء الأمر بهما والحث عليهما وبيان وجوبهما، وأساليبهما وطرقهما، وثمار تطبيقهما في الدنيا والآخرة، والآثار السيئة الناتجة عن التهاون في القيام بهما، فلا غرو أن يكون القيام بهما من أسس الفلاح وركائزه في الدنيا والآخرة، وبهما تتحقق الخيرية لهذه الأمة، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠] الآية.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الحقوق الواجبة بين المؤمنين تجاه بعضهم، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] الآية، وهو أيضاً من النصيحة الواجبة، وقد قال عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة» رواه مسلم، وهو علامة صادقة على حب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» متفق عليه.

إن عاقبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حميدة مباركة، به تصلح الأحوال وتكثر البركات، ويصبح المجتمع المسلم خيّراً متآلفاً، مطمئناً مترابطاً، وتكون المعاصي فيه مستغربة مستنكرة، والواقع فيها ذليل لا يجاهر بها، وإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فشت المعاصي والمنكرات حتى يألفها الناس، فينشأ فيها الصغير ويهرمُ عليها الكبير، ويتهاون العباد في القيام بطاعة الله وأداء فرائضه، وقد أبان النبي ﷺ أثر ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المجتمع بضرب هذا المثل، تقريباً للمعنى وترسيخاً له

في ذهن السامع، عن النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**» رواه البخاري.

ومما يدل على أهمية هذا الواجب العظيم أنه من وصف نبينا ﷺ القائم به، قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالقائم بالأمر والمعروف والنهي عن المنكر قائم بما أرسل الله به رسله ومنهم قدوتنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، الذي حذرنا من التهاون بهذا الواجب العظيم في غير ما حديث، فعن حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**» رواه الترمذي وقال حديث حسن، وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**، ثم قرأ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا

يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٨٠] رواه أبو داود.

وقد أبان عليه الصلاة والسلام مراتب إنكار المنكر ولم يعذر أحداً ألا ينكره حسب طاقته، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، وعلى المؤمن والمؤمنة إذا رأيا منكراً ولم يستطيعا إنكاره أن يعتزلا مجلسه ومكانه ولا يحضراه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

المبحث السادس: الجهاد في سبيل الله تعالى

جاء الأمر بالجهاد في سبيل الله عز وجل مقروناً بالفلاح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وبين ثواب المفلحين الصادقين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فقال تعالى ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٨٨ – ٨٩].

كما جاء الأمر به والحثُ عليه وتبيين مكانته والتذكيرُ بفضلِ الشهداء في

سبيل الله عز وجل في القرآن الكريم، كما جاءت السنة المشرفةُ بالدعوة إليه والترغيب فيه وبيان فضله عند الله عز وجل، فلا غرو حينئذ أن يكون أساساً من أسس الفلاح وقواعده، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] الآية.

أما ما ثبت عن النبي ﷺ في الحث على الجهاد وبيان فضله فكثيرٌ مسطر في دواوين السنة، ففي الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»، ورويا أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خير من الدنيا وما فيها**»، وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يموت له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى**» رواه البخاري.

وقد ذكر أهل العلم أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو

إلى توحيد الله عز وجل ويحذر من الشرك سِلْماً لا يقابل العدوان بمثله، فلما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة شرع الله تعالى المرحلة الأولى من مراحل الجهاد، وهي التصدي لعدوان المعتدين ورد ظلمهم، وقد نزل في ذلك قولهُ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠] الآية. ثم شرع الله تعالى لنبيه جهاد المشركين وقتالهم ابتداء إذا اقتضى الأمرُ ذلك إلا في الأشهر الحرم، حيث نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، ثم شرع الله تعالى بعد ذلك القتال جهاداً في سبيله وإعلاءً لكلمته قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية.

إن الجهاد في الإسلام ما شرع إلا لحكم سامية ومعانٍ شريفة ومقاصد عظيمة، فليس هو عدواناً أو بغياً وظلماً، كما يقول عنه أعداء الإسلام، بل يحمل في طياته حسب الأحكام الشرعية المرتبط بها والمنظمةِ له كلَّ خير وبركة للبشرية جمعاء، فمن ذلك أنه سبب في تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا وجور الأديان وظلم الإنسان إلى سماحة الإسلام وعدله، وأحكامهِ وتشريعاته، وأن تدين الأمةُ جميعاً بالعبودية لله عز وجل المستحق لذلك دون سواه.

ثم إن الإسلام لا يجبر أحداً على الدخول فيه أو يكرهه على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، لكن لا يرضى الإسلام بأن يُحجب نورُه عن الناس أو أن يُمنعوا من الدخول فيه، أو يُحارب ويؤذى من اعتنقه والتزمه، ومتى خالطت القلوب بشاشةُ الإيمان سعدت ونعمت، وقويت وعزت، فيندفع الظلمُ والشر، ويسود العدلُ والمحبة، فلا تبعية ولا ذل لأحد إلا لله عز وجل، والجهادُ في سبيل الله عز وجل يمنع من التهديد والتخويف بالبطش والوعيد، بل يجمع الجميع إخوة في ظلال العبودية لله عز وجل لا فرق بين أحد ولا تمايز إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولا رفعة ولا عزة إلا بالعمل الصالح، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ثم إن الجهاد في سبيل الله عز وجل يدرأ أسباب الشقاق والخصومات الناتجة عن الإعراض عن دين الله وحكمه، والاستعاضة عنه بتشريعات البشر وأحكامهم، فإن الناس إذا لم يدخلوا تحت حكم خالقهم وينقادوا لأمره تلاعبت بهم شياطين الإنس والجن وتحكمت فيهم أهواؤهم وشهواتهم، وتدخلت فيهم المصالح والمطامع، واستغل الأقوياء خنوع الضعفاء، فيشيعُ الخلافُ وتتصارعُ الشعوب، حتى تتحول الأمور إلى حروب مستمرة لا نهاية لها، وقد جاء بيان هذه الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ

ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

إن قتال الكفار وسيلة لا غاية، فإذا تحقق الهدف المقصود وهو دعوةُ الناس إلى الإسلام وبيانُه لهم وانتفاءُ الموانع والحجبِ دونه، إذا تحقق ذلك فهو المطلوب ولا يشرع القتال حينئذ، فالمرحلة الأولى هي الدعوة إلى توحيد الله عز وجل ونفي الشرك والتحذير منه، بالحكمة والأسلوب الحسن، والمنطق والحوار، والشرح والبيان، ورد الشبه والكشف عن الغوامض.

فإن لم يتحقق الهدفُ المطلوب بأن قوبلت دعوة الإسلام بالإنكار والعناد، وعدم القبول، انتُقل بهم إلى المرحلة الثانية وهي أن يدخلوا في حكم دولة الإسلام ويلتزموا أحكامها ونظمها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، بشرط أن يدفعوا الجزية ولها أحكام كثيرة ذكرها أهل العلم، فإن رفضوا هذا كله، لا الدخول في الإسلام ولا الانضواء تحت حكمه والتزام نظمه وقوانينه ، بشرط دفع الجزية كان ذلك إيذاناً بالمرحلة الثالثة وهي قتالهم الجهاد الشرعي، لقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة: ٢٩].

وبهذا الأمر كان عليه الصلاة والسلام يوصي أصحابه وقـوّاد جيوشـه، ففي صحيح مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أمـيراً عـلى جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: «**اغـزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغـدروا، ولا**

تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكمُ الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» الحديث.

ولقول ربعي بن عامر لقائد الجيش الفارسي رستم: «إن مما سنه لنا رسول الله ﷺ أن لا نمهل الأعداء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، الإسلامَ وندعك وأرضك، أو الجزاءَ- أي الجزية- ونقبلُ ونكفُ عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة- أي القتال- في اليوم الرابع»[1].

وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى أنه لا يجوز قتالُ الكفارِ المستأمنين أو المعاهدين أو أهلِ الذمة أو من كان بينهم وبين المسلمين هدنة، لأن الإسلام حرم الغدر ونكثَ العهد مع الناسَ كلهم مؤمنهم وكافرهم، وهذا من خصائص الإسلام وعالميته، وشرفهِ وعلو مكانته بل غلظ النكيرَ وشدد العقوبة على من خالف وعاند، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٠٢.

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] الآية، وقال تعالى في حق المعاهدين ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: فإذا لم توجد بوادر الخيانة فلا يجوز نقضُ العهد وخرقهُ ومقاتلةُ أصحابه.

والأدلة على هذا من السنة كثيرة، ففي سنن أبي داود عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً**»، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ألا من قتل نفساً معاهدة، له ذمةُ الله ورسوله فقد أخفر بذمة الله، فلا يُرَحْ رائحةَ الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً**»، رواه الترمذي وابن ماجه، ومعنى (أخفر بذمة الله) أي: نقض العهد وغدر به.

إن أعداء الإسلام يدعون - زوراً وبهتاناً- أن الإسلام يتبطن في تعاليمه أشياء تحث على الإرهاب واعتماد منهج العنف في التغيير، وأنه يحرض أتباعه ويحثهم على ممارسة أساليب إرهابية في قمع أعدائهم وإخضاعهم لسلطانه، وأن دعوته ما انتشرت إلا بهذه الطريقة، ويستدلون على هذه الدعوى ببعض الآيات والأحاديث التي تأمر المسلمين بالجهاد في سبيل الله وببعض الأخطاء التي صدرت ممن ينتسب لدين الإسلام، وأصروا على تصوير حقيقة الإسلام بهذا الواقع الذي أرادوه عبر وسائل الإعلام المختلفة.

وكلُ هذا مخالف للحقيقة والواقع، وما يدعو إليه الإسلام ويرغب فيه، والإسلام بريء من هذا الإرهاب الذي يذكرونه ويصمونه به كذباً وزوراً،

لأن الإرهاب جريمة من أفظع الجرائم في نظر الشريعة الإسلامية، وقد جاء تعريفه حسب نظرة الإسلام إليه بأنه: «العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول، بغياً على الإنسان، دينه ودمه وعقله وماله وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بذلك من إخافة السبيل وقطع الطريق وكل فعل من أفعال العنف، ويهدفُ إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم أو تعريض حياتهم وحريتهم وأمنهم للخطر، ومن صنوف الإرهاب إلحاقُ الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة والخاصة، كلُ هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله تبارك وتعالى عنها بقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾» [القصص: ٧٧][1].

ثم إن الله جل وعلا قد حصر الغاية والهدف من إرسال نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه رحمةٌ للعالمين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**» رواه الحاكم والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن مظاهر هذه الرحمة وأسسها دعوةُ الناس إلى توحيد الله عز وجل وتخليصُهم من عبودية غيره والذلِ له، ومن ذلك العنايةُ بما يوفر لهم الأمن والطمأنينة والسعادة والراحة، والتحذيرُ مما يضاده ويخالفه، كالإرهاب بجميع أنواعه وصوره.

ومن صور الإرهاب التطبيقية ما يسمى بحد الحرابة في الإسلام، التي

(١) الإرهاب حقيقته أسبابه موقف الإسلام منه ٢٨.

أغلظ الله على أصحابها العقوبة والنكال، حيث جعلهم محاربين له ولرسوله، ساعين بالفساد في الأرض، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤]، فالحرابة جريمة شنعاء لها تأثيرها على أمن الأمة بما تشتمل عليه من إدخالِ الرعب والخوف على النفوس، وزعزعةِ الأمن والاستقرار، ورعايةُ الأمن والحفاظ عليه من المصالح العامة التي يناط حفظُها ورعايتُها بولاة الأمور، وعلى المسلمين أن يكونوا معهم يداً واحدة في تحقيق هذا الواجب، يقول القرطبي «وإذا أخاف المحاربون السبيلَ وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاونُ على قتالهم وكفهِم عن أذى المسلمين»[1].

ولا غرو أن يكون الجهاد له المنزلة العظيمة في دين الإسلام، فهو ذروة سنامه، ومن أسباب فلاح أهله في الدنيا والآخرة، جاء هذا في موضعين من القرآن، أحدهما: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقد سبق لي حديث عن التقوى وابتغاءِ الوسيلة لكونهما من أسس الفلاح وقواعده.

وهنا ذكر بعض المفسرين وجه الجمع بين هذه الأمور الثلاثة فقال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٤١.

«اعلم أنه تعالى لما أمر بترك ما لا ينبغي بقوله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وبفعل ما ينبغي بقوله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، وكلُ واحد منهما ثقيل على النفس والشهوة، فإن النفس لا تدعو إلا إلى الدنيا واللذات المحسوسة، والعقلُ لا يدعو إلا إلى خدمة الله وطاعته والإعراض عن المحسوسات، وكان بين الحالتين تضادٌ وتنافٍ، ولذلك فإن العلماء ضربوا المثل في مظان تطلب الدنيا والآخرة بالضرتين وبالضدين، وبالمشرق والمغرب وبالليل والنهار، وإذا كان كذلك، كان الانقياد لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ من أشق الأشياء على النفس وأشدها ثقلاً على الطبع، فلهذا السبب أردف ذلك التكليف بقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾»[1].

وهنا أيضاً ذكر بعض المفسرين وجه ارتباط الأمر بالجهاد في هذه الآية بآيةِ حد الحرابة قبلها، بأنه إنما خُص الأمر بالجهاد وإن كان مندرجاً تحت ابتغاء الوسيلة لأن به صلاح الأرض وبه قِوامَ الدين وحفظَ الشريعة، فهو مغاير لأمر المحاربة، إذ الجهاد محاربة مأذون فيها، وبالجهاد يُدفع المحاربون، وأيضاً ففيه تنبيه على أنه يجب أن تكون القوة والبأس لدى المحارب مقصوراً على الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن لا يضع تلك النجدة التي وهبها الله له للمحاربة في معصية الله تعالى[2].

ففيما ذكره هؤلاء المفسرون يتضح لنا أن الأمر بالجهاد يشمل الجهاد في

---

(١) التفسير الكبير ١١/ ٢٢٦.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٧٢.

سبيل الله عز وجل وجهاد النفس ونحو ذلك، وسيأتي لهذا بيان إن شاء الله تعالى، كما دل كلامُهم على أن من وهبه الله نعمة الشجاعة والإقدام، وجب عليه أن يجعلها في وجهها الصحيح وموقعها المناسب وهو الجهاد الشرعي في سبيل الله عز وجل ولإعلاء كلمة الله تعالى، لا أن تكون تلك الشجاعة والقوة سبباً في العدوان والإجرام وزعزعةِ الأمن وإخافة الآمنين، وترويع المسلمين وسفك دمائهم وانتهاكِ أعراضهم واستحلال حرماتهم، ويشمل ذلك أيضاً من كان داخلاً معهم في عهد أو ذمة.

أما الموضع الثاني الذي ذكر الله فيه ارتباط الجهاد في سبيله بالفلاح وأنعم على القائمين به بالخيرات والنعيم في جنة عرضها السماواتُ والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨]. هذه الآية موصولة بما قبلها، فإن الله تعالى بيّن استمرار المنافقين في التثاقل عن الطاعات وعدم رغبتهم في الخيرات، مع نزول السور والآيات، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٦] أي أصحابُ الغنى والأموالِ الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بنعمه وتفضل عليهم من جوده وكرمه بالأموال والبنين، ومع هذا فلم يقوموا بواجب شكرِ هذه النعم وأداء حق الله فيها، ببذلها في سبيل الله عز وجل والجهاد مع رسوله عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦].

ثم عاب الله صنيعهم هذا ووبخهم عليه وحكم عليهم بالطبع على قلوبهم فلا تعي خيراً ولا تحرص على بر، فقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧] أي مع النساء والعجزة المتخلفين عن الجهاد، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] فلا تعي الخير ولا تفقه مصالحها الحقيقية النافعة، وإلا لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال المخزية.

ثم بين جل وعلا حال رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الصادقين معه من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٨] أي: إذا تخلف أولئك المنافقون عن الجهاد فإن الله غني عنهم، وله عبادٌ خواص من خلقه، اختصهم بفضله ووفقهم لهذا الأمر العظيم، غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم مستبشرون فرحون، وذكر من ثوابهم في هذه الآية قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

وقد ذكر القرطبي في المراد بالخيرات في الآية قولين، أحدهما: أن الخيرات هي النساء الحسان، روي هذا عن الحسن ودليلُه قولُه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، والثاني: أنها جمع خيرة فالمعنى أن لهم منافع الدارين، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الخير لا يعلم معناه إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧][1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٠٥.

ثم قال تعالى في بيان ثوابهم: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٨٩].

إن المطلع في سيرة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يرى بذلهم نفوسهم ومهج أرواحهم وأموالهم في سبيل الله عز وجل، ابتغاء مرضاته وطلباً للفلاح في الدنيا والآخرة، فكان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس، وهو المقدمُ فيهم عند القتال واشتداد الحرب، بل ذكر بعض الصحابة أنهم يكونون خلفه من شجاعته وإقدامه، وهو الذي لولا خشيته المشقة على أصحابه لخرج في كل سرية تغزو في سبيل الله[1].

ومن صور جهاد الصحابة وطلبهم الشهادة في سبيل الله عز وجل ما رواه مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب أنس بن النضر عن بدر فشق عليه، فقال: أولُ مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرَيَن الله ما أصنع، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد ابن معاذ، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهاً لريحُ الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوُجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف وطعنةٍ برمح ورمية بسهم، ونزلت هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.

ويدخل في معنى الجهاد جهاد النفس وأطرها على طاعة الله وكفها عما

(١) ينظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٤٧ وما بعدها.

حرم الله والحيلولةِ بينها وبين مكائد الشيطان وحبائله، ومتى حقق العبد هذه المجاهدة وُفق وهُدي، وحصل له كلُ خير في العاجل والآجل، يقول تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩] ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذه الآية: «علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد: جهادُ النفس وجهادُ الهوى وجهاد الشيطان وجهادُ الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُلَ رضاه، الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سُبُلَ الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه، ومن نُصرت عليه نُصر عليه عدوه»[1].

وصدق رحمه الله تعالى، فإنه لا يحصل نصر ولا عز، ولا تمكن وظهور إلا بمجاهدة هذه الأمور الأربعة ظاهراً وباطناً، وكلها مرتبطة بعضها ببعض:

أولها: مجاهدة النفس، لأنها أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ميالة إلى الدعة والكسل، والشهواتِ والمغريات، فإن تركها العبد ولم يجاهدها قادته إلى مهاوي الردى وطرق الضلال، ولا يُحدِّث بعد ذلك في أي واد هلك.

ثانيها: جهادُ الهوى الذي اتخذه بعضهم إلهاً من دون الله عز وجل فختُم على قلبه، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا

(١) الفوائد ٥٩.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣ – ٤٤]، واتباع الهوى أساسُ الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ثالثها: جهادُ الشيطان الذي يُجلب بخيله ورجله على العبد ويمنيه ويعدهُ حتى يوقعه في حبائله ويستزله معه بمكائده، فيُثقِّل عليه الطاعات ويكسله عن الفرائض ويحببُ إليه المعاصي ويقوده إليها منسياً إياه عقوبة الله وغضبه، واطلاعه ومراقبته، حتى إذا كان يومُ القيامة تبرأ منه ولات مندم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية، وقد ذكر أهلُ العلم أن الشيطان يحرص على أن يظفر من ابن آدم بأحد أمرين لا يبالي بأيهما ظفر، إما أن يوقعه في المعصية والذنب، وإما أن يفسد عليه طاعته بالرياء أو بالوساوس أو بالانشغال عنها ونحو ذلك.

ورابعُ الأمور التي تحتاج إلى مجاهدة جهادُ الدنيا وذلك بالعمل فيها بما يرضي الله واستعمالها في طاعته، بأن يجعلها مزرعة يجني ما عمل فيها في الآخرة، فلا تكون عوناً له على معصية الله أو سبباً في التكبر على أوامر الله وعلى خلقه، أو مدعاةً إلى غروره وتعلقه بها.

وقد روي عن المفسرين في تفسير الآية السابقة أقوالٌ تدل على عموم معناها، يقول ابن عطية: «إنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»[١]، ومما روي عنهم قولُ ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: «هي في الذين يعملون بما يعلمون»[٢] ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال عمر بن عبد العزيز: «إنما قَصُر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا»[٣].

وقال أبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين والرد على المبطلين وقمعُ الظالمين، وأعظمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر»[٤]، وقال الضحاك: «مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم»[٥]، وقال سفيان بن عيينة لعبدالله ابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]»[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

(٢) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

(٤) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

(٥) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

(٦) المحرر الوجيز ١٢/ ٢٤٠.

وقد اجتهد سلفنا الصالح في مجاهدة أنفسهم ومحاسبتها قبل العمل وبعده، يقول عبدالله بن المبارك: «إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً»[1]، ومن نظر في أحوالهم وقرأ سيرهم ونشاطهم في العبادة وحذرهم مما يغضب الله ظهر ذلك في حياته، يقول أبو حنيفة النعمان بن ثابت: «سير الرجال أحب إلينا من كثير من أبواب الفقه»، وقال بعضهم: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى محمد بن واسع- وهو من أئمة السلف- وإلى اجتهاده فازددت على الطاعة أسبوعاً كاملاً»[2].

وقد ذكر بعضهم أن جهاد النفس على أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، يقول عليه الصلاة والسلام: **«لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»** رواه الترمذي والدارمي من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

الثالثة: أن يجاهد نفسه على الدعوة إلى دين الإسلام وبيان شريعته وتعليم أحكامه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي

---

(١) صفوة الصفوة ٤/ ٤٥، ذم الهوى ٤٧.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٠٨.

ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ – ١٦٠]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**» رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرابعة: أن يجاهد نفسه على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى كأذية الخلق وطول الطريق وعدم الاستجابة والقبول، فمن أتى بهذه المراتب الأربع أفلح ونجح، بخلاف من خسر وشقي، يقول تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ – ٣][1].

المبحث السابع: الثبات في الجهاد

سبق القول عما تضمنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] من فضل الذكر وأثره في حياة المؤمن بعامة حيث الطمأنينة والراحةُ، والأنسُ والسعادة، وتحصيلُ الأجور العظيمة والفضائل الكثيرة، وبخاصة للمجاهد في سبيل الله عز وجل، فإن ذكره لله عز وجل عاملٌ من عوامل نصره وثباته، وإقباله وإقدامه، وطلبه الشهادة في سبيل الله عز وجل.

ومما تضمنته الآية السابقة الأمر بالثبات للمجاهد في المعركة وعدم نكوصه على عقبيه فإن هذا من السبع الموبقات، كما في الصحيحين من حديث

(١) البيان في مداخل الشيطان ١٦٩.

أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات، وقالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشركُ والسحرُ وقتلُ النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكلُ الربا وأكلُ مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات**»، والثباتُ في هذا الموضع من الأمور الواجبة فلا يجوز التخلف عنها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦].

فقد دلت هذه النصوص على وجوب الثبات في المعركة وعدم الفرار يوم الزحف.

وأصلُ الثبات في اللغة لزومُ المكان دون تحرك ولا تزعزع، والمراد به هنا الدوامُ على القتال وعدمُ الفرار، وقد عبر عنه بالصبر في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا**» رواه البخاري ومسلم، قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٥] ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى ﷺ أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمسُ قام فيهم فقال: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلالِ السيوف**»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «**اللهم منزل الكتاب ومجريَ السحاب وهازمَ**

الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم.. » وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبُتُوا واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت**» فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكُلوا ولا يجبُنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم»[1].

لقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروعَ الأمثلة في التضحية من أجلِ هذا الدين وتقديم نفوسهم وأرواحهم في سبيل إعزازه ونُصرة رسوله والذودِ عن حماه، بصدق وعزيمة، وثباتٍ وشجاعة، غير ناكصين ولا مولي الأدبار، وسيرُهم العطرةُ خيرُ شاهد على ذلك، مقتدين بالرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، الذي كان أشجع الناس وأثبتهم في ميادين الجهاد وساحاتِ الوغى.

ومن ذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب رضي الله عنه أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ قال: لكن رسولُ الله ﷺ لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان – يعني ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام– آخذٌ بلجامها، والنبي ﷺ يقول : «**أنا النبي لا كذب**»، وزاد غيره: «**أنا ابنُ عبد المطلب**»، قيل: «فما رئي يومئذ أحدٌ كان أشدَّ منه» رواه البخاري ومسلم، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما رأيت أشجعَ ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٧.

أنجد وأجودَ ولا أرضى ولا أفضلَ من رسول الله ﷺ»[١].

ويذكر علي رضي الله عنه صورةً أخرى من صور **شجاعته عليه الصلاة والسلام** فيقول: «**إنا كنا إذا حمي البأس**»، **وفي رواية**: «اشتد البأس واحمرت الحدقُ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذُ بالنبي ﷺ، وهو أقربُنا إلى العدو، وكان من أشدِ الناس يومئذٍ بأساً»[٢]، وهذه صورة أخرى من صور شجاعته ونجدته عليه الصلاة والسلام وقعت بالمدينة يرويها أنس رضي الله عنه فيقول: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجودَ الناس وأشجعَ الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر- أي اطلع عليه قبلهم- على فرس لأبي طلحة عُري، والسيفُ في عنقه، وهو يقول: لن تراعوا، لن تراعوا»، رواه البخاري، ولهذا يقول عمرانُ بن حصين رضي الله عنه: «ما لقي رسولُ الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب»[٣] أي يقاتلُ ويتقدم.

وكان عليه الصلاة والسلام ينازل الأبطال من الكفار ويتلقاهم لوحده، مهدداً متوعداً إياهم، ففي كتب السير أن أُبي بن خلف كان يُعلف فرساً له ويقول حين افتدى نفسه يوم بدرٍ لرسول الله ﷺ: أقتلُك عليها، فقال عليه

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٥٠.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٥٠.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٥١.

الصلاة والسلام: «**أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما رآه يوم أحد شد أُبيٌّ على فرسه على رسوله ﷺ، فاعترضه رجالٌ من المسلمين، فقال النبي ﷺ هكذا، أي: خلوا طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة فانتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطاير الشَعْراء عن ظهر البعير إذا انتفض- والشَعْراء ذُبابةٌ لها إبرة- ثم استقبله النبي ﷺ فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وقيل: بل كسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك، فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقَتَلهم، أليس قال: **أنا أقتلُك**، والله لو بصق علي لقتلني، فمات في طريقهم إلى مكة[1].

وقد بذل الصحابةُ أيضاً رضي الله عنهم مهجَ أرواحهم وأموالهم في سبيل الله عز وجل، وثبتوا في ميادين الجهاد وفي معمعةِ الوغى واشتداد القتال مما هو مسطرٌ في سيرهم العطرة، من ذلك ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنسُ بنُ النضر عن بدر فشق عليه، وقال: أولُ مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه ، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله فيما بعد ليَرَينَّ الله ما أصنع، فشهد يوم أحد فاستقبله سعدُ بنُ معاذ، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهاً لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، ما بين ضربة بسيف وطعنةٍ برمح ورميةٍ بسهم، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢، الشفا ١/ ١٥١.

المبحث الثامن: الرباط في سبيل الله عز وجل

الرباطُ في سبيل الله عز وجل من أفضل الأعمال وأجل القرب، قال ابن عطية: «الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلُها من رَبْط الخيل، ثم سمي كلُ ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً»[1]، وسببُ فضل الرباط أن المرابط يترك أهله من زوج وولد وغيرهم ليلازم في تلك الثغور، حرصاً على سلامة أمته ودفعاً للشرور عنها، وحمايةً لها من كل مكروه، يبذل نفسه دون نفوسهم ويسهرُ من أجل أمنهم وراحتهم.

فلا غرو حينئذ أن تأتي الأدلةُ بفضله والترغيب فيه والحث عليه وبيان أجر القائمين به الملازمين له المحافظين عليه، ففي الحديث المتفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضعُ سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه وأمن الفتان**» رواه مسلم، وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُ ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يَنْمي له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤَمَّن من فتنة القبر**» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وعن عثمان رضي الله عنه قال سمعت

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩.

رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألفِ يوم فيما سواه من المنازل**» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

فقد تضمنت هذه الأحاديثُ فضل الرباط في سبيل الله وعظيمَ أجر المرابط من وجوه: أن رباط يومٍ في سبيل الله عز وجل خيرٌ من الدنيا وما فيها، وأنه خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وأن أجر عمله يستمر له بعد موته، وأنه يأمن فتنةَ القبر ويؤمَّن من الفزع يوم القيامة، فضلاً من الله وإحساناً على هؤلاء المرابطين، روى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات مرابطاً في سبيل الله أُجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع**».

وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية عامةٌ تشمل كل ملازمةٍ لعبادةٍ وصبرٍ على أداء طاعة، قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: «هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمان رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه» رواه الحاكم، واحتج أبو سلمة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفعُ به الدرجات، إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» رواه مسلم وغيره.

قال القاضي عياض: «إسباغُ الوضوء تمامه، والمكاره تكون بشدة البرد وألم الجسم ونحو ذلك ، وكثرةُ الخطا تكون ببعد الدار وكثرة التكرار، وانتظارُ

الصلاة بعد الصلاة في المشتركتين من الصلوات في الوقت، وقوله «فذلكم الرباط» أي الرباطُ المرغب فيه، وأصل الرباط الحبسُ على الشيء، كأنه حَبَس نفسه على هذه الطاعة، وقيل: المراد أنه أفضلُ الرباط لأن فيها ذُكر مجاهدة النفس حتى تقوم بهذا العمل الفاضل، وهو انتظار الصلاة بعد الصلاة»[1].

ولا شك أن انتظار الصلاة بعد الصلاة والتبكير لها يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، وحرص وإقبال، واستحضار للفضل العظيم الذي يُسبغه ربُنا جل وعلا على هؤلاء المبكرين، الذين ما يزالون في خير وإفضال مذ خرجوا من بيوتهم قاصدين بيوت الله عز وجل، يصلون ما كُتب لهم ويتلون كتاب ربهم، وما بين ذلك دعاء واستغفار وذكرٌ وتهليل، وقد دلت السنة على فضل هذا العمل المبارك من وجوه، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة**»، وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**» رواه البخاري، وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أَخَّر ليلةً صلاة العشاء إلى شطرِ الليل، ثم أقبل علينا بوجهه بعدما صلى فقال «**صلى الناس ورقدوا، ولم تزالوا في صلاة منذُ انتظرتموها**» رواه البخاري.

وقد ذكر أهلُ العلم رحمهم الله تعالى أن مما يعين على الخشوع في الصلاة واستحضار عظمة الله وأنه جل وعلا قبل وجهه في صلاته التبكيرَ إليها،

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ١٤١ بتصرف.

وهذا ملاحظ، فإن المبكر إلى الصلاة يحس براحة وطمأنينة، واستعداد وخشوع، وليس ذلك لمن جاء إلى الصلاة متأخراً، يلهث مسرعاً، قد حرم نفسه خير الله وفضله، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

المبحث التاسع: الابتغاء من فضل الله

دل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] ، على ابتغاء الفضل والرزق الحلال من الله سبحانه، فإن الله عز وجل نهى عن البيع بعد سماع النداء يوم الجمعة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

والأمر هنا في قوله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية للإباحة، مثل الأمر بالاصطياد في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ [المائدة: ٢]، وعلى هذا إجماع المفسرين سلفاً وخلفاً، روى ابن أبي شيبة عن الضحاك قال: «هو إذن من الله، فإذا فرغ إن شاء خرج وإن شاء قعد في المسجد»، وهو مروي عن مجاهد وعطاء[١]، وروى القرطبي عن عراك بن مالك ﷺ أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٤٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩٦.

وقد ذهب بعض السلف إلى تفسير الآية بأنه عمل الصالحات وفعل الطاعات والتزود من النوافل والقربات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المريض وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى»، وعن الحسن قال: «طلب العلم» ، وقيل «صلاة التطوع»[١]، قال بعض المفسرين: «وأما قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فهو احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصباباً ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات، فإن الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى»[٢].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن في الآية حثاً على طلب الرزق وعدم التواكل والعالة على الآخرين، فالقيام بالفرائض والوفاء بالحقوق والواجبات ليس بمانع من طلب الرزق الحلال، كيف والإسلام يأمر بشريعته السمحة الشاملة لكل حياة المسلم طلب الرزق والبحث في مظانه والضرب في الأرض من أجله، فينفق المرء على نفسه وعلى من يعول، وحذر من المسألة والكسل، والتواني والعجز، يقول عليه الصلاة والسلام: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده**» رواه البخاري، ويقول عمر رضي الله عنه: «إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قيل: لا، سقط من عيني»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩٦.
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٢٧.
(٣) فيض القدير ٢/ ٢٩٣.

وقد أبان الإسلام مفاتيح الرزق الحلال ونوعها، ويسرها وسهلها، فلم يمنع معاملة أو يحذر منها لا لما لها من أضرار على الفرد والمجتمع، وأرشد إلى الأسباب التي بها تحصل الأرزاق وتكثر الخيرات وتحل فيها البركات، وهذه الأسباب يغفل عنها الكثير من الناس ممن يركنون إلى الأمور المادية فقط ويتعلقون بالأسباب الدنيوية الظاهرة القريبة بين أيديهم، ويغفلون عما أرشد إليه القرآن ورغب فيه ومن ذلك:

التوبة والاستغفار فلهما الثمار العظيمة والآثار المباركة على أهلها، قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠ – ١١]، وروي أن عمر رضي الله عنه خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما سمعناك استسقيت، فقال: «لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر» ثم قرأ الآيات[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب**» رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

ومن الأسباب تحقيق تقوى الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣]، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أكبر آية

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٥١.

في القرآن فرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وجاء الجمع في قوله ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ للدلالة على تعددها باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة.

ومن الأسباب أيضاً التوكل على الله عز وجل وتفويض الأمور إليه والتعلق به وحده، وهذا لا يعني الكسل والعجز وترك التكسب، بل هذه الأسباب من التوكل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] – أي كافيه – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وروى أحمد والترمذي عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**».

ومن الأسباب أيضاً صلةُ الرحم والإحسان إليهم والرفق بهم ورعايةُ أحوالهم، وقد جاء التحذير من قطيعة الرحم في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ – ٢٣]، وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة قاطع**» أي: قاطع رحم، وصلة الرحم بمفهومها الواسع تشمل فعل الإحسان إليهم بكل معانيه، ودفع الشر ومنعه عنهم بكل معانيه، قال الإمام ابن أبي جمرة: «تكون صلة الرحم بالمال وبالعون

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٤٨٦.

على الحاجة وبدفع الضرر وبطلاقة الوجه وبالدعاء»[١]، ومما يدل على أن صلة الرحم من أسباب الرزق وبركته ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»، وعليه بوب البخاري «باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم»[٢].

ومن الأسباب الإنفاق في سبيل الله عز وجل، إذ هو نماء للمال وبركة له، والأدلة على هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك**» فما أوثقه من ضمان للمنفق في سبيل الله، فإذا كان العبد ينفق على قدر استطاعته فإنه سينفق عليه مَنْ له خزائن السموات والأرض وهو على كل شيء قدير، فالإحسان إلى الضعفاء والفقراء والتوددُ إليهم ورعايةُ أحوالهم وكشفُ ضوائقهم من أسباب الرزق ونمائه وبركته، ولقد قال عليه الصلاة والسلام: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**» رواه البخاري.



(١) فتح الباري ١٠/ ٤١٥.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤١٨.



الفصل الخامس

القيام بالحقوق وأداء الواجبات

المبحث الأول: رعاية الأمانة والعهد والقيام بحقوقهما

من صفات عباد الله المفلحين مما تضمنته أول سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المعارج: ٣٢] والأمانة والعهد الذين طلب منا مراعاتهما وحفظهما وعدم التهاون بهما يشملان ما يكون في حياة المؤمن من صغير أو كبير، يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: «والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيامُ به، والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد»[1].

وقال الفخر الرازي مفيضاً في بيان ذلك: «واعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً في الخيانة، وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها، وكل العبادات تدخل في ذلك، لأنها إما أن تخفى أصلاً كالصوم وغُسل الجنابة وإسباغ الوضوء، أو تخفى كيفية إتيانه بها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة»، ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به، كالودائع والعقود وما يتصل بهما.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٩٩.

ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء - أي العتق والطلاق ونحوها - لأنه مؤتمن في ذلك، ومن ذلك أن يراعي أمانته فلا يفسدها بغضب أو غيره، وأما العهد فإنه داخل فيه العقود والأيمان والنذور، فبين سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح»[١].

وقد ذكر بعض المفسرين سر الجمع في قوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ والإفراد في قوله ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾ ، أن الأمانات متنوعة متعددة بالنسبة لكل مكلف، ولا يخلو منها أحد، ولكن كل بحسبه، فمما يشترك فيه الناس التكاليف الشرعية والقيام بالواجبات المرعية، وقد يزيد أحدهم بحفظه أموالاً مودعة عنده أو نذوراً التزمها وعقوداً وأيماناً يجب عليه الوفاء بها، وهذا بخلاف العهد فإنه ليس كذلك[٢].

وقوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ هكذا قرأ السبعة بالجمع عدا ابن كثير فإنه قرأها «أمانتهم» بالإفراد[٣].

وقوله: ﴿رَٰعُونَ﴾ أي قائمون بحفظها وإصلاحها، وأصل الرعي حفظ الحيوان، إما بتوفير غذائه الحافظ لحياته، وإما بذب العدو عنه من لص سارق وسبعٍ ضاري، ثم استعمل في الحفظ مطلقاً.

ولا يدل ما سبق على قلة شأن الوفاء بالعهد، فالوفاء به من أشرف

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٩٩، تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٥، روح المعاني ١٨/ ١١.
(٣) ينظر: السبعة ٤٨٣، حجة القراءات ٧٢٤.

الأخلاق الكريمة وأنبل الشمائل المحمدية، لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، ويحتاج الوفاء به إلى مجاهدة النفس وأطرها وترويضها على ما تحب وتكره، ولهذا كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس ورفعتها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وحذر الإسلام من نقضه ومخالفته، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»، زاد مسلم: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»، ورويا أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

وحذر النبي ﷺ من الغدر مبيناً خطره وعظيم جرمه وما يحل لصاحبه من العقوبة والنكال، والخزي والفضيحة يوم القيامة، فعن ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك رضي الله عنهم قالوا : قال النبي ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**» متفق عليه، ومن صور الغدر الشنيعة التي تدل على لؤم فاعلها من عاهد بالله عز وجل وأعطى المواثيق بالله تعظيماً لشأنه وطمأنينة للشخص الآخر ليغدر به بعد ذلك، وهذا ما تضمنه الحديث القدسي العظيم الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره**» رواه البخاري.

فهؤلاء الثلاثة يكون الله تعالى خصمهم يوم القيامة، فأي شقاء وتعاسة، وعقوبة وندامة تنالهم، حين يقفون بين يدي الجبار سبحانه، حافية أقدامهم شاخصة أبصارهم، بأي أمر يعتذرون، وأي سبيل سيسلكون، والله جل وعلا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن من الأمور التي عظم الإسلام شأنها وأكد على القيام بها والوفاء بأدائها كما طلب منه، الأمانة بمفهومها العام، وحذر في المقابل من خيانتها وعدم القيام بحقها أو انتقاص شأنها، يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، قال الإمام السعدي رحمه الله تعالى في تفسير الآية: «يعظم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم، في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم.. ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ أي: خوفاً ألا يقمن بما حُمِّلن، لا عصياناً لربهن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل، فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام، منافقون قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب فقال: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣]»[1].

لذلك فقد أمر تعالى بأدائها والوفاء بها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] وحذر من خيانتها وإضاعتها فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وبين جل وعلا أن المحافظين لأماناتهم المراعين لها من المفلحين في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المعارج: ٣٢].

إن الأمانة في الإسلام واسعةُ الدلالة، ترمز إلى معانٍ شتى، ترجع جميعاً إلى شعور المؤمن بمسؤوليته تجاه الأمر الموكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه ومحاسبٌ عليه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، على نحو التفصيل الذي بينه النبي ﷺ بقوله: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسؤول عن رعيته**» رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الأمانة هي الفريضة التي يتواصى بها المؤمنون ويذكر بعضهم بعضاً بأهميتها وعظيم شأنها والعناية بأدائها والقيام بحقها، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: **لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**» رواه أحمد، وبالأمانة كانوا يتواصون عند السفر مستعينين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٦٢٠.

بالله تعالى على حفظها ففي الحديث «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**» رواه الترمذي.

ولما كانت الخيانة إثماً عظيماً وجرماً كبيراً، بها ضياع الدين استعاذ النبي ﷺ منها، فقد كان من دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**» رواه أبو داود، ولذلك كان من صفات رسل الله وأنبيائه الأمانة، حفاظاً على حقوق الله عز وجل وحقوق عباده، فقد كان عليه الصلاة والسلام يلقب بين قومه قبل البعثة بالأمين، وفي خبر موسى مع الرجل وابنتيه قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وأعظم الأمانة حقاً وأولاها وجوباً تحقيق التوحيد لله رب العالمين وإخلاصُ العبادة له، والبُعد عن الشرك صغيره وكبيره، تحقيقاً لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، يقول تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وهي دعوة الرسل أجمعين ، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، والإنسان مخلوق لعبادة الله وطاعته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن تضييع أمانة النفس أن يصرف العبادة التي هي حق الله تعالى إلى غيره من الخلق الضعفاء، ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً، فضلاً عن غيرهم من الخلق، الذين لا يجوز صرف أي نوع من العبادة لهم من دعاء وذبح ونذر واستعانة واستغاثة وغير ذلك.

ومن معاني الأمانة أن تنظر في حواسك التي أنعم الله بها عليك وجوارحك التي تفضل الله بها عليك وإلى المواهب التي خصك الله بها وإلى ما حُبيت من أموال وأولاد فتحمد الله عليها وتثني عليه بما هو أهله من أنواع المحامد والشكر، وتعترف باطناً وظاهراً بأن الكل من فضل الله وجوده وإحسانه، لا حول لك في ذلك ولا طول، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] وقال عز وجل: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨].

وحقيقةُ الأمانة في هذا أن تعلم أن تلك المنح والعطايا ودائعُ الله الغالية عندك، لينظرَ كيف تعمل فيها، فوجب حينئذ عليك تسخيرها في قرباته وأن تستخدمها في مرضاته، تشكر الله عليها إن أعطيتها ومنحت إياها، وتصبرُ إن ابتليت بفقدها أو نقصانها كما قال عليه الصلاة والسلام مبيناً حال المؤمن الشاكر الصابر: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**» رواه مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

فالله جل وعلا له ما أخذ وله ما أعطى، وهو أولى بك منك، وأولى بما أفاء عليك، وشكر هذه النعم وأداء أمانة الله فيها ألا تستعملها في معصية أو تستعين بها على تجاوز حدود الله أو انتهاك محارمه، فإنه جل وعلا يغار، وغيرته أن تنتهك محارمه، فلو لم تكن بين يديك هذه النعم من الصحة والمال وتكامل الحواس والأطراف لما قدرت على فعل المعصية والولوج في الخطيئة والتعدي على الناس بغياً وعدواناً.

ومن الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي أنيط به، وأن يستنفذ جهده في إحسانه وإتقانه، وأن يخلص في أداء عمله وينوي بذلك التقرب إلى الله عز وجل، فيسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه ويسعى في إتمامها وإنهائها، فإن استهانة المرء بما كلف به له أثره في شيوع التفريط واستشراء الفساد في كيان الأمة وتقويض بنيانها، فينتشر الغش والخداع، وتفشو الرشوة وتقديم المصالح الخاصة، وكلُ هذا مما حرمه الإسلام ونهى عنه.

وأعظم هذه الخيانات وأشد هذا التفريط ما كان مرتبطاً بالدين وحقوق الناس، في صحيح البخاري يقول عليه الصلاة والسلام: «**إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يعرف به، فيقال : هذه غدرة فلان**».

ويدخل في الأمانة هنا وضع الرجل في المكان الجدير به والموضع المناسب له دون محاباة ولا مجالة، إذ القصد أداء الواجب ونفع الأمة، ولن يكون ذلك إلا بالرجال الأكفاء، روى مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: «قلت : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: **يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**».

فأبو ذر ﷺ مع فضله وسابقته في الإسلام لم يستعمله عليه الصلاة والسلام ولم يوله عملاً معتذراً إليه بأنه رجل ضعيف وتلك المسؤولية أمانة،

فقد يكون الرجل حسن الإيمان رضي السيرة ومع ذلك فلا يناسب أن يتولى عملاً معيناً، ولهذا فإن يوسف عليه السلام لم يرشح نفسه لإدارة شؤون المال بنبوته وتقواه بل لحفظه وعلمه ، قال تعالى عنه: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فالأمانة تقتضي بأن نرشح للأعمال أحسن الناس قياماً بها وأداء للواجب المنوط بها، فإن حصل ميل لمن ليس بكفء لهوى أو رشوة أو قرابة، فَنُحي القادر وولي العاجز غير الكفء فتلك خيانة، يقول عليه الصلاة والسلام: «**من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**» رواه الحاكم، وفي صحيح البخاري «جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة؟ فقال له: **إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**، فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: **إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة**».

وفرق بين هذا وبين الشفاعة الحسنة المحمودة التي قال الله عنها: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. إذ المراد بها نفع أخيك المسلم بشكل لا يضر بالآخرين ولا يفوت مصالح الأمة، أو أنك تحقق مطلبه وتسعى فيه لتعذر وصوله إليه، فتلك الشفاعة المحمودة التي تؤجر عليها، التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**» رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول

الله ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

ويدخل في أمانة القيام بالواجب وأداء العمل الموكل إلى الشخص ألا يستغل منصبه لأخذ رشوة من أحد لقضاء حاجته التي هي من حقه أو أن يحابي أحداً أو يضره، يقول عليه الصلاة والسلام: «**من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**» رواه أبو داود، والله تعالى يقول ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١] وفي صحيح مسلم عن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوق كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**، فقام إليه رجلٌ أسود من الأنصار - كأني أنظر إليه- فقال: يا رسول الله اقبل عني عملك، قال: **ومالك؟** قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: **وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نهي انتهى**».

ولما قدم على نبينا عليه الصلاة والسلام عاملهُ ابنُ اللتبية على الصدقة فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، قام عليه الصلاة والسلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد: فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولّاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء**

أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يقول: اللهم هل بلغت» رواه مسلم.

وفي المقابل فإن من التزم حدود الله في عمله وأدى الواجب المنوط به دون خيانة أو تساهل كان كالمجاهد في سبيل الله، يقول عليه الصلاة والسلام: «**العامل إذا استعمل، فأخذ الحق وأعطى الحق، لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته**» رواه الطبراني، وهذا الإتقان للواجب والأداء للأمانة من أحب الأعمال إلى الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**» [رواه البيهقي بإسناد حسن].

ومن أمانة العمل قيام المعلم بواجب التدريس كما طلب منه، من حيث الاستعداد والتحضير، والحرص على توصيل مادته العلمية بأحسن أسلوب وأوضح طريق، يحرص على العدل بين طلابه، يكرم المجتهد ويثني عليه، ويأخذ بيد الضعيف ويحنو عليه ويتابعه حتى يسير في ركاب زملائه، يتعاهدهم بالنصح والتوجيه، والتربية والإرشاد، يكون قدوة حسنة لهم في التمسك بالسنة والجمع بين صلاح الظاهر والباطن والتحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الخصال والشمائل.

ومن معاني الأمانة بل هي أقربها إلى الأذهان حفظ الودائع وحراسة الممتلكات والاحتفاظ بها لأصحابها، حتى ترد إليهم، وقد كان نبينا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام يسمى بالأمين عند قريش لأنهم كانوا يستأمنونه على أموالهم وممتلكاتهم، ومع أنهم آذوه وأصحابه واضطروهم إلى ترك بلدهم فإنه قد استخلف عند هجرته ابن عمه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليسلم المشركين

الودائع التي استحفظوه إياها، وكان بإمكانه أن ينتصر لنفسه من أموالهم، ولكنها عزة المسلم وتمسكه بالمبدأ العظيم والخلق الكريم، يقول ميمون ابن مهران «ثلاثة يؤدَّين إلى البر والفاجر، الأمانةُ والعهد وصلة الرحم»[1].

فاعتبار الوديعة غنيمة باردة ضرب من السرقة الفاجرة، ولؤم وخسة من فاعلها، يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «القتل في سبيل الله- أي الشهادة - يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال يؤتى بالعبد يوم القيامة- وإن قتل في سبيل الله- فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشد ذلك الودائع».

قال الراوي فأتيت البراء بن عازب ﷺ فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود قال كذا، قال البراء: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨][2].

إن الأمانة في القلوب لا تكون إلا بالإيمان الراسخ والوعد الصادق والخوف من الله عز وجل، فترسخ في أعماقه وتتأصل في تحركاته وسكناته،

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ٣٢٧.

(٢) الترغيب والترهيب ٤/ ٤.

فترعى الحقوق وتعصم عن الدنايا، ففي صحيح مسلم من حديث حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة**» ثم بين عليه الصلاة والسلام تسرب الأمانة من القلوب ونزعها من النفوس فقال: «**ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت- كالنقطة على الصحيفة- ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثلُ أثر المَجْل**» أي البثور التي تظهر في اليد من استخدام الأدوات الخشنة.

ثم قال: «**فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**».

إن الأمانة مسؤولية عظيمة وفضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل، ولا القيام بحقوقها من جهل حق الله وحقوق خلقه، ولا الوفاء بها من ظلم نفسه وظلم غيره، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهنيئاً لمن وفق لأداء أمانة الله عليه في كل شيء، فرعاها وحرص على الوفاء بها وأخلص لله فيها، ابتغاء ما عنده ورجاء في ثوابه وطمعاً في رحمته، فإن قصر وتهاون استغفر وتاب من قريب ولهذا قال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

المبحث الثاني: الوفاء بالعهد

جاء الأمر بالوفاء بالعهد والتأكيدُ على ذلك، بجميع معانيه ومدلولاته، يقول الراغب الأصفهاني: «العهد حفظ الشيء ومراعاتهُ حالاً بعد حال، وسمي المَوْثِق الذي يلزم مراعاته عهداً ، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٤] ثم ذكر أن العهد يشمل معاني كثيرة[١] منها الالتزامُ بما أُمرنا به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلك، ثم الائتمارُ بأوامر الله والحذرُ من معاصيه، ومنها الالتزامُ بما يُلزم العبد به نفسه من نذور ونحوها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[التوبة: ٧٥].

أما المعاهد فهو في عرف الشرع يختص بمن يدخل من الكفار في عهد المسلمين، قال ﷺ: «**لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده**» رواه مسلم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، ويدخل فيه أيضاً المعاهدة بين الناس على أمر معين، أو ترك شيء ما، فيجب الوفاء به، يقول عليه الصلاة والسلام: «**المؤمنون عند شروطهم**» رواه البخاري.

إن العهد الذي لا بد من الوفاء به ما كان في الخير والحق، فإنه لا عهد في عصيان أو إثم، ولا وفاء في يمين يرى غيرها خيراً منها، ففي صحيح مسلم

(١) المفردات ٣٥٠.

عنه ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير».

إن العهد الذي يُلزم به العبد نفسه قد يكون عوناً له على الطاعة ومساعداً له على فعل الخير، مثال ذلك ما جاء في خبر أنس بن النضر رضي الله عنه، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتالٍ قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنةُ وربِ النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد .

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، ثم تقدم، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورميةٍ بسهم، ووجدناه وقد مثل به المشركون، فما عرفه إلا أخته عرفته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]» رواه البخاري.

إن العهود التي يرتبط بها المسلم درجات، فأعلاها مكانة وأولاها اهتماماً العهد الذي بينه وبين ربه، وذلك بتوحيده واعتقاد أنه الإله المعبود وحده دون سواه، فلا يصرف لغيره شيئاً من أنواع العبادة، لا لملك مقرب

ولا نبي مرسل ولا لغيرهما، فمن فعل ذلك فقد أشرك معه غيره وحبط عمله وكان من الخاسرين، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ – ٦١]، وهذا هو الميثاق العظيم الذي أخذه ربنا تعالى على آدم وذريته في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤].

ووفاء الإنسان بهذا العهد أساسُ كرامته في الدنيا وسعادته ونعيمه فيها مع ما يكون له في الآخرة من النعيم السرمدي في الجنة ، وكان نبينا ﷺ يأخذ على الصحابة والوفود التي تقدم عليه هذا العهد العظيم مع غيره من الأمور الأخرى، ويبايعهم على ذلك، ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال : **ألا تبايعون رسول الله؟** فبسطنا أيدينا وقلنا: نبايعك يا رسول الله، قال: **على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلواتِ الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية قال: ولا تسألوا الناس شيئاً**، قال عوف: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً أن يناوله إياه».

وقد تكررت هذه البيعة من الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ في مواضع، منها ما في الصحيح من حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر

والنصيحة لكل مسلم وألا ننازع الأمر أهله» ، وكانوا خير من وفى بذلك وأدى ما التزمه.

وأيضاً بايعت النساءُ رسول الله ﷺ من وراء حجاب كما جاء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقد وفين رضي الله عنهن بما التزمنه وأُخذ عليهن العهدُ به.

إن من صور الوفاء بالعهد أن يقوم الرجل بما التزمه حال العقد مع زوجته، ففي صحيح البخاري يقول عليه الصلاة والسلام: «**المسلمون عند شروطهم**» وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية، يقول عليه الصلاة والسلام: «**أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**» رواه البخاري ومسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وإن خديعة الرجل زوجته وعدم وفائه بما تعاهدا عليه ضربٌ من الخيانة والغدر، وشؤم يلحقه في الدنيا والآخرة.

ويدخل في هذا الإضرارُ بها والتضييق عليها حتى تفتدي منه بالمال وتستريح من سوء العشرة معه، والإسلام قد أبان لنا أن الفراق إذا كان سببه الزوج أو أنه قد رغب عنها بلا سبب منها فإنه لا يحل أن يأخذ منها شيئاً قلَّ أم كثر، بل كما قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[البقرة: ٢٢٩]، ويقول عز وجل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠ - ٢١].

وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروعَ الأمثلة وأصدق الوقائع في الوفاء بالعهود التي التزموها وتعاقدوا عليها، فقد بايع الأنصار رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في العقبة على أن يجندوا أنفسهم وأموالهم لحماية دعوته وحراسة رسالته ، حتى يستطيع إبلاغها للعرب ومن وراءهم، وكانت هذه سابقةً لهم في الدين وتاريخه، مسجلة لهم في صحائفه الخالدة، وقد التزموا تبعات هذا العهد وقبلوها عن سماحة وطواعية، حيث قالوا له «يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة» فقاموا يبايعونه رجلاً رجلاً[(١)].

وصفحات السيرة النبوية خير شاهد على الوفاء بهذا العهد والتزام هذا العقد، فقدموا دماءهم وأرواحهم في سبيل الله عز وجل والذب عن رسوله ودينه، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف هذا لهم، ففي غزوة حنين لما انكشف المسلمون في الجولة الأولى من المعركة صاح بهم وناداهم، يقول أنس رضي الله عنه: «لما كان يومُ حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بذراريهم ونعمهم، ومع رسول الله ﷺ يومئذ عشرةُ آلاف، ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٤٤، زاد المعاد ٣/ ٤٠.

وحده، فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما شيئاً، التفت عن يمينه فقال: **يا معشر الأنصار**، فقالوا: لبيك يا رسول الله، نحن معك أبشر، ثم التفت عن يساره فقال: **يا معشر الأنصار**، فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: **أنا عبد الله ورسوله**» رواه مسلم.

إن الغدر ونكثَ العهود وعدم الوفاء بها ينزعُ الثقة ويثير الفوضى ويضيع الحقوق، ويمزق الأواصر ويرد الأقوياء ضعافاً واهنين، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩٢].

والوفاء بالعهد لازم مع المؤمن والكافر، فإن الفضيلة لا تتجزأ، والحقّ لازم مع الناس أجمعين، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن حلف الفضول- وكان في الجاهلية- لو دعيت به في الإسلام لأجبت، وفي صحيح ابن حبان عن عمرو بن الحَمِق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما رجل أمن رجلاً على دمه ثم قتله، فأنا من القاتل بريء، وإن كان المقتول كافراً**»، بل هذا من أعظم الغدر، حين يُستأمن رجلٌ من أهل الذمة ثم يتجرأ أحدٌ على قتله، يقول عليه الصلاة والسلام: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**» رواه البخاري.

ولهذا أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام والصحابة رضي الله عنهم أن يعدلوا مع الكفار وألا يعتدوا عليهم بغير حق، ولو صدوهم عن المسجد

الحرام، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] الآية.

ومن الأمور التي أمر الإسلام الوفاء بها والتزامها تسديدُ الديون، فإن سدادها من آكد الحقوق عند الله تعالى، فلم يشرع الإسلام الاستدانة من الآخرين إلا لحاجة قاهرة، وطالبه أن يعف نفسه ويكفها عما في أيدي الآخرين، ففي هذا إذلال لها وتعلق بما عندهم، وأمره أيضاً بأن يصحح نيته وقصده حال الاستدانة من الناس بأن يعزم على السداد والوفاء، قاطعاً على نفسه وساوس الطمع بالمال أو المطل عند القضاء والتحايل عليه، ففي صحيح البخاري يقول عليه الصلاة والسلام: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**».

فإذا استدان حرص على الوفاء واجتهد في السداد، ولا يماطل في ذلك، ولا يتوسع في حاجاته ومعيشته على حساب حقوق الآخرين، فإن هذا ظلم وعدوان، ولعظم خطره وشناعة جرمه فإنه لا يكفره أي عمل صالح مهما عظم وكبر حتى الجهاد في سبيل الله، الذي فيه بذل النفوس الغالية عند أهلها ابتغاء رضوان الله والجنة، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة رضي الله قال: «قال رجل يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: **نعم، إن قتلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر**، ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد، قال: **إلا الدَّين، فإن جبريل أخبرني بذلك**»، وفي رواية في صحيحه قال: «**يغفر للشهيد كلُ ذنب إلا الدَّين**».

فأين الذين وجدوا أموال غيرهم ممن وثقوا فيهم فأعطوهم إياها ثقةً بهم وإعانةً لهم، وجدوها سرقة باردة وغنيمة سهلة، فماطلوهم في أداء حقوقهم وتأخروا في سداد ديونهم، التي ليس لهم فيها حق إنما هي لغيرهم، وبعضهم قد يتمادى به الأمر فينكر حق الآخرين وبخاصة إذا لم تكن بينهم كتابة أو شهادة، لثقة المعطي في الآخذ، وهذا من أعظم المحرمات وأشد المنكرات، وهو من أسباب سخط الله وعقوبته، وهلاكه وعذابه للأمم، يقول تعالى بعد إهلاكه القرى الظالمة ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وبسبب هذا التهاون في سداد الديون وعدم الوفاء بالحقوق تكاسل بعض الناس وترددوا في إعانة بعضهم بالقرض الحسن خوفاً من عدم السداد والوفاء، إلا بعد كفلاء وشروط معينة كي يحفظوا حقوقهم، وهم لا يلامون على ذلك، وبخاصة ممن عرف عنه عدم الالتزام والوفاء.

مسألة: الوفاء بالعهد لأهل الذمة

جعل الله عز وجل أسس العلاقة مع غير المسلمين تقوم على العدل والبر والقسط معهم، والبر والرحمة لهم، وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام، وقد عاشت قبل الإسلام وبعده تقاسي الويلات من فقدان تلك الأسس والتعاليم الشرعية، ولا تزال تعمل على تحقيقها من قبل العقلاء منهم. يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

فالبر والقسط مطلوبان من كل مسلم مع الناس جميعاً، ولو كانوا كفاراً، بشرط التزامهم بالعهود والمواثيق التي تكون بينهم وبين المسلمين، فإن وفوا عاشوا في حماية الإسلام وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين، يحترمون شعائر الإسلام ويرعون حقوق أهله، ويلتزمون عدم إظهار شعائر دينهم أو يعلنون بفجورهم ومعاصيهم، وهؤلاء هم أهل العهد والذمة.

لقد نعم أهل الكتاب اليهودُ والنصارى بمعاملة خاصة في ظل التشريع الإسلامي مذ قامت دولته الأولى في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ومن بعدهم، حيث دعوا إلى دين الإسلام وبينت لهم أحكامه وشرائعه، من قبل نبينا عليه الصلاة والسلام كما في دعوته لليهود في المدينة أو في لقائه مع نصارى نجران، أو من قبل دعاته الذين كان يرسلهم لدعوتهم إلى دين

الإسلام وشريعته السمحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال: **إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً** رسول الله، **وفي رواية إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين لله حجاب**» رواه البخاري ومسلم.

كما نهى القرآن عن مجادلتهم إلا بالحسنى والحكمة، حتى لا يقع الجدل واللدد ولا توقد نار العصبية والبغض في القلوب، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

لقد أوجب الإسلام لأهل الذمة في ديار الإسلام المعاهدين الحماية الخارجية والحماية الداخلية، فيجب لهم ما يجب للمسلمين من الحماية من الاعتداء الخارجي، ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الإسلامي أنه لما تغلّب التتار على الشام ذهب شيخ الإسلام ليكلم قطلوشاه في إطلاق الأسرى، فسمح القائد التتري بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يطلق الأسرى من أهل الذمة الذين كانوا في ديار المسلمين ولهم عهد معهم، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال له: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى، فهم

أهل ذمتنا، ولا ندعُ أسيراً، لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة[١]، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له.

وأما الحماية من الظلم الداخلي فهو أمر يوجبه الإسلام ويشدد عليه، ويحذر المسلمين من أن يمدوا أيديهم على أهل الذمة بالأذى والعدوان، وقد تكاثرت النصوص في التحذير من ذلك وبيان قبحه وعظيم جرمه، وشدة عقوبة صاحبه في الدنيا والآخرة، فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين وقتلهم حرام، كما أن أموالهم وأعراضهم لها حرمتها في دين الإسلام، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**» رواه البخاري، وروى أبو داود والبيهقي عنه ﷺ قال: «**من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة**»، وروى الخطيب بسند حسن عنه ﷺ قال: «**من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**».

ولهذا اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم بدفع الظلم عن أهل الذمة وكف الأذى عنهم، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قبلهم، فكان عمر رضي الله عنه يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له «ما نعلم إلا وفاء»[٢] وهذا يقتضي أن كلاً من الطرفين وفى بما عليه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦١٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٠٣.

وكما حمى الإسلام أنفسهم من القتل فقد حمى أبدانهم من الضرب والتعذيب، ولو تأخروا أو امتنعوا من أداء الواجب عليهم كالجزية والخراج، فقد روي أن حكيم بن هشام ﷺ رأى رجلاً - وكان أميراً على حمص- يشمس ناساً من النبط في أداء الجزية- أي يوقفهم في الشمس تعذيباً لأنهم لم يدفعوا الجزية، فقال حكيم : ما هذا؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**» رواه مسلم.

وحرم الإسلام أيضاً إكراه أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم على الدخول في دين الإسلام، والضغط عليهم ليتحولوا من أديانهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[البقرة: ٢٥٦] قال الحافظ ابن كثير: «أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه»[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩]. فقد رفض الإسلام الإكراه والإلزام، بل دعا وبين وأرشد ووضح، فمن هداه الله وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه عن بينة ورضى وقناعة ومحبة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً.

هذه هي حقوق المعاهدين من أهل الذمة في ديار الإسلام أما الحقوق الواجبة عليهم فمراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم فلا يجوز لهم سب الإسلام ورسوله وكتابه، ولا أن يروجوا عقائدهم وأفكارهم أو أن ينشروا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤١٦.

الفساد بين المسلمين، وأن يشهروا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغيرها من المحرمات، فضلا عن بيعها والمتاجرة بها، ولا أن يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضان، ونحو ذلك.

كما أن عليهم الالتزام بأنظمة الدولة المسلمة وقوانينها التي تنظمها لأفراد شعبها، ولا تخالفها أو تتجاوزها، فإن خالفوا رُدعوا وعوقبوا بما يراه ولي أمر المسلمين أو من ينيبه.

المبحث الثالث: حفظ الفرج من الفاحشة

من الأمور التي صانها الإسلام ورعاها وحافظ عليها الأعراض، فحرم الوسائل المفضية إلى انتهاكها من النظر المحرم والخلوة المحرمة حتى لا تقع الفاحشة - عياذاً بالله عز وجل من ذلك- ثم حث على الأسباب المعينة على حفظ الأعراض ورعايتها، وحمايتها من أيدي العابثين، وجعل ذلك من الفلاح والخير في الدنيا والآخرة، وحذر من ضده وتوعد من وقع في حدود الله وانتهك حرماته.

يقول تعالى في ذكر صفات عباده المفلحين ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]، يقول الحافظ ابن كثير في تفسير الآيات: «أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومَنْ تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه

ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون»[1].

لقد جاء النهي عن فاحشة الزنا بأبلغ أسلوب وأعظم زجر وتهديد، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، معللاً ذلك بأنه عمل إجرامي متناه في القبح والفحش والشناعة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، جاء النهي هنا عن قربانه فضلاً عن الوقوع فيه، ليشمل ذلك مقدماته ووسائله المفضية إليه وطرقه المؤدية إليه، فسدت الشريعة الإسلامية بأحكامها الغراء كل طريق يوصل إليه، فحرمت خلوة الرجل بامرأة ليس لها بمحرم، وحرمت لَمْسَ من لا يحل له من النساء، ومتابعة النظر إليها، وحرمت استماع ما فيه خضوع ولين من أصوات النساء، وحرمت السفر لبلاد الكفار إلا لضرورة وحاجة مع البعد عن مواطن الشبه والريبة، كما أمرت المرأة بالحجاب والتستر، والحشمة والحياء، والعفاف والصيانة، أمرها بأن تغض من بصرها وصوتها، وأن تلزم بيتها فلا تخرج إلا لحاجة، فإن خرجت خرجت محتشمة متحجبة، غير متزينة ولا متعطرة.

وما كان تحريم الزنا والتغليظ الشديد على من فعله والوعيد الأكيد لمن وقع فيه إلا رحمة بالإنسانية وحفاظاً على المجتمعات وإبقاءً على الأفراد، فهو مدعاة إلى ضياع الأنساب واشتباهها واختلاط من ليس برحم بذي الرحم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣١٩.

ونحو ذلك، وهو مدعاة أيضاً إلى غرس الأحقاد والتباغض والتنازع وسفك الدماء واختلال الأمن، حين تكون الغريزة الشهوانية هي الحكم في عقول بعض من ابتلوا بهذا الأمر، فيقتل ويعتدي من أجل تحقيق مآربه.

هو مدعاة أيضاً لاختلال نظام الأسرة، وتفكك رباطها بين الزوجين الذين طُلب منهما أن يتعاشرا بالمعروف وأن يُعف كل واحد منهما صاحبه، ولا يخونه سراً ولا علانية، وفي الحديث«**عفوا تعِفَّ نساؤكم**» رواه الحاكم والطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والجزاء من جنس العمل، عياذاً بالله من الخزي والفضيحة، كما أنه سبب في هتك الأعراض وكساد النساء وانتشار الفاحشة، وهو سبب في انتشار الأمراض الفتاكة كما هو منتشر في هذه الأزمان بين مَنْ واقعوا الفاحشة، كما قرر ذلك الأطباء.

لهذا وغيره من أضراره الخطرة وشره المستطير جاء تحريمه والتحذيرُ منه والوعيدُ لمرتكبيه بألوان من العذاب المضاعف، يقول تعالى بعد أن ذكر جملة من الذنوب ومنها الزنا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠]، والله جل وعلا يغار، وغيرته أن تنتهك محارمه، ولا أحد أغيرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، وهل يجرؤ من لديه مَسْكة من عقل وإيمان على ارتكاب جريمة الزنا وقد سمع ما ورد فيه من الوعيد الشديد، وما تضمنه من الخزي والعار لأهله في الدنيا والآخرة.

روى البخاري في حديث منام النبي ﷺ عن سمرة بن جُندب رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال: **«فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، فإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا- أي صاحوا من شدة العذاب- فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الزناة والزواني من أمتك»**.

أما في الدنيا فإن عقوبة الزنا وحدَّه شنيعة وعظيمة، وفضيحة وخزي، غير المحصن جلد مائة وتغريب عام، والمحصن -أي المتزوج- يرجم حتى الموت، يقول عليه الصلاة والسلام: **«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتارك لدينه المفارقُ للجماعة»** رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**.

في مقابل الترهيب من هذه الفاحشة ووعيد مرتكبيها، فقد جاء الثناء على من حفظ نفسه وصانها من الوقوع فيها، وجاء الترغيبُ في حفظ الفروج، يقول عليه الصلاة والسلام: **«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»** رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما ثبت في الحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله،**

ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

وفي كلام الله تعالى أصدق وعد وخير ثواب، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ – ٧] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ – ١١].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم»[١]، ولهذا يقول ابن مسعود ﷺ «ما ظهر الزنا في قرية إلا أذن الله بهلاكها»[٢].

وكثرته وانتشاره من الفتنة والبلاء الذي يُعلم بقرب قيام الساعة، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحدٌ بعدي، سمعته من النبي ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر ويظهر الزنا، ويقل الرجال وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»، كما أن الوقوع في هذه الفاحشة سببٌ رئيس في ظهور الأمراض الفتاكة والأوبئة المستعصية، وهذا واقع مشاهد في هذه الأزمنة، وهذا مصداق حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه وصححه

---

(١) الجواب الكافي ١١٤.

(٢) الجواب الكافي ١١٤.

بعض أهل العلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافهم**» الحديث.

ومن ذلك الأمراضُ التناسلية، الإيدز والزهري والهربس وغيرها، مما هو محصلة الرذيلة ونتيجة الفاحشة، وقد ينتقل إلى الغير كالأبناء والأقارب عن طريق العدوى.

إن الإسلام بشريعته الغراء وأحكامه الشاملة لحياة الفرد والمجتمع سد جميع الطرق الموصلة إلى هذه الفاحشة، وحذر من ولوجها والسير فيها، لأنها لا محالة توقع من دخل فيها فيما حرمه الله تعالى، وهذا سرُ التعبير في الآية بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالنهي عن القرب أبلغُ وآكد من النهي عن الفعل، لأن من قارب الفاحشة وقع فيها إلا من رحم الله وقليل ما هم، ومن تلك الأمور التي ألزم بها الإسلام أهله خوفاً عليهم وصيانة لهم من الفاحشة إضافة إلى ما سبق ما يلي:

الاستئذان عند الزيارة وغضُ البصر، حتى لا تقع العين على ما يؤجج الفتنة في القلب ويثير كوامن الشهوة في النفس، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**» متفق عليه، وقدم تعالى الأمر بغض البصر على حفظ الفرج لأن البصر الطريق الموصل للفاحشة

الممهد لها، وذلك في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] الآية، وقال في حق النساء ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية، وروى أبو داود والترمذي وأحمد بسند صحيح عنه ﷺ قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأةٍ لله، أورث الله قلبه حلاوةً إلى يوم يلقاه**».

ومن ذلك النهيُ عن الجلوس في الطرقات والتسكع في الشوارع والوقوف على أفواه السكك للنظر فيما حرم الله وإطلاق البصر فيمن تُقبل وتدبر، وقد يقع أو يوقع غيره في مصيدة الفاحشة.

كما نهى الإسلام أيضاً عن سفر المرأة بدون محرم، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم**»، كما نهى أيضاً عن خلوة الرجل بامرأة لا تحل له، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**» إلى غير ذلك من الأسباب والوسائل التي نهى عنها الإسلام لأنها توصل إلى الفاحشة وتساعد على الوقوع فيها.

إن من القصص القرآني المليء بالعظات والعبر، والدروس والهدايات، قصة نبي الله يوسف عليه السلام بما تضمنه من مواقف وأحوال، في أمكنة وأزمنة متغيرة، تحمل في طياتها الفوائد والدروس، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولذلك كان ختام هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن تلك المواقف مراودةُ امرأة العزيز إياه طلباً لفاحشة الزنا معه، قال تعالى ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، يقول الحافظ ابن كثير مبيناً المعنى الإجمالي للآية: «يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف عليه السلام في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجُها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها وقالت هيت لك، فامتنع من ذلك أشد الامتناع وقال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله في الفاحشة في أهله إنه لا يفلح الظالمون»(١).

إن صبر يوسف عليه السلام عن الوقوع في الفاحشة وعفته عنها من أعظم أنواع الصبر الذي جاء في السورة، فإنه صبر حين ألقي في البئر، وصبر على بيعه بثمن بخس دراهم معدودة، وصبر على فراقه وبعده عن أبيه وتفريق إخوته بينهما، ولا يخفى ما بين الوالد وولده من وشائج المحبة وصلة العطف واللين وعلى هذا فصبره عن الفاحشة أعظم، وقد بين هذا الفيروزأبادي بقوله: «لقد كان صبرُ يوسف عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٢٢.

إلقاء إخوته إياه في الجب، وبيعهم إياه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه مشقة جرت عليه بغير اختياره، ليس للعبد فيها صلة غير الصبر.

أما صبرُه عن المعصية فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس ولا سيما مع أسباب تقوى معها داعيةُ الموافقة، فإنه كان شاباً، وداعيةُ الشاب إليها قوتُه، وكان عزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً والغريب لا يستحي في بلد غريبة مما يستحي منه بين أصحابه وأهله، ومملوكاً والمملوكُ ليس وازعُه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب، وقد غاب الرقيب، وهي الداعيةُ له إلى نفسها والحريصةُ على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته بالسجن إن لم يفعل.

فمع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه»[1].

لقد تضمنت قصة يوسف عليه السلام هذه درساً عظيماً في العفة من الفاحشة ومغالبة الشهوة والانتصار عليها، مما يعد أعظم مثل يقتدي به الكثير من الذين تنازعهم رغباتهم وشهواتهم إلى هذا الأمر، فقد كان ليوسف عليه السلام من الجمال الظاهر ما أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها حباً، وحين رأته النسوة أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن كما أخبر الله ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٧٥.

ومما يدل على مبلغ جماله وحسنه الهيئةُ التي رآها عليه نبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فإنه عليه الصلاة والسلام قال في وصف ما رآه تلك الليلة: «**ثم عُرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، قال: ففُتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير**» رواه مسلم.

لقد جمع يوسف عليه السلام بين الجمالين الظاهر والباطن، فإن النصوص قد بينت ما حباه الله به من جمال في الظاهر كما دلت أيضاً على جمال الباطن عنده، وهو العفةُ والإخلاص، والحشمةُ والانتصار على الشهوات والمغريات المحرمة، كما أنه حفظ عهده مع سيده وراعى حقه عليه ولم يخنه في أهله وقد أحسن إليه، قال تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فمن الظلم الواضح والتعدي الجائر خيانته بعد ذلك في أهله وهتك عرضه، وإن كان الداعي منهم وليس منه، ولا غرو أن هذا الجمال الباطن وما يظهر من آثاره أعظم وأرقى من جمال الظاهر.

ولهذا لما امتن الله على بني آدم باللباس الذي فيه سترهم وتدفئتهم وجمالهم أرشد تعالى إلى ما هو أعظم وخير عند الله عز وجل فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إن حافز الوفاء في قصة يوسف مع سيده كان مسبوقاً بالرقابة الإلهية لديه ومختوماً بها، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، مما جعله يترفع عن الإثم والفاحشة مع امرأة سيده.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، حين ظهرت براءته من مقدمات هذه الفاحشة والرغبة فيها، بل تآمرت سيدتُه عليه مع صاحباتها لاستمالته وتهديده بالسجن في حال رفضه، ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فما كان منه عليه السلام إلا أن أعرض عنهن بترفع وأنفة، وثباتٍ واستقامة، وفضَّل حياة السجن المحفوفة بالذل والهوان على العيش في كنف الترفِ والانغماس في الشهوات والمحرمات، قائلاً مناجياً ربه ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فكان أن استجاب له ربه فثبته وعصمه من الفاحشة وصرف عنه كيدهن، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليُبتلى بمحنةٍ أخرى وفتنةٍ جديدة، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٤-٣٥].

يقول بعضهم: «على الدعاة أن يُذكِّروا الناس لا سيما الشباب منهم بموقف نبي الله يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، إذ راودته عن نفسه، وكيف أنه استعصم وأبى ورفض ما أرادته منه، مع توفر الدواعي وقوتها الدافعة إلى إجابة طلبها.

فمن هذه الدواعي التي تجاوزها نبيُ الله يوسف عليه السلام واستعلى عليها أنه عليه السلام كان شاباً عَزَباً وفي بلاد غربة، وأنه رقيق في بيت سيده، وأن المرأة هي التي طلبته وراودته عن نفسه، والشأن في المرأة أن تكون المطلوبة لا الطالبة، وكانت ذات منصب وجمال، وراودته في بيتها، وهي وحيدة ليس في الدار غيرها وغيره، واتخذت الوقاية فغلقت الأبواب، وكان هو مملوكها فرفض طلبها، ثم استعانت عليه بالنساء الماكرات، ثم هددته بالسجن إن لم يطاوعها على الفاحشة بها، ومع هذا كله رفض رفضاً قاطعاً.

إن هذه الصورة المشرقة العالية جداً في العفة والاستعلاء على الرذيلة يجب أن تكون حاضرة في الأذهان، لا سيما أذهان الشباب ، وأن يتذكروها ولا ينسوها، ويستحضروها كلما أحسوا بتزيين الشيطان لهم فعل الفاحشة أو الاقتراب منها»[1].

ولي مع مفردات هذه الآية وبيان ما دلت عليه الوقفاتُ التالية:

الوقفة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣] أصل المراودة: الإرادةُ والطلب برفق ولين، والرودُ والرياد طلب الكلأ، وقيل: هي من رويد، يقال: فلان يمشي رويداً، أي: برفق، يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه، والرودُ التأني ، يقال أَرْوَدني، أي: أَمْهلَني.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان ٢٩٣.

فالمعنى هنا: أي طلبته ليقع بها فعل الفاحشة برفق ولين وتلطفٍ وإقبال عليه، وليس المراد أنها تقع من طرفين حيث إنها من المفاعلة، بل هي مفاعلة من واحد، نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب، وغير ذلك مما يكون الفعل من أحد الجانبين، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال لما كانت أسبابها صادرة من الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما.

الثانية: إنما عُدل عن التصريح باسم امرأة العزيز للمحافظة على الستر ما أمكن، وإما للاستهجان بذكرها، والإتيان بالاسم الموصول في قوله ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ مع ذكر البيت لتقرير المراودة، فإنه كان من جهتها لا من جهته، وهي الداعية إليه، ولإظهار كمال نزاهة نبي الله يوسف عليه السلام، فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها يبين هذا بجلاء كونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة.

أما إضافة البيت إلى ضميرها العائد إليها فلأن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهن القائماتُ بمصالحه الملازماتُ له، وخُرج على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[الأحزاب: ٣٣] وكثر في كلامهم: صاحبة البيت وربة البيت للمرأة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي: أبواب البيت، وتشديدُ الفعل للتكثير في الفعل، إن قيل بأن الأبواب كانت سبعة، أو لتكثير الفعل فكأنها غلقت مرة بعد مرة، أو بمغلاق بعد مغلاق، مبالغة في الإيثاق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أسرع وأقبل وهلم وتعال، فهي اسم فعل أمر، مبني على الفتح، وقيل هي معربة أصلها كلمة حُورانية وقيل عبرانية وقيل سريانية وقيل غير ذلك، وفي قوله ﴿هَيْتَ﴾ قراءات، فقد قرأ نافع وابنُ عامر بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ الباقون بفتح التاء والهاء من غير همز، غير أن ابن كثير ضم التاء، وفتح الهاء وكسرُها لغتان.

ففتح التاء «﴿هَيْتَ﴾ على المخاطبة من المرأة ليوسف على معنى الدعاء له والاستجلاب له إلى نفسها، على معنى: هلم لك وتعال يا يوسف إلي، وضمُ التاء «هيتُ» على الإخبار عن نفسها بالإتيان إلى يوسف، ودل على ذلك قراءةُ من همز، لأنه يجعله من تهيأتُ لك، تخبر عن نفسها متصنعة متهيئة[1].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: أعوذ بالله عز وجل معاذاً، والمعنى: ألتجىء بالله وأعتصم به مما تريدين مني، وهذا اجتنابٌ منه عليه السلام عن الفاحشة بها على أتم الوجوه، وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكر عظيم، يجب أن يعاذ بالله جل وعلا للخلاص منه، وما ذاك إلا لأنه قد علم بما أراه الله تعالى ما في هذا المنكر العظيم من غاية القبح ونهاية السوء.

ومن لم يمن الله عليه بالتوفيق والهداية ويعصمه من الوقوع في الفتن والشرور وقع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

---

(١) السبعة ٣٤٧، الحجة في القراءات السبع ١٩٤، حجة القراءات ٣٥٧.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] أي ربُ البيت وسيده أحسن منزلتي وأكرمني وائتمنني على بيته فلا أخونه في أهله، والعرب تطلق الرب على السيد والولي لأنه الذي رباه وأكرمه، وقد تعلل عليه السلام بهذا الأمر وفاءً لسيده مما عسى أن يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى البعد عنه بعد التجائه واعتصامه بالله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

قال الألوسي «والضمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ للشأن، وتصدير الجملة به من الإيذان بفخامة مضمونها ما فيه، مع زيادة تقريره في الذهن، أي: إن الشأن الخطير هذا، أي هو ربي وسيدي العزيز الذي أحسن تعهدي وأكرمني فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في أهله، وفيه أيضاً إرشادٌ لها إلى رعاية حق العزيز- بألطف وجه»[1].

وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد والسدي وابنُ أبي اسحاق، وذهب بعضهم إلى أن الضمير راجع إلى الله تعالى ، أي : إنه تعالى خالقي أحسن مثواي وأكرمني وعطف علي قلب العزيز الذي أمركِ بإكرامي، فكيف أعصيه جل وعلا بارتكاب هذه الفاحشة الكبيرة، ففي هذا تحذيرٌ لها من عقاب الله وشديد عذابه.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا تعليل منه عليه السلام

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢١٢.

عَقِب تعليل، تحذيراً لها من الفاحشة وإظهاراً لعفته واستعلاء على ما حرمه الله تعالى، فالفلاح لغة: الظفر وإدراك البغية، وفي الاصطلاح: الفوز بالمطلوب وهو الجنة، والنجاة من المرهوب وهو النار، فمن وقع في الفاحشة حرم الفلاح وباء بالخسارة والندامة، والظالمون يشمل كل من ظلم، كائناً من كان، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة، والعصاةُ لأمر الله دخولاً أولياً، وقيل الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم ولغيرهم، وقيل الخائنون لأنهم ظالمون لأنفسهم ولمن خانوه.

الثامنة: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن الداعي الأعظم ليوسف عليه السلام إلى ترك الفاحشة كان خوفه من الله تعالى لا الخوف من سيده، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وقوله هذا مما يبين محاسن يوسف ورعايته لحق الله تعالى وحق المخلوقين، ودفعه الشر بالتي هي أحسن، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان، كل منهما مستقل بالتحريم، فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج، وظلمُ الزوج في امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط ولو تاب إلى ربه من عمله، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك[1]..

إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج، وللزوج حق عنده، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد أنه يُمَكَّن يوم القيامة من حسناته، يأخذ منها ما شاء، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٣٨ وما بعدها.

الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت : ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال:أن تزاني بحليلة جارك»، ونزل موافقاً لذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] الآيات...

فلما كان الزنا بالمرأة المتزوجة له علتان، كل منهما تستقل بالتحريم، مثل لحم الخنزير الميت علل يوسف ذلك بحق الزوج، وإن كان كل من الأمرين مانعاً له، وكان في تعليله بحق الزوج فوائد : منها: أن تذكيرها بحق الزوج والسيد الذي أكرمه ورباه واعتنى به مانعٌ تعرفه المرأة وتعذره به، بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله تعالى في ذلك، ومنها: أن المرأة قد ترتدع بذلك فترعى حق زوجها إما خوفاً وإما رعاية لحقه، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك، لأنها خائنة في نفس المقصود منها.

ومن الفوائد أيضاً : أن قوله عليه السلام ﴿مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]مانع يجعلها تيأس منه، فلا تطمع فيه بنكاح ولا سفاح، ومنها: أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق زوجها والتزوج به، لأن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة، ولهذا إذا طلق امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها، ولو طلقها ليتزوج بها، كما قال سعد بن الربيع لعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما «إن لي امرأتين فاختر أيتهما شئت حتى أطلقها وتتزوجها».

لكن طلاقه امرأته بدون رضاه لا يحل ولا يجوز، كما في المسند عن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من خبّب امرأة على زوجها ولا عبداً على مواليه**» أي: أفسدها على زوجها وجعلها ترغب عنه وتطلب طلاقها منه ، كما حرم النبي ﷺ: «**أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ويستام على سوم أخيه**»، فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بها فكيف بعد العقد والدخول والصحبة.

فلو علل بأن هذا زنا محرم، ربما طمعت في أن تفارق زوجها وتتزوجه، فإن كيدهن عظيم، وقد جرى مثلُ هذا، فلما علل بحق سيده وقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ يئست من ذلك وعلمت أنه يراعي حق الزوج، فلا يزاحمه في امرأته البتة، ثم لو قدر مع هذا أن الزوج قد رضي بالفاحشة وأباح امرأته لم يكن هذا مما يبيحها، لحق الله ولحقه أيضاً، فإنه ليس كلُ حق للإنسان له أن يسقطه، ولا يسقط بإسقاطه، وإنما ذلك فيما يباح له بذلُه، وهو ما لا ضرر عليه في بذله.

المبحث الرابع: إتيان البيوت من أبوابها

قال ابن عباس رضي الله عنهما «سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم»[1]، وقال أبو العالية:

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٩١، الدر المنثور ١/ ٤٩٠.

«يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم»[١]، وهذه الطريقة في السؤال والجواب يسميها علماء البلاغة الأسلوب الحكيم، والمراد منه أن يجاب على غير ما سأل عنه السائل، تنبيهاً على أن الواجب عليه سؤاله عن مثل ما أجيب به، ولا يسأل عما لا فائدة منه أو ما لا حاجة إليه، فبروج الأهلة ومنازلها، تكون بدراً ونحو ذلك، مما لا فائدة في السؤال عنه، إنما الواجب معرفة الحكمة من خلقها والفائدة المرتبطة بها.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾[البقرة: ١٨٩] فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية»، وفي رواية أبي داود الطيالسي عنه قال: «كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت الآية» ، وقال الحسن البصري: «كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً ، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره فأنزل الله الآية»، وقال محمد بن كعب: «كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية»، وقال عطاء بن أبي رباح «كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾»[٢].

(١) جامع البيان ٢/ ١٩١، الدر المنثور ١/ ٤٩٠.
(٢) ينظر لما سبق تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٠٦، الدر المنثور ١/ ٤٩٣ .

فقد دلت هذه الأقوال والروايات على أنهم اتخذوا الدخول إلى بيوتهم حين قدومهم من حج أو غيره من غير أبوابها قربةً وديناً وعبادة، وهذا من مكائد الشيطان وخداعه لهم، وإلا فإنه لا علاقة لصنيعهم هذا بالبر والعمل الصالح، بل هو بخلافه وضد ما يأمر به.

وقد أبان الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى ما يستفاد من هذه الآية فقال: «قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ هذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها تعبداً بذلك وظناً أنه بر، فأخبر تعالى أنه ليس من البر لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ورسوله فهو متعبد ببدعة، وأمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيها من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية إلى أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصودُ أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصلُ به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧١.

لقد تضمنت الآية أمرين، أحدهما: أن كل ما ابتدع شريعة في دين الله عز وجل ولو بقصد حسن فإن بدعته ضلالة مردودة عليه، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه مسلم، أي: مردود عليه، ثم إن هذه البدعة مع كونها ضلالة فإنها تعتبر طعناً في الدين وعدم رضا بحكمه وتكذيباً لما دل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، لأن هذا المبتدع في دين الله كأنه يقول بلسان حاله: إن الدين لم يكمل حتى ابتدعت هذه البدعة.

وسواء كانت تلك البدعة في العقيدة أو القول أو العمل، يشمل الجميع قوله عليه الصلاة والسلام: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

إن هؤلاء المفتونين بالبدع والمحدثات في الدين من أبعد الناس عن السنة، فما أُحييت بدعة إلا وأُميت في مقابلها سنة، فالبدع أضرارها على القلوب عظيمة وأخطارها على الدين جسيمة، والمؤمن يستشعر دائماً أنه تابع لا مشرع، متبع لا مبتدع، وبذلك يحصل له كمال الخشية والخضوع والذل والعبادة لله رب العالمين، وبه تتم سعادته وطمأنينته في الدنيا مع الثواب العظيم والأجر الجزيل في الآخرة.

أما الأمر الثاني مما تضمنته الآية فهو إتيان البيوت من أبوابها، وهذه

قاعدة عظيمة وباب من التيسير والتسهيل مباركٌ على أهله العاملين بـه، وبـه فلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة، ومن أمثلة هذا طلب العلم حيث يأتيه من أبوابه الصحيحة فيحرص على حفظ القرآن وإتقانه قبـل البـدء في طلـب العلم، كما هو منهج سلفنا الصالح، يقول الوليد بن مـسلم «كنـا إذا جالـسنا الأوزاعي فرأى فينا حدثاً - أي غلاماً جديداً - قال تحفظ القرآن ، فـإن قـال نعم، قال: اقرأ، وإن قال: لا ، قال: اذهب احفظ القرآن ثم تعال اطلب العلم»[1].

فإذا حفظه اعتنى بحفظ السنة ومـا تيـسَّر لـه منهـا، يبـدأ مـثلاً بحفـظ الأربعين النووية ثم عمدة الأحكام ثم بلـوغ المـرام وهكـذا، ويعتنـي أيـضاً بمجالسة كبار أهل العلم ليأخذ عنهم ويفيد منهم خشية الله تعالى والفقـه في دينه، يقول الإمام أحمد: «طلب الإسناد العالي سـنة عمـن سـلف»[2]، وقـال محمد بن سيرين: «إن هذا العلـم ديـن فـانظروا عمـن تأخـذون ديـنكم»[3]، ويعتني في خلال ذلك بحفظ المتون والمراجعة والاجتهاد في التحـصيل، مـع دعاء الله تبارك وتعالى أن يمنحه الفقـه في الـدين وأن يوفقـه لـتعلم الكتـاب والسنة، بصدق لجأ وإخلاص لله تبارك وتعالى، فإنه إذا أتى بهذا وغيره نال ما طلب وحصَّل ما نوى من العلم النافع الذي يعقبه العمل الصالح.



(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ١٠٨.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ١٢٣، تدريب الراوي ٢/ ١٦٠.

(٣) مقدمة صحيح مسلم ١/ ١٤، طبقات ابن سعد ٧/ ١٩٤.



الفصل السادس

اجتناب المحرمات

المبحث الأول: الإعراض عن اللغو

جاء في وصف عباد الله المفلحين فيما تضمنته أول سورة المؤمنون، قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، واللغو في اللغة الفعل والقول الذي لا فائدة فيه وما لا يعتد به[1]، وما كان هذا وصفه من القول والفعل فهو محضور ممنوع، وشاع في الكلام الذي لا يورد عن روية وفكر، ويسمى الكلام القبيح لغواً.

وقد روي عن بعض المفسرين في معناه في الآية أقوال، حيث روى ابن أبي حاتم والطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الباطل، وروى عبدالرزاق والطبري عن الحسن أنها المعاصي، وروى ابن المبارك عن قتادة قال: «أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك»، قال الزجاج: اللغو يطلق على كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل[2].

فاللغو في الآية عام في كل باطل من الشرك والمعاصي وما لا يجمل من القول والفعل وما لا يعتد به من سيء الأحوال وقبيح التصرفات ويدخل في ذلك الغناء، وعباد الله المؤمنون المفلحون معرضون عن هذا كله، وإنما جاء التعبير بقوله: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ دون غيره كما قال الإمام الألوسي: «أي: في عامة

---

(١) لسان العرب ١٥/ ٢٥٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٦.

أوقاتهم.. مع ما فيهم من الاشتغال بما يعنيهم، وهذا أبلغ من أن يقال لا يلهون.. وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأساً، مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عُرض، أي ناحية غير عرضه»[1].

ومما يدل على أهمية هذا الوصف ووجوبه في حياة المؤمن ليكون من المفلحين وقوعه بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢ – ٤]، كما ذكره الله عز وجل في وصفهم في مواضع أخرى من القرآن، فعباد الرحمن من وصفهم «﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢] ، قال الإمام السعدي «قوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ هو الكلامُ الذي لا خير فيه ولا فائدة فيه دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم، وقوله: ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربؤوا بأنفسهم عنه، وفي قوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه، كما بين الله جل وعلا حالهم عند سماعهم اللغو والباطل وما لا خير فيه فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾»[2].

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥٣٥.

[القصص: ٥٥]، وقال الحافظ ابن كثير: «أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] أي: إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجوابُ عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم أنهم قالوا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها»(١).

إن الإعراض عن اللغو قولاً وعملاً، حالاً وسلوكاً مع أنه من صفات عباد الله المفلحين، فهو يحفظ على المؤمن إيمانه ويرسخه في قلبه، لأن مجالسة أهل اللغو من أصحاب المعاصي والفجور تضعفُ الإيمان وتقلل خشية الله ومراقبته من القلب، بل وتحبب إلى العبد الذنوب والمعاصي حتى يألفها ويواقعها، كما أنها تُضعف عنده إنكار المنكر والأمر بالمعروف، لأنه أحبه ووافق أصحابه فعز عليه نصحهم وإرشادهم والإنكار عليهم، ويعظم الأمر ويشتد خطورة إذا كانت مجالس اللغو مجالس بدع وضلال، وفتن شبهات، ولذلك حذر سلفنا الصالح من مجالسة أهل الأهواء والبدع والاستماع إلى كلامهم والنظر في كتبهم، لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ويصرفها كيف يشاء، ولا أحد يأمن على نفسه الفتنة والزيغ، ولهذا قال بعض السلف في دعاء إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن: ﴿وَاجْنُبْنِي

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣٣.

﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟»[١].

وإذا كان أحدنا يفر من الأماكن الموبوءة بالحشرات والأمراض ويتحصنُ منها خوفاً على نفسه، أفلا يكون خوفه على إيمانه وحرصه على دينه أن يسلب منه ويحيد عنه أشدَّ وآكد، كما أن في الإعراض عن مجالس اللاغين ترفعاً وتكرماً، إذا سبوه واستهزؤا به فإنه يمر بهم ولا يرد عليهم ولا يقابلهم بالسيئة والفحش، بل يعرض عنهم، وهذا مما يزيدهم غيظاً وكمداً، فيضعفهم ويوهن قواهم، كما أنه بتصرفه هذا يكون قدوة لهم ولغيرهم في مقابلة السيئة بالحسنة والخطأ بالصواب، وهذه الأمور تحتاج إلى مجاهدة وصبر واحتساب، والتوفيق بيد الله عز وجل، وهو القائل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فلا بد من مداراة السفهاء والإعراض عنهم وضبط النفس أمام استفزازاتهم وكفها عن الاستثارة لعوامل الغضب والانتقام.

إن اللغو خوضٌ في الباطل ووقوع في المعاصي وتحدثٌ بها ، وترويج للفواحش وتتبع للعورات، وانتقاصٌ للناس وتندر وسخرية بهم، وقد توعد الله أولئك بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، فالهماز الذي يعيب الناس ويطعن عليهم ويسخر بهم بالإشارة والفعل، واللماز الذي يعيبهم ويستهزىء بهم بقوله[٢]، ومع أنه جرم خطير ووزر عظيم ففيه أيضاً مضيعة العمر فيما لا فائدة منه وما خلق الإنسان من أجله وهو عبادة الله عز وجل،

---

(١) جامع البيان ٧/ ٤٦٠.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٦٨٦، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٦٩.

والخلافة في الأرض بالعمل المثمر الصالح والحياة النافعة.

إن النفوس المؤمنة يردعها قولُ الحق سبحانه ويزجرها نهيه الشديد وتخويفه الأكيد الصادق، في مثل قوله سبحانه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾[آل عمران: ١٨١]، وقوله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، ولما سأل سفيان بن عبدالله الثقفي ﷺ رسول الله ﷺ ما أخوفُ ما تخاف علي؟ فأخذ بلسانه وقال: «هذا» رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**» رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح، ولهذا رُوي عن عبدالله بن مسعود ﷺ قوله: «والله الذي لا إله إلا هو ليس شيء أحوج إلى سجن من لسان»[١].

المبحث الثاني: اجتناب الخمر والمسكر

جاء الإسلام بحفظ الضروريات الخمس وأكد عليها، وهي الدين والنفس والعقلُ والعرض والمال، وحرم كل ما يؤثر عليها أو يفسدها أو يقضي عليها، ومن ذلك العقل الذي هو هبة من الله عز وجل لبني آدم، به يميز الصحيح من الخطأ، والحق من الباطل والنافع من الضار، في أموره الدينية والدنيوية، ولذلك أمر الله أهل العقول بالتفكر في مخلوقاته والوقوف على آياته والنظر في أحكام الدين والتفقه في شريعته، وحرم سبحانه كل ما

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٥/ ٣٢٠، المعجم الكبير ٩/ ١٤٩، شعب الإيمان ٤/ ١٠.

يخل بالعقل أو يذهبه، فحرم الخمر والمسكر وكل ما له صلة به من مخدرات وغيرها، فمن تركها وابتعد عنها كان من المفلحين الناجين في الدنيا والآخرة.

فآية تحريم الخمر القاطعة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ – ٩١]، هذه هي المرحلة الأخيرة في تحريم الخمر، حيث سبقت ببيان اشتمالها على مضار ومنافع، كالربح في تجارتها ونحو ذلك مع بيان أن إثمها أكبرُ من نفعها، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، ثم حرمت وقت الصلاة ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] الآية، ثم نزلت آيةُ المائدة القاطعة بتحريمها واجتنابها، ولما نزل قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال الصحابة: انتهينا انتهينا، وأريقت الخمور في سكك المدينة سمعاً وطاعة لكلام الله عز وجل ورغبة في الفلاح الموعود به في الدنيا والآخرة، لمن تركها وانتهى عن شربها(١).

وقد ذكر المفسرون رحمهم الله تعالى روايات في سبب نزول الآية، منها ما رواه مسلم وأحمد عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «أتيت على نفر من المهاجرين والأنصار، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن

(١) ينظر: جامع البيان ٢/ ٣٦٩، الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٦.

تحرم الخمر، فأتيتهم في حُش، والحش البستان، فإذا رأسُ جزورٍ مشوي ودنٌ من خمر، فأكلت وشربت معهم، وذكرتُ الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجدع أنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأنزل الله في شأن الخمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية، وروى أحمد والنسائي والترمذي وأبو داود عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادي: لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الآية فدعي عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا».

ومما روي في سبب نزول الآية عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: «كان لي شارفان من نصيبي من المغنم يوم بدر، فأقبلت عليهما فإذا هما قد أجبت أسنمتُها وبقُرت خواصرهما وأُخذ من أكبادهما، فلم أملك عينيّ حين رأيت ذلك المنظر، وقلتُ من فعل هذا؟ فقالوا: فعله حمزه، وهو في البيت في شُرْب مع الأنصار، قال علي: فانطلقت حتى دخلت على النبي ﷺ وعنده زيد بن

حارثة، فعرف رسول الله ﷺ الذي أتيتُ له، فقال: **مالك؟** فقلت: يا رسول الله، ما رأيتُ كاليوم، عدا حمزةُ على ناقتيَّ فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرها، وها هو ذا في بيت معه شُرب.

قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه ثم انطلق يمشي، فاتبعتُ أثره أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن فأُذن له، فإذا هم شُرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرةٌ عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال : وهل أنتم إلا عبيد أبي، فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا» حتى نزل تحريم الخمر[1].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: «حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[البقرة: ٢١٩] الآية، فقال الناس : لم تحرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ ﴾، فكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[النساء: ٤٣] الآية، فكانوا يشربونها حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[المائدة: ٩٠] فقالوا: «انتهينا يا رب».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٦.

فقد تضمنت هذه الروايات في سبب نزول الآيات في تحريم الخمر أموراً كثيرة، منها تدرجُ التشريع وسماحةُ الإسلام في أحكامه، فإنه لما كانت نفوس العرب متعلقةً بالخمر وتتفاخر في ذلك ولا تكاد تنفك عنها، بين الله عز وجل طوراً أنها تشتمل على منافع، مثل الربح في المتاجرة بها وكانوا لا يرون المماكسة فيها، بل يشتريها طالبُها بالثمن الغالي، وهذا أصح ما قيل في منفعتها، وقيل: إنها تساعد على هضم الطعام وتقوي الضعيف وتشجع الجبان وتصفي اللون وغير ذلك، وبين جل وعلا أنها إثم حرام ولها مضار كثيرة ومفاسد عظيمة ، فهي سبب في المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش بل قد يصل الحد إلى القتل، وبها يزولُ عقل صاحبها الذي به يعرف ما أوجب الله عليه، كما أنها تعطل عن الصلوات وتصد عن ذكر الله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

ثم بعد ذلك حرم الله الخمر وقت الصلاة، إذ هي عبادة عظيمة يناجي فيها العبد ربه ويجد فيها الراحة والطمأنينة، وبها ينتهي عن الفحشاء والمنكر قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] الآية، فلما اطمأنت القلوب وثبت الإيمان فيها وتعلقت بالله وحده، راضية به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً جاء التحريم القاطعُ للخمر، فما كان من الصحابة رضي الله عنهم إلا الاستجابةُ لنداء الله عز وجل والسمع والطاعة له فقالوا: انتهينا انتهينا، قولاً وعملاً،

فأُريقت الخمور وكسرت الدنان حتى جرت بها سكك المدينة.

لقد عرف العلماء الخمر بأنها: ماء العنب أو التمر أو الشعير أو غيرها إذا غَلَى وطُبخ، وما خامر العقل فهو في حكمه، قال العلماء: وما أسكر كثيره فكثيره وقليله حرام، وإنما سميت الخمر بذلك لأنها تخالط العقل وتمازجه حتى تغطيه وتستره فلا يفيد صاحبه شيئاً، ويلحق به ما يجد في كل عصر ومصر من أنواع المسكرات والمخدرات من حبوب وإبر وحشيش وغير ذلك[1].

أما تحريمها والوعيد الشديد على من شربها فالأدلة على هذا كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ الآية، فإنها قد دلت على تحريم شرب الخمر والتأكيد على ذلك من وجوه: أحدها: تصدير الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر، فكأنه تعالى قال: لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه الأربعة.

الثاني: أنه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان، بل وقدمها عليها، مما يدل على شناعتها وفظيع جرمها.

الثالث: أنه تعالى أمر باجتنابها، وظاهر الأمر الوجوب، بل هذا أبلغ من الأمر بتركها، فإن معنى الاجتناب أن يكون في جانب ومنأى بعيد عنها، حتى لا يواقعها، من باب قطع الأسباب الموصلة إليها.

الرابع: أنه تعالى جعل اجتناب الخمر من أسباب الفلاح وقواعده، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة.

---

(١) ينظر: سبل السلام ١/ ١٩٥، نيل الأوطار ٩/ ٤٧.

الخامس: أنه شرح أنواع المفاسد المتولدة منها في الدنيا والدين، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق، وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، وكفى بذلك قبحاً لها وتوبيخاً لشاربها.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهو من أبلغ ما ينتهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما في الخمر من أنواع المفاسد والقبائح، فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف؟ أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ وتزجروا بمثل هذه الزواجر.

السابع: أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢] ظاهره أن المراد: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول في كل شيء، ومن ذلك ما تقدم ذكره من أمرهم باجتناب الخمر، وقوله ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: عن مخالفة هذه التكاليف ، وهذا نهي عن الاقتراب منها خشية الوقوع فيها، فإن من قارب الخمر فحضر مجالس أهلها وسافر إلى بلادهم استدرجه الشيطان واستزله حتى يشربها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] هذا تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف هذه التكاليف وأعرض عن حكم الله وأمره، والمعنى: أنكم إن توليتم فاقترفتم ما حرم الله وتجاوزتم حدود الله وانتهكتم محارمه فانتظروا عقاباً منه، لأن الحجة قد قامت عليكم، والرسول قد خرج من عهدة التبليغ والإعذار والإنذار، وأما ما وراء ذلك من عقاب من خالف هذا التكليف وأعرض عنه فذاك إلى الله

تعالى، ولا شك أن هذا تهديد شديد وتخويف عظيم[١].

وقد تظافرت النصوص من السنة الشريفة مؤكدة حرمة الخمر وعظيم إثم من شربها أو تعاون في ذلك، والوعيد الشديد والعقاب بجميع صوره وأشكاله لمن تعاطاها، مع بيان ضررها ومفاسدها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات ولم يتب منها وهو مدمنها، لم يشربها في الآخرة**» رواه مسلم، وروى أيضاً عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن على الله عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه الله من طينة الخبال، قيل: يا** رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: **عرق أهل النار أو عصارة أهل النار**»، وروى أحمد والنسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر**» وفي رواية «**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة مدمن الخمر والعاق لوالديه، والديوث وهو الذي يقر السوء في أهله**»، وفي الحديث: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة، مدمن الخمر ومصدق بالسحر وقاطع الرحم**» رواه أحمد.

كما لعن الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام شاربها ومن أعانه على ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لعنت الخمر بعينها، وشاربها وساقيها، وبائعها ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**» رواه أبو داود، وروى الإمام أحمد من حديث ابن

---

(١) التفسير الكبير ١٢/ ٨٧.

عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أتاني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومبتاعها، وشاربها وآكل ثمنها، وحاملها والمحمولة إليه، وساقيها ومستقيها»**، فدل هذان الحديثان على تحريم التعاون على هذا الإثم العظيم وغيره، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] فيشترك في ذلك مروجو المخدرات والعاملون فيها ومن يحملها ليسقيها متعاطيها ولو كان لا يشربها، ومالها سحت ملعون آكله.

كما بين عليه الصلاة والسلام أن شارب الخمر ناقص الإيمان ضعيف الخشية من الله تبارك وتعالى، ومن آثار ذلك تجرؤه على شربها وتعاطيها، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد»**، وفي الوعيد الشديد لمن شربها روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا مؤمن بسحر ولا قاطع رحم، ومن مات وهو يشرب الخمر سقاه الله من نهر الغوطة، وهو ماء يجري من فروج المومسات - أي الزانيات- يؤذي أهل النار ريح فروجهن»** ، فهي من كبائر الفواحش وعظائم الذنوب.

وروي أيضاً عن الصحابة ومن تبعهم بإحسان رحم الله الجميع آثار كثيرة تدل على تحريم الخمر وتزجر عنها، وتبين أضرارها ومفاسدها، وخطورة تعاطيها على شاربها ومن حوله، وتحذر من الاجتماع والتعاون عليها، يقول

ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزل تحريم الخمر مشى الصحابة رضي الله عنهم، بعضهم إلى بعض، وقالوا: حرمت الخمر وجعلت عدلاً للشرك» ، وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لا تعودوا شراب الخمر إذا مرضوا» رواه البخاري، إلا أن يتوب، فمن تاب تاب الله عليه، والمراد هجرهم والابتعاد عن مجالسهم كيلا يقع فيها ، وروى النسائي عن عثمان ﷺ قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً، قال: زيدوني ، فلم يرم -أي يبرح- حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه».

لقد حرم الإسلام جميع الوجوه التي قد يُنتفع بها عن طريق الخمر، ففي صحيح مسلم: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الخمر فنهاه عنها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: **إنه ليس بدواء ولكنه داء**» وتسميتها بغير اسمها لا يغير من حكمها شيئاً بل هي باقية على تحريمها، فقد أخبر النبي ﷺ عن حال هؤلاء بقوله: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ الله بِهِمْ الْأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ**

وَالْخَنَازِيرَ» رواه البيهقي وابن حبان عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

فلا غرو حينئذ أن يشدد الإسلام الحكم على متعاطي الخمر، فجعل حد الشارب أربعين جلدة، وللحاكم أن يعزره بأربعين جلدة أخرى، كلُ هذا لما اشتملت عليه من مضار وأخطار ذكرت طرفاً منها فيما سبق، بل هي قائدة إلى الشرور كلها وسبب في الوقوع في الفواحش لذلك سميت أم الخبائث، فهي الداعية إلى الفاحشة المذهبة للغيرة والحياء، المورثة للخزي والندامة في الدنيا والآخرة، كم أهاجت من حرب وأثارت من عداوة، كم أفقرت من غني وأذلت من عزيز ووضعت من شريف، كم سلبت من نعمة وجلبت من نقمة، وأوقعت في بلية وعجلت من منية.

كم أورثت من حسرة وأجْرت من عبرة، وكم فرقت بين الرجل وزوجه، وهدمت الأسر وضيعت الأولاد وشتت الشمل، فأي نفعٍ وأيُ خير يرجى من شراب هذه مضاره وعواقبه، وأي سلامة وعافية ترجى من شراب لعنه الله ورسوله.

وقد استدل جمهور أهل العلم بقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] على أن الخمر نجسةُ العين، فلا بد من تطهير الملابس أو البدن أو البقعة الواقعة عليها، قالوا: لأن الرجس يطلق في لغة العرب على النتن والعذرة والأقذار، وذهب طائفة إلى أنها طاهرة وإنما المحرمُ شربُها، قالوا: ولو كانت نجسة لما أراقها الصحابة في سكك المدينة فتتقذر بها ملابسهم وأرجلهم ونحو ذلك.

وأجاب الجمهور عن هذا بأن الصحابة إنما أراقوها في سكك المدينة لأنه يشق عليهم نقلها إلى خارج المدينة ولم تكن عندهم آبار كثيرة مهجورة حتى يريقوها فيها، كما أنه يمكن التحرز منها في الطرق حيث كانت واسعة، ولم تكن الخمر كثيرةً بحيث تصير نهراً تعم الطريق كله، مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طرق المدينة ليشيع العملُ على مقتضى تحريمها من إتلافها وعدم الانتفاع بها، وكلُ هذا واجب على الفور لا على التراخي، وعلى هذا فالراجح قول الجمهور[1].

كما استدل أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾، على أن هذا يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء من الوجوه، لا بشرب ولا بيع ولا دواء ولا نحو ذلك، وقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً أهدى لرسول ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: **هل علمت أن الله حرمها؟** قال: لا، فسارّ رجلاً، فقال له رسول الله ﷺ: **بم ساررته؟** قال: أمرته ببيعها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**» قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها، فلو كان فيها منفعة جائزة، لبينها رسول الله ﷺ، كما قال في الشاة الميتة «**هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به**» رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إن الحديث عن ظاهرة تعاطي المخدرات والمسكرات لا ينتهي والتذكير بخطرها وبيان ضررها والتحذير منها ليس له حدود، لأنها جائحة عمت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٦ وما بعدها.

العالم بأسره، فلم تعد قاصرة على بلد دون بلد، أو على شعب دون شعب، إلا من رحم الله فعصمه عنها، لقد أصبحت المجتمعات تعاني من هذه الآفة المستشرية بين أبنائها وذويها، فعرضتهم للأخطار والأوضار، وسلبت النعم وجلبت النقم، فهي آفة هذا العصر ومشكلة المشاكل في هذا القرن، فهي بداية النهاية، وسبب الخراب والأمراض وحصد الأرواح، إنها لَغَم يهدد الحضارة بالانحراف والقيم بالزوال والأخلاق بالفوضى والفساد.

لذلك فقد نالت هذه الظاهرة - وما زالت تنال- اهتمام وعناية الدول والهيئات الدولية كافة ، وتشغل مكافحتها أذهان المصلحين في العالم للوقاية منها، ودرء شرورها وأخطارها عن البشرية جمعاء، فعقد لهذا الغرض الكثير من المؤتمرات والاجتماعات وألقيت العديد من المحاضرات والندوات، وأبرم لأجلها الكثير من الاتفاقيات ، وكلها تؤكد عزم البشرية على محاربة هذه الآفة المستشرية ومقاومتها حتى لا يقع فيها أحد أفرادها، فمقاومُة هذا الخطر المحدق- خطر المخدرات والمسكرات- مسؤولية تضامنية ، لا تهم فرداً دون فرد، أو تعني دولة دون دولة، بل لا بد من تضافر الجهود وحشد الطاقات كل في موقعه وحسب إمكانياته وقدراته لمحاربته والتحذير منه وبيان الأسباب الموقعة فيه وطرق العلاج منه.

إن المخدرات والمسكرات بمفهومها الواسع تشمل كل ما يسبب النوم والنعاس، أو الفتور والاسترخاء، أو غياب العقل وذهابه، سواء كانت أصولها طبيعية كالحشيش والأفيون والقات، أو كانت كيميائية مصنعة، مثل الهروين عن طريق الإبر أو الحبوب أو الشم أو المساحيق وغيرها، وسواء

كانت سائلة أم جامدة، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الخمر يدخل فيه كل مسكر، مائعاً كان أم جامداً، عصيراً أو مطبوخاً، لأن هذا كله خمر بنص رسول الله ﷺ الصريح الصحيح الذي لا مطعن في سنده، إذ صح عنه قوله: «**كل مسكر خمر**»[١]، وقال الصنعاني: «إنه يحرم ما أسكر من أي شيء وإن لم يكن مشروباً كالحشيشة»[٢].

وقد يحتج بعض الجهلة بأن هذه المخدرات والمسكرات الحديثة لم يرد فيها نص قاطع بتحريمها، وفي الجواب عن هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «وأما قول القائل: إن هذه ما فيها آية ولا حديث ، فهذا من جهله، فإن القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هي قواعد عامة وقضايا كلية، تتناول كل ما دخل فيها، فهو مذكور في القرآن والحديث بوصفه، وإلا فلا يمكن ذكر كل شيء باسمه الخاص»[٣]، وقال الإمام القرطبي: «لو التزمنا أن لا نحكم حتى نجد فيه نصاً لتعطلت البشرية، فإن النصوص فيها قليلة، وإنما هي الظواهر والعموميات والأقيسة»[٤].

ثم إن أهل العلم ذكروا أن من استحل شرب الخمر والمسكر بجميع أنواعه فإنه يستتاب فإن تاب فبها ونعمت، وإلا قتل مرتداً، لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، لأنه قد استحل حراماً مجمعاً على تحريمه، يقول

---

(١) زاد المعاد ٥/ ٦٦٠.

(٢) سبل السلام ١/ ١٩٥.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٠٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٦.

شيخ الإسلام ابن تيمية «والحشيشة المسكرة حرام، ومن استحل السكر منها فقد كفر»، وقول النبي ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام**» يتناول ما يسكر، ولا فرق بين أن يكون المسكر مأكولاً أو مشروباً، أو جامداً أو مائعاً، فلو اصطبغ كالخمر كان حراما، ولو أماع الحشيشة وشربها كان حراماً، ونبينا ﷺ بعث بجوامع الكلم، فإذا قال كلمة جامعة كانت عامة في كل ما يدخل في لفظها ومعناها، سواء كانت الأعيان موجودة في زمانه أو مكانه أو لم تكن»[1]، فالقائل بحل هذه المحرمات لا يخلو، إما أنه مخدوع جاهل أو مكابر معاند.

لقد جاء الأمر باجتناب الخمر ويلحق بها غيرها مما يسكر، وهو أبلغ من الأمر بتركها، وذلك يقتضي البعد عن أسبابها المفضية إليها والطرق المؤدية إلى الوقوع فيها، فمن الأسباب التي تدفع إلى شرب الخمر وتعاطي المخدرات والمسكرات ما يلي:

١- ضعف الإيمان وقلة الخوف من الله عز وجل وعدم اللجوء إليه في السراء والضراء، والشدائد والمحن، فلو تمسك المسلم بدينه وقوي إيمانه لما أقدم على ارتكاب هذه المعصية، ولهذا فقد نادى الله تعالى أهل الإيمان أن يجتنبوها مع غيرها، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فناداهم بوصف الإيمان أولاً المستلزم التصديق بأمر الله والسمع والطاعة له، ثم ختم الآية بوعدهم الفلاح في الدنيا والآخرة إن هم اجتنبوها، وجاء في الحديث الصحيح «**ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**».

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٤/ ٢٠٤.

٢- الصحبة السيئة ومجاراة أصدقاء الشر، فإنهم يؤزون إلى الحرام ويحببون فعل المعصية وينسون العواقب الوخيمة، فلا يزالون بصاحبهم يستدرجونه شيئاً فشيئاً حتى يواقعها معهم ويسير في ركابهم من أجلها.

٣- الجهل في اعتقاد أن المخدرات تزيد في القدرة على العمل أو تعين على الاستذكار أو تفيد السهر والنشاط وهذا بلا شك مخالف للحقيقة والواقع، وقد دلت الإحصائيات والنتائج أن ما تخلّفه من الأضرار أضعاف أضعاف.

٤- السفر إلى بلاد الكفار، حيث يعيش العبد في حمأة الشر ومراتع الفتن، فيجد تلك الشرور ميسورة مبتذلة، فيقع فيها من حيث لا يشعر، وبخاصة مع قلة الخوف من الله تعالى وغفلة الرقيب عنه.

٥- وفرة المال وكثرته بين يدي الشباب والمراهقين مع عدم الرقابة عليهم من لدن والديهم والمسؤولين عنهم.

٦- التقليد الأعمى وحب الظهور والرغبة في الاستطلاع والتجربة، كي ينظر تأثيرها وفائدتها، فإذا وقع في شباكها صعب عليه الانفكاك منها، إلا من رحم الله.

إن الوقاية من خطر تعاطي المخدرات والمسكرات ودفع شرها وضررها يحتاج إلى تضامن الهيئات وتكاتف الجهود والتخطيط الشامل له، حتى لا يفقد العمل قيمته، وتتمثل تلك الوقاية فيما يلي:

أولاً : التوعية الدينية، وذلك بتقوية الإيمان في النفوس واستحضار رقابة الله تعالى واطلاعه على كل شيء، فهو جل وعلا الذي لا يخفى عليه

شيء في الأرض ولا في السماء، يعلى السر وأخفى، إن ترسيخ هذه العقيدة وتقوية الإيمان هو الطريق الأقومُ لتحصين النفوس من شَرَكِ المخدرات والمسكرات، وهو السد المنيع لحمايتها من التقليد الأعمى والاستجابة لهوى النفس ووسوسة الشيطان.

التوعية الدينية تُستمد من هدي النبي ﷺ وتقوم على الإقناع بأن الإسلام هو أساس الحياة المستقرة الآمنة، ويتضمن في شريعته الراحة والطمأنينة، ويتولى هذه المهمة فريق متكامل من علماء الشريعة بالتعاون مع علماء النفس والاجتماع والطب وغيرهم، ممن لهم صلة بهذه القضية، كما أن التوعية الدينية تحتاج إلى إعداد محكم وتخطيط مرتب لأهداف يمكن تحقيقها وتنفيذها، ويجب ألا تتسم تلك التوعية بالتخويف والتشديد والمبالغة، بل لا بد من الجمع بين الترغيب والترهيب، بين فتح باب الأمل والدعوة إلى التوبة وبيان سعة رحمة الله تعالى، وبين التخويف من عقابه والتحذير من عذابه وذكر آثار تعاطي هذه المخدرات والمسكرات وضرب الأمثال على ذلك، كما تتضمن الحث على تحقيق مقام التقوى والتزام أحكام الإسلام والاستقامة على الفضيلة.

كما ينبغي أن تكون التوعية الدينية ذات طابع عام يتسم بالبساطة والتدليل والتعليل، حتى يدركها العامة والخاصة، كما يلزم أن تلزم الاستمرارية والدوام وعدم التقطع والفتور، مع مراعاة أحوال الناس وينبغي في هذا المجال الارتفاعُ بمستوى الدعاة والوعاظ وأئمة المساجد وحسنُ اختيارهم

وإقامة الدورات لرفع كفاءتهم، حتى يؤدوا واجبهم في المساجد ودور التعليم ووسائل الإعلام، كما تتطلب التوعية الدينية لهذا الصنف من الناس فهم الداعية كل ما يتصل بمشكلة إدمان المخدرات وأسباب ذلك وطرق علاجه والوقاية منه.

إن تربية المسؤولية في الفرد تجاه مجتمعه ومحبته له وغيرته عليه سيدفعه ولا شك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية، والذي يعتبر من أبرز خصائص هذه الأمة ومناط خيريتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. الآية، فإذا أقيمت هذه الشعيرة العظيمة تحصن المجتمع المسلم عن الرذائل والشرور، وتخلص عن القبائح والذنوب.

إن الواجب المنوط بالعلماء وطلبتهم تجاه المجتمع من حيث التوجيه والإرشاد عظيم وكبير، بالكلمة الطيبة والنصيحة الصادقة والتوجيه الهادف، مع تدعيم ما يقال بالحقائق العلمية حول مضار المخدرات، وبيان حكم تعاطيها والتعاون عليها في الإسلام والوعيد الشديد المرتب على هذه الأعمال، كل هذا في قالب مناسب للعقول والأفهام، واستثارة الحواس والإدراك.

ثانياً: وضع التشريعات الوقائية، وتتولى ذلك في كل بلد الهيئات القضائية والمؤسسات الأمنية والصحية، وذلك بإقامة حد المسكر على متعاطيه إذا توافرت الشروط، أو يعزر حسب ما يراه القاضي، والمؤسسات الأمنية أيضاً مطالبة بوضع الضوابط الأمنية والخطط العسكرية التي تكفل عدم

تداول المخدرات والمسكرات وتعاطيها، وتقوم بدور المراقبة والمحاسبة عن طريق بعض أجهزتها كحرس الحدود والإدارة العامة لمكافحة المخدرات بالتعاون مع مصلحة الجمارك التي تعمل في المطارات والطرق البرية والموانىء الساحلية.

ولا شك أنه بتظافر الجهود وبعد توفيق الله عز وجل ستتم ملاحقةُ المهربين والمروجين والقبضُ عليهم وتقديمهم للمحاكمة وتطهير المجتمع من شرورهم، والقبض أيضاً على متعاطي هذه السموم وتطبيق حكم الله تعالى فيهم، أو بتحويلهم للمستشفيات الخاصة لمساعدتهم على التخلص من هذه السموم القاتلة، كما يتم استلام البلاغات من أفراد المجتمع عن أية حالة تعاطي مخدرات ومسكرات حتى تتولى الجهات المعنية القبض عليهم وإحالتهم إلى الجهات المختصة لمحاكمتهم، ومن مهام تلك الهيئات والمؤسسات مراقبة كافة المواد التجارية الواردة إلى البلد، وفرض الرقابة الشديدة على الأماكن المتوقع وصول المخدرات منها وإليها وكيفية التعامل مع مهربي هذه المواد ومعرفة أماكن تخبئتها، ومتابعة الأماكن التي يرتادها الأحداث وأيضاً المواقع المهجورة.

كما أن الهيئات الصحية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية مطالبةٌ بنشر التحذيرات الوقائية وبيان الأضرار المترتبة على تناول المخدرات والمسكرات، وذلك عن طريق المحاضرات والندوات، والمؤتمرات واللقاءات، ونشر الملصقات والنشرات التعريفية، بالأرقام والإحصائيات ، ويجب أيضاً أن

يكون العاملون في هذين القطاعين الصحي والاجتماعي على مستوى عالٍ وكفاءة علمية متميزة تمكنهم من التعامل مع هؤلاء المدمنين، للأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة وتصحيح أوضاعهم وإصلاح أحوالهم.

ثالثاً: مسؤولية البيئة الاجتماعية، ولها ثلاثة محاور، الأسرة والأصدقاء والمجتمع، أولها: الأسرة التي تعتبر إحدى لبنات المجتمع ومن مكوناته، فيها ينشأ الأبناء ويتمثلون بآبائهم وأمهاتهم عن طريق المحاكاة والتقليد، وتتطبع سلوكياتهم بالدور الذي يمارسه كل من الأب والأم معهم، وإذا كانت تنشئتهم وتربيتهم متوافقة متكاملة مع مبادىء الإسلام وقيمه وآدابه ومُثُله انعكس ذلك عليهم بالصلاح والهداية، والاستقامة على منهج الله، وإن كانت الأسرة بخلاف ذلك من انعدام القدوة الصالحة وفقدان التربية الإسلامية المتكاملة مع ما ينضم إلى ذلك من خلاف بين الزوجين وكثرة الشقاق والخلاف بينهما ضاع أولادهم في دروب الضلال وتاهوا في طرق الغواية.

فينبغي على أرباب الأسر مراقبة أبنائهم وبناتهم مراقبة مستمرة بلا إفراط ولا تفريط، بل بحكمة تامة وأسلوب هادئ متوازن، أداء لأمانة رعايتهم ووفاء بالواجب المنوط تجاههم.

ويتبع ذلك التحذير من رفاق السوء، فقد ثبت من خلال الدراسات والتجارب أن المرء يتكيف سلوكه ويتخذ طريقه في هذه الحياة حسب المجموعة التي تحيط به، وأن للصداقات الخاصة أثراً عميقاً في توجيه النفس والعقل، ولها آثارها التي لا تنكر على مصاحبهم في العاجل والآجل، وصدق

عليه الصلاة والسلامُ القائل: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لذا فقد عُني الإسلام بهذه الصلات التي تربط الفرد بغيره وتؤثر فيه وتوجهه إما إلى الخير وإما إلى الشر، فهذه الصلات والصداقات إن بدأت ونمت نبيلة وصالحة باركها الإسلام وحث عليها، وإن كانت سيئة مهينة ردت في وجوه أصحابها ولم يجنوا منها سوى الحسرة والندامة، يقول تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٧ – ٦٨].

إن أثر الصديق في صديقه عميق وعظيم، ومن ثم كان لزاماً على المرء أن ينتقي أصحابه وأن يبلو حقائقهم حتى يطمئن إليها ويثق في معدنها، فإن كانوا قرناء خير أعانوه على أداء الواجب وحفظ الحقوق، وحجزوه عن السوء واقتراف الحرام، وكانوا له قدوة صالحة في فعل الخير، وليحذر كل الحذر ممن يزينون له طرق الغواية أو يسترسلون معه في أسباب اللغو واللهو، وما أسرع أن يسير الإنسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه، وللعدوى السيئة سريانها في النفوس والعقول حتى تفتك بها وتلقيها في مهاوي الردى، لذا فقد أمر عليه الصلاة والسلام بتخير الجليس فقال: «**مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده، أصابك من دخانه**» رواه أبو داود.

وجاء في سيرة معاذ بن جبل ﷺ قوله لما حضرته الوفاة «اللهم إني لم أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لجري الأنهار، إنما أحببت الدنيا لصيام الهواجر- أي: الأيام الحارة-، وقيام الليالي المظلمة ومزاحمةِ العلماء بالركب، ومجالسةِ أناس ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر»(١).

والمجتمع أيضاً عليه واجب عظيم تجاه هذه المسألة، بجميع هيئاته ومؤسساته وأفراده، يشمل ذلك المدرسة والمسجد وقطاعات الدولة وغيرها، لأن المجتمع المسلم امتاز بميزات لا تتوفر في غيره، فهو يقيم بنيانه على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ والانقياد لأمر الله وتحكيم شرعه وبذلك تكون الحياة الطيبة والسعادة الهانئة، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] الآية، ويقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

يتواصى أفراده فيما بينهم بالحق، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبهذا يكون الخير والفلاح، كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطُرُنَّه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم**» رواه أبو داود.

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨، تاريخ دمشق ٥٨/ ٤٤٩، مدارج السالكين ٢/ ٢٨٢.

فالمجتمع الذي يقيم هذه الشعيرة العظيمة ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية لا يقبل أن ينتشر في ربوعه أي نوع من أنواع الفساد، ولا يرضى أن يدخل في بيئته من يروجه وينشره، بل يزدري أصحابه ويضيقُ عليهم الخناق، ويسرعُ بالتبليغ عنهم إلى السلطات المسؤولة ليأخذوا جزاءهم ويكونوا عبرة لغيرهم.

إن المؤسسات التعليمية لها دورها الذي لا ينكر في مكافحة المخدرات والوقاية منها بين أبنائها الطلاب وبناتها الطالبات، بل إن دور التعليم تسهم في علاج هذه المسألة والوقاية منها بما تعجز عنه الأسرة وهذا مشاهد، ولا يتم لها ذلك إلا بغرس الإيمان في نفوس الناشئة وتعاهده، وتعظيم خشية الله في قلوبهم واستحضار رقابته في كل زمان ومكان، كما قال القائل[1].

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفلُ ساعة ... ولا أن ما تخفي عليه يغيب

ويجب أيضاً أن يكون المعلمون على مستوى رفيع وقدرة عالية في تحذير طلابهم من هذا السم القاتل وبيان أضراره وأسبابه الموقعة فيه، مع ضرب المثل وذكر الإحصائيات والأرقام، وإجراء البحوث والدراسات على المدمنين وأسرهم لبيان معرفة واقعهم وأحوالهم السيئة.

كما أن الإعلام بجميع قنواته المقروءة والمسموعة والمرئية يتحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية توعية الناس بخطر المخدرات والمسكرات وبيان آثارها

(١) تاريخ دمشق ١٣/ ٤٥٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٩٨.

السيئة وعواقبها الوخيمة، وله أثره الفاعل ولا شك إذا تناول هذه القضية بالمناقشة والتحليل الدقيق الذي يبين أضرار المخدرات ويبرز الطرق التي تساعد الأفراد على التخلص منها، وذلك عن طريق الندوات المرئية أو المحاضرات الدينية أو الحوارات الطبية ونحو ذلك.

كذلك يجب فرض رقابة صارمة على الأفلام الرديئة التي تعرض الفجور وتعاطي المخدرات والخمور في صور مغرية ومضللة لمن يراها، ومحاربة جميع الدعايات التي تحببها إلى النفوس وتحثها على الوقوع فيها، ولابد أن تحدد الأهداف وتوضعَ الخطط المناسبة، بحيث تعرض بصورة علمية وطريقة جذابة، يلاحظ فيها التوقيت الملائم وتوفير المناخ المناسب مع اختيار نوعية التخاطب وسلامتها.

كل هذه الجهود إذا تظافرت وتعاونت تحقق مطلوبها ونالت مبتغاها، ألا وهو الوقاية من خطر المخدرات والمسكرات قبل وقوعها، فإن وجد من يتعاطاها اجتُهد في علاجه واحتضانه والأخذ بيده إلى طريق النجاة والسلامة، فلا نكون عوناً للشيطان عليه، نرجو له الفلاح والخير الموعود به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].



الفصل السابع
المحرومون من الفلاح

المبحث الأول: الكاذبون القائلون على الله بلا علم

إن أعظم أنواع الكذب وأكبر المحرمات في دين الله عز وجل الكذبُ على الله سبحانه وتعالى، بجميع صوره وأشكاله، ولذلك عدَّه تعالى أعظم من الشرك به، وختم به المحرمات الخمس في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، قال الإمام السعدي رحمه الله تعالى: «ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار، التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب كالكبر والعجب والرياءِ والنفاق ونحو ذلك.

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي توجب الإثم، أي: توجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوبُ المتعلقة بحق الله، والمتعلقةُ بحق العباد، قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد، والشركُ أن يشرك مع الله في عبادته أحداً من الخلق، وربما دخل في ذلك الشركُ الأصغر كالرياء والحلفِ بغير الله ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكلُ هذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله والاستطالةِ على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه»[1].

فالقول على الله تعالى بلا علم كذبٌ وجرأة عليه، ولا يقع في هذا إلا ظالم مجرم، حرم نفسه الفلاح والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة، بل رضي على نفسه بالخسارة والندامة وعرضها للعقوبة والنكال، وقد جاء بيان هذا في أربعة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنعام: ٢١]. قال الشيخ السعدي: «أي لا أعظم ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعا، افتراءُ الكذب على الله والتكذيبُ بآياته التي جاء بها المرسلون، فإن هذا أظلمُ الناس، والظالم لا يفلح أبداً، ويدخل في هذا كلُ من كذب على الله بادعاء الشريك له والمعين، وزعم أنه يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكلُ مَنْ رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم»[2].

وذكر بعضُهم من صور الكذب الله ادعاء المشركين أن معبوديهم شركاءُ الله، وأن الله تعالى أمرهم بعبادتهم والتقرب إليهم، أصناماً أو أشجاراً أو

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢١٥.

قبوراً أو أضرحة، ومن ذلك قولُ الكفار الملائكة بناتُ الله، ونسبوا إليه تعالى تحريم البحائر والسوائب، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨] ومما قيل في تفسير الآية طوافُهم بالبيت عراة لمن لم يكن من الحمس أهل مكة.

ومن الكذب على الله تعالى مع قبحه وشناعته ما ذكره الله عن اليهود بقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[المائدة: ٦٤] ، وقوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[آل عمران: ١٨١ - ١٨٢]. ومثلُ هذا ما رواه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «قال النضر وهو من بني الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى- كذباً وافتراء، وهزواً واستكباراً، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢١]»[1].

أما الموضع الثاني فقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[يونس: ١٧]، ففي سورة الأنعام وصفهم بأنهم ظالمون وهنا بأنهم مجرمون وحكم عليهم بعدم الفلاح.

---

(١) التفسير الكبير ١٢/ ١٩١.

قال الإمام ابن جرير الطبري «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين نسبوك فيما جئتهم به من عند ربك إلى الكذب أيُّ خَلْقٍ أشدُ تعدياً، وأَوْضَع لقيلِه في غير موضعه ممن اختلق على الله كذباً وافترى عليه باطلاً، وقولُه: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ يعني: بحججه ورسله وآيات كتابه، يقول له جل ثناؤه: قل لهم: ليس الذي أضفتموني إليه بأعجب من كذبكم على ربكم وافترائكم عليه وتكذيبكم بآياته، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقول: إنه لا ينجحُ الذين اجترموا الكفر في الدنيا يوم القيامة، إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح»[1].

فالآية لها ارتباط بما سبقها من الآيات التي فيها طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو أن يبدله لهم، وقد رد عليهم طلبهم هذا بأن القرآن وحيُ الله إليه وليس من تلقاء نفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍۢ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٦].

يقول الرازي مبيناً ارتباط هذه الآية بما قبلها «واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآناً يذكره من عند نفسه، ونسبوه

---

(١) جامع البيان ١٢/ ١٤١.

إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله تعالى وتنزيله، فعند هذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، والمراد: أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان في الدنيا أحدٌ أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولمَّا أقام الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو بوحي من الله تعالى، وجب أن يقال إنه ليس في الدنيا أحدٌ أجهلَ ولا أظلمَ على نفسه منكم، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله، فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله، فوجب أن تكونوا أظلمَ الناس»[1].

وهنا ذكر أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي سرَّ ختم آية الأنعام بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] وختم سورة يونس بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] بأن الكفار لما جمعوا بين إنكارهم على النبي ﷺ دين الله وكتابه، وبين قولهم في إنكارهم ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ كان هذا منهم أعظم إقدام وأوضحَ إجرام، لأنه كفر على علم، فناسب ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، ولما لم يكن هذا في سورة الأنعام من إقدامهم على الجمع بين هذين الأمرين، وإنما تقدم عداوتهم وظلمُهم لأنفسهم ناسب ختامُ الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

أما الموضع الثالث الذي نفى فيه تعالى الفلاح على من افترى عليه الكذب

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٦١.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٣١ وما بعدها.

وتقوّل عليه، فهو قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٨ – ٧٠] فقد تضمنت الآيات إحدى مقولات المشركين الباطلة، حين زعموا أنه جل وعلا اتخذ ولداً، تعالى وتقدَّس عما يقولون علواً كبيراً، وقد رد عليهم مقالتهم هذه وفندها بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

وقد أبان ذلك أتمَّ البيان الإمام السعدي رحمه الله تعالى بقوله «يقول تعالى مخبراً عن بُهت المشركين لرب العالمين ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾أي تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعدة براهين:

أحدها: قوله «هو الغني» أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار، من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه فلأي شيء يتخذ الولد؟ ألحاجة منه إلى الولد؟ فهذا مناف لغناه، فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني: قوله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ٢٥٥] وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع

مخلوقون عبيد مماليك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً، فملكيته لما في السموات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث: قوله ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾[يونس: ٦٨] أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أنه لله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجَّزهم على إقامة الدليل علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قولٌ بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٨] فإن هذا من أعظم المحرمات. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[يونس: ٦٩] أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصلُ لهم مقصودهم، ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٧٠] إنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويُرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١١٧]»[1].

ما أعظم الجرأة والتقول على الله بلا علم، وأخطرُ منه الكذب على الله تعالى والافتراء عليه، مثل ما زعمه المشركون هنا من أنه جل وعلا قد اتخذ ولداً، وردَّه تعالى عليهم في موضع آخر من القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣٢٥.

يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٥].

أما الموضع الرابع الذي حكم فيه جل وعلا بعدم الفلاح والفوز والنجاح لمن افترى عليه الكذب فقوله تعالى في سورة النحل ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦ – ١١٧]، قال الحافظ ابن كثير: «نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ ويدخل في هذا كلُ من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، و «ما» في قوله ﴿لِمَا تَصِفُ ﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]. أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]»[١].

فمن صور الافتراء والكذب على الله تحليلُ ما حرمه وتحريم ما أحله

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٧٨.

والخوضُ في ذلك بلا علم، ولكن وللأسف خاض في هذا الباب أقوام بلا علم، وزلت فيه أقدام بلا حساب، كل ذلك استجابة لهوى النفوس وشهواتها وحظوظها، أو تمسكاً بمكانه ومنزلته بين الناس، فخشي إذا سئل في حضور منهم أن يقول لا أعلم، فيفقد ما حصَّله عندهم، ولذلك قال بعض أهل العلم «إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله»(١) وقيل: من أخطأ الله أعلم اجتمع فيه الشر كله.

إن من تقوى الله تعالى وتعظيمه وخشيته أن يتوقف العبد فيما يُسأل عنه، فإن كان يعلم الحكم الصحيح أفتى به وعلمه السائل، وإن كان لا يعلم قال لا أعلم ونحو ذلك، فلا يتقدم بين يدي ربه ولا يقول عليه ما لا يعلم، وقد كان نبينا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام يسأل عما لم ينزل عليه فيه وحي، فينتظر حتى ينزل عليه الوحي، كسؤال المشركين إياه عن الفتية أصحاب الكهف وعن ذي القرنين الذي ملك ما بين المشرق والمغرب، وعن الروح، فأجابهم عن الأولى والثانية بوحي الله تعالى، أما الثالثة فأخفى تعالى علمها عن خلقه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

وسألوه عن الساعة فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[الأعراف: ١٨٧] الآية، وسأله المسلمون عما أحله الله لهم فنزل قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم

(١) أحاديث في ذم الكلام وأهله ٣/ ١٧٠.

﴿مِنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤] الآية.

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم تُعرض عليهم المسألة لا يدرون حكم الله فيها فيهابون القول فيها ويتوقفون عن الفتيا وإصدار الحكم فيها، هذا أبو بكر ﷺ كان يقول: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله بغير علم»[١]، وكان عمر ﷺ تنزل به الحادثة فيجمع لها الصحابة ويستشيرهم فيها، ولذلك قال ابن سيرين: «لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر»[٢]، وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «أيها الناس من سئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم»[٣].

وقد سار على هذا المنهج التابعون ومن بعدهم رحم الله الجميع، يدعون الناس إليه ويتواصون به فيما بينهم ويطبقونه مع غيرهم، فقد سئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أحسنها، فقال له أصحابه: قد استحيينا لك، فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالت: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾[٤] [البقرة: ٣٢]، وجاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة فقال: «يا أبا عبدالله جئتك من مسافة بعيدة في مسألة حملني إياها أهل بلدي

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١٨٨، إعلام الموقعين ١/ ٥٤.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١٨٥، إعلام الموقعين ١/ ٥٤.
(٣) خلق أفعال العباد ٦٣، إعلام الموقعين ٢/ ١٨٥.
(٤) إعلام الموقعين ٤/ ٢١٨.

لأسألك، فقال: سل، فسأله، فقال : لا أحسنها، فبهت الرجل وقال: ماذا أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن»[١]، وكان الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة يُسأل عن المسألة فيتوقف أو يقول: لا أدري، أو يقول: سل غيري، ونحو ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى (وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣].

وقال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول : أحل الله كذا وحرم كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل كذا ولم أحرم كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل»[٢] أهـ.

وقد روى الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «سمع النبي ﷺ قوماً يتمارون في القرآن، فقال : **إِنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ وَإِنَّما نَزَلَ كِتَابُ الله يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَلاَ يُكَذِّبُ بَعْضَهُ بَعْضًا، فَما عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ**» رواه عبدالرزاق في مصنفه والطبراني في المعجم الوسيط. فأمر عليه الصلاة والسلام

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٣٨.

من جهل شيئاً من كتاب الله أن يكله إلى عالمه ولا يتكلف القول بما لا يعلمه.

وروي عن علي ﷺ أنه قال: «خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كن فيه عوضاً من سفره، لا يخشى عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد»(١).

وقال الزهري عن خالد بن أسلم وهو أخو زيد بن أسلم: «خرجنا مع ابن عمر نمشي فلحقنا أعرابي فقال: أنت عبدالله بن عمر؟ قال: نعم، قال: سألت عنك فدُللت عليك فأخبرني: أترث العمة؟ قال: لا أدري، قال: أنت لا تدري، قال: نعم، اذهب: إلى العلماء بالمدينة فاسألهم، فلما أدبر قال: نِعم ما قال أبو عبد الرحمن سئل عما لا يدري فقال لا أدري»(٢).

وقال أبو حصين الأسدي منكراً على أهل زمانه تسرعهم في الفتوى «إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر»(٣).

المبحث الثاني: المكذبون بآيات الله تعالى

إن الواجب على المؤمن التصديقُ بآيات الله والإيمان بها جزماً لا يخالطه شك ولا يزعزعه ريب، وبذلك يكون فلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة، فإن جحد وكذب باء بالندامة والخسارة ورجع بالخيبة والحسرة، جاء بيان هذا في

---

(١) إعلام الموقعين ٢/ ١٨٥، تاريخ دمشق ٤٢/ ٥١١.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٨٢.

(٣) إعلام الموقعين ٢/ ١٨٥، تهذيب الكمال ١٩/ ٤٠٦، تهذيب التهذيب ٧/ ١١٦.

موضعين من القرآن، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

وقد سبق بيانُ عظم القول على الله بلا علم وشناعة الكذب عليه، أما التكذيب بآياته فهو مخالف للإيمان به وبرسله المبلغين عن ربهم ما أوحاه إليهم، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذبهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] وما كذبوا إلا رسولهم، ولكن لما كان تكذيبهم لرسولهم تكذيباً للرسل جميعاً أخبر تعالى عنهم بذلك.

والتصديق هو الواجب على من أعلن الشهادتين ودخل في دين الإسلام، فمعنى شهادة أن محمداً رسول الله: تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يوقنون ويؤمنون بكل ما أخبر به النبي ﷺ المبلغ عن ربه، لا يكذبونه ولا يردون شيئاً مما جاء به، كيف لا وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

يقول عبدالله بن سلام رضي الله عنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال فكان أولُ ما سمعته، يقول «**يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**» رواه الترمذي وابن

ماجه، ولما قدم وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد ابن بكر قال لرسول الله فيما قال له «**من رفع هذه السماء؟** قال: الله، قال: **ومن نصب هذه الجبال؟** قال: الله، قال: **ومن سطح هذه الأرض؟** قال: آلله، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: **اللهم نعم**، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. فاكتفى ضمام بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه عليه الصلاة والسلام، لما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه[1].

لو لم تكن فيه آيات مبينةٌ كانت بديهته تأتيك بالخبر

فكل من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم ولا أشد جرماً منه.

المبحث الثالث: الكافرون والمعاندون

تضمنت سورة المؤمنون في أولها جملة من أسس الفلاح وقواعده من المحافظة على الصلاة والعناية بالخشوع فيها، وإيتاء الزكاة والبعد عن اللغو، وحفظ الفروج وعدم تعديها والاقتصار على ما أباحه الله تعالى من الزوجة أو

---

(١) المستطرف ٤٩١.

ملك اليمين، وحفظ الأمانة والعهد ووجوب رعايتهما والقيام بهما كما أمر الله تعالى.

ومن المناسب هنا أن أذكر أن الله تعالى نفى في ختام السورة الفلاح عن الكفار، في مقابل أولئك المفلحين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ ﴾ المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له معبوداً آخر لا حجة له بما يقول ويعمل من ذلك ولا بينة ولا حجة.. ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾، يقول: فإنما حسابُ عمله السيء عند ربه، وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يقول: إنه لا ينجح أهلُ الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم»(١).

وقد ذكر المفسرون(٢) أن قوله تعالى: ﴿ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] صفة لازمة لقوله: ﴿ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، جيء بها للتأكيد وبيان الحكم، بأن كل ما يدعى من دون الله كائناً من كان ليس لعابده وداعيه أيُ حجة وبرهان، إنما هو اتباع الهوى وتقليدُ الآباء والاستجابة لشياطين الإنس والجن، فالتدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت الفطرُ السليمة والعقول الصحيحة بخلافه، وجاءت رسل الله عز وجل محذرة منه ناهية أقوامها من الوقوع فيه، متوعدة

---

(١) جامع البيان ٩/ ٢٥٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٤١، روح المعاني ١٨/ ٧١.

من كفر بالله تعالى النار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة: ٧٢].

ويشمل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] من أفرد غير الله بالعبادة أو أشرك مع الله غيره، ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] متضمناً هذا الدعاء العظيم المبارك، وفي تخصيصه بالذكر هنا دليل على أهميته، وقد علَّم النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أن يقول نحوه في صلاته، ففي الصحيحين وغيرهما أن أبا بكر ﷺ قال: «يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: قل: **اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**».

قال بعض المفسرين: «وأنت أرحم الراحمين» لأنه رحمته - جل وعلا- إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته، والله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وفي الحديث المتفق عليه عن عمر ﷺ قال: «قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته، فألزمته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ **أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟** قلنا: لا والله، فقال عليه

الصلاة والسلام: **الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»، وروى الشيخان أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحمُ الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**» وفي رواية: «**إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**»[1].

وقد ذكر أهل العلم أن إيمان العبد بهذا لا يجعله يتهاون في فرائض الله ويتكاسلُ في القيام بحقوقه ويتجرأُ على حدوده وينتهك حرماته، بل هذا يدفعه إلى طاعته والحذر من مخالفته، والازدياد من النوافل والقربات والمسارعة إلى عمل الصالحات والمسابقة في ميادين البر والمكرمات.

وفي موضع آخر من القرآن حكم الله بعدم فلاح الكافرين المعاندين، الجاحدين المتكبرين، ومنهم قارونُ الذي أنعم الله عليه وأحسن إليه بما خوله فيه، ولكنه طغى وتكبر، وادعى أن ما لديه من كسبه وعلى علمٍ عنده، وجحد أن المتفضل عليه هو الله سبحانه وكفر به جل وعلا، فاغتر به فئام من الناس ممن يريد الحياة الدنيا وتمنوا مثل حاله، بخلاف أهل العلم والبصيرة الذين رأوا أن ذلك فتنة من الله له، وأن ما عند الله خير وأبقى، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ١٣٣.

أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، فكانت عقوبته في الدنيا الخسف به وبداره، كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

فلما تبين الحق وظهر الصواب قال تعالى عن أولئك النفر ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢]، يقول الحافظ ابن كثير: «فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: ليس المال بدالٍ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله تعالى يعطي ويمنع، ويضيِّق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود رضي الله عنه «**إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم كما قسَّم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**» وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي: لولا لطفُ الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة»[1].

كان عليه الصلاة والسلام في دعوته معتصماً بالله سبحانه معتمداً متوكلاً عليه، واثقاً بصحة ما هو عليه، غير مبالٍ بما لدى المشركين من صلف

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٣١.

وعناد، وظلمٍ وطغيان، وتسلطٍ وجبروت، فالأمر كله لله، والعاقبةُ الحسنى في الدارين الدنيا والآخرة للمتقين، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد لقومك من قريش الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يقول: اعملوا على حيالكم وناحيتكم.. ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه: قل لهم اعملوا ما أنتم عاملون، فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يقول: فسوف تعلمون عند نزول نقمة الله بكم أينا كان المحق في عمله والمصيب سبيل الرشاد أنا أم أنتم، وقوله تعالى ذكره لنبيه ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أمر منه له بوعيدهم وتهديدهم، لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله.

ويعني بقوله جل ثناؤه ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ﴾ فسوف تعلمون أيها الكفرة بالله عند معاينتكم العذاب من الذي تكون له عاقبة الدار منا ومنكم، يقول: من الذي يعقب دنياه ما هو خيرٌ له منها أو شر منها، بما قدم فيها من صالح أعماله أو سيئها، ثم ابتدأ الخبر جلَّ ثناؤه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول: إنه لا ينجح ولا يفوز بحاجته عند الله من عمل بخلاف ما أمر الله به من العمل في الدنيا، وذلك معنى ظلم الظالم في هذا الموضع»[1].

(١) جامع البيان ٥/ ٣٤٨.

ولي مع هذه الآية الوقفات التالية:

الأولى: أنه قد يقال كيف أمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار على معتقدٍ غير صحيح؟ والجواب: أن يقال إنه من باب التهديد، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢]، ودل على هذا قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ [الأنعام: ١٣٥] فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله عز وجل: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢١ – ١٢٢].

الثانية: أبان الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى معنى قوله عز وجل: ﴿ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ بقوله: «وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، فإنه مكنه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك فُتحت الأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ – ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

ﭽ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﭼ [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﭽ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﭼ [النور: ٥٥] الآية، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً»[١].

الثالثة: في قوله تعالى: ﭽ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﭼ قراءتان، قرأ أبو بكر عن عاصم «مكاناتكم» بالجمع وقرأ الباقون «مكانتكم» على الإفراد، وتوجيه قراءة الإفراد ﭽ مَكَانَتِكُمْ ﭼ أن المراد: اعملوا على أمركم وحالكم، ومنه قولهم: لفلان عندي مكان ومكانة أي: تمكن محبة، وتوجيهُ قراءة الجمع ﭽ مَكَانَتِكُمْ ﭼ أنه جعل لكل واحد منهم مكانةً يعمل عليها، فجمع على هذا المعنى، ويحتمل أن يكون أراد بالجمع الواحد، كقوله تعالى: ﭽ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﭼ [المؤمنون: ٥١] والمخاطب بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام[٢].

الرابعة: ذكر بعض المفسرين أنه مع هذا الإنذار والتهديد الذي تضمنته الآية فإنها تضمنت أيضاً إنصافاً في المقال وحسن أدبٍ مع الآخرين في قوله ﭽ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﭼ [الأنعام: ١٣٥] مع وثوق المنذر وهو نبينا عليه الصلاة والسلام بأنه على الحق وأن العاقبة الحسنى له.

الخامسة: في قوله تعالى: ﭽ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﭼ وُضع الظالمون موضع

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٩.

(٢) ينظر: السبعة ٢٦٩، الحجة في القراءات السبع ١/ ١٤٩، حجة القراءات ٢٧٢.

الكافرين مع أن المراد هم لأنه أعم وأكثر فائدة، فإنه لا أحد أظلمُ منهم، حين عبدوا مع الله غيره، وصرفوا ما هو حق خالص له لغيره من المخلوقات كالأصنام والأحجار والأشجار وغيرها[1].

وإذا نفي عن هؤلاء الكفار الفلاحُ والخير فما بقي لهم إلا الحسرة والندامة والخزي والعذاب في الدنيا والآخرة، جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد.

المبحث الرابع: الظالمون

إن أبشع الجرائم وأشنع الأعمال الظلم بجميع صوره وأحواله، على تفاوت بينها في العقوبة والآثار السيئة، وحقيقة الظلم وضعُ الأشياء في غير مواضعها الصحيحة، وذلك بتفريط في حق أو بتجاوز الحق، فكل منهما ظلم، وأعظمُ الظلم الشرك بالله سبحانه، وإنما كان كذلك لأن العبد المسكين صرف العبادة التي هي حق لله سبحانه لمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

يلي ذلك البدعُ والمحدثات في الدين ثم كبائر الذنوب ثم صغائرها، ومن الظلم ظلمُ الإنسان نفسه بتعريضها للعذاب الشديد والعقاب الأليم بارتكاب المنكرات واجتراح السيئات، والتسبب في حرمانها من اللذة الأبدية والنعيم المقيم، هذا إذا كانت خطاياه وأوزاره خاصة به، وقد يكون ظلمه

---

(١) ينظر لما سبق: تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٦، روح المعاني ٨/ ٣٠.

للناس بالتعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم ونحو ذلك، وهذا ما حماه الإسلام وحذر من انتهاكه، فقد كان مما أعلنه النبي ﷺ في خطبته العظيمة في حجة الوداع قوله: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت**» رواه البخاري، وروى أيضاً عنه ﷺ أنه قال «**أول ما يقضى بين الناس في الدماء**».

وهذا يوجب على العبد أن يحاسب نفسه ألا يظلم أحداً، من زوج أو قريب أو جار أو غير ذلك من إخوانه المسلمين، بل ولا المعاهدين المستأمنين، وعليه أن يتخلص من ظلمهم ويتحلل منهم، قبل أن يقف يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه وحمل عليه**».

إن الظلم بجميع أشكاله وصوره شنيع وعظيم، لذا فقد حرمه جل وعلا على نفسه وحرمه على عباده بأبلغ أسلوب وأعظم زاجر، في الحديث القدسي يقول تعالى: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**» رواه مسلم، وروى أيضاً عنه ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»، ظلمات تغشاهم في قلوبهم وفي قبورهم وفي حشرهم وفي عرصات يوم القيامة.

في ذلك اليوم الذي يكون فيه العادلون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، أما الجائرون الظالمون ففي ذل ومهانة، متوعدون بالعذاب الأليم عند مَنْ يمهل ولا يهمل، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢ – ٤٣].

ومن صور عذاب الظلمة على وجه العموم قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال عز وجل: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل: ٥٢]، فالظلم مؤذن بفناء الديار وأهلها، وحلول النقم وزوال النعم، وهو السبب الرئيس في فناء الأعمار وتمزيق الشمل وتفريق الأحبة.

ومن صور عذاب الظلمة على وجه الخصوص ما جاء في عقوبة أكلة مال اليتيم ظلماً وعدواناً، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]، ويقول تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]، ومن الظلم انتزاع ملكية أرض لشخص حتى تكون له، يقول عليه الصلاة والسلام: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه من سبع أرضين يوم القيامة**» رواه الشيخان من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

كيف لا يكون الظلم وأثرُ الظلم وعقابُ الظلم كذلك وهو الذي لا يتأثر به في الغالب إلا من يستحق الرحمة والعطف والشفقة من الضعفاء البؤساء والفقراء والمساكين واليتامى والأرامل الذين لا حول لهم ولا طول، كيف لا تكون عاقبةُ الظلم وخيمةً في الدنيا والآخرة وهو عدوُ الأمن والاستقرار، عدوُ الطمأنينة والازدهار، ولهذا كانت من الدعوات المستجابات التي ليس بينها وبين الله حجاب دعوة المظلوم، فإن الله ناصره ومنتقم له، وهو القاهر فوق عباده، يفتح لدعوة المظلوم أبواب السماء ويرفعها فوق الغمام، ويقول: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين، ولما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن داعياً إلى الله تعالى وجابياً للزكاة وقاضياً بين الناس، كان في جملة ما أوصاه به «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» رواه الشيخان.

وقديماً قيل[1]:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وجاء في الحكمة «الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر والثواب».

وقد جرت سنة الله في خلقه مما دل عليه الكتاب والسنة أن الجزاء يكون من جنس العمل، وقد يعجل لصاحبه في الدنيا، فمن ظلم الناس واعتدى عليهم وبخسهم حقوقهم وتهاون بأمورهم ابتلي بمن يقابله بمثل صنيعه مع الناس، وقد يكون أشد، مشاكلة لأعمالهم، جزاءً وفاقاً ، كما قال تعالى

---

(١) الكبائر ١٠٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، يقول الشاعر(١):

فما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها وما ظالمٌ إلا سيبلى بأظلم

لقد نفى الله الفلاح في الدنيا والآخرة عن الظلمة المتجاوزين حدود الله المعتدين على دين الله وأنبيائه ورسله وسائر خلقه، في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، جاء ذلك في مواضع من القرآن، سبق الحديث عن بعضها كالكذب على الله تعالى والقول عليه بلا علم، وكذلك التكذيب بآياته وردُها وعدمُ تصديق رسله، وأيضاً انتهاك الأعراض وعدم التورع عن الوقوع في الفاحشة وخيانة الأمانة وتضييعها.

ومن صور الظلمُ وأمثلته ما كان من فرعون الظالم الباغي مع نبي الله موسى عليه السلام، فقد ادعى فرعون أنه الإله المطاع، صاحب الجبروت والطغيان، القائل فيما حكى الله عنه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ونكَّل ببني إسرائيل فقتلهم واستحيا نساءهم وضيق عليهم، فلما دعاه موسى عليه السلام إلى التوحيد وعبادة الله سبحانه المستحق لذلك دون سواه، طغى وتكبر، وعاند وأعرض، وتوعد وتهدد، وقد جاءت قصته مع موسى ومحاورته معه في مواضع من القرآن، وقد التزم موسى عليه السلام منهج الأنبياء والرسل من قبله في الدعوة إلى الله بحكمة وعقل، ووضوح حجة وبرهان، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:

(١) ثمار القلوب ٣٣ .

٤٤]. ومما كان بينهما من جدل ومناقشة، ما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]، قال الإمام ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: وقال موسى مجيباً لفرعون: ربي أعلم بالمحق منا يا فرعون من المبطل، ومن الذي جاء بالرشاد إلى سبيل الصواب، والبيان عن واضح الحجة من عنده، ومن الذي له العقبى المحمودةُ في الدار والآخرة منا.

وهذه معارضةٌ من نبي الله موسى عليه السلام لفرعون، وجميلُ مخاطبة، إذ ترك أن يقول له: بل الذي غر قومه وأهلك جنده وأضل أتباعه أنت لا أنا، ولكنه قال: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [القصص: ٣٧]، ثم بالغ في ذم عدو الله بأجمل الخطاب فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]، يقول: إنه لا يُنجح ولا يدرك طلبته الكافرون بالله، يعني بذلك فرعون، أنه لا يفلح ولا يُنجح لكفره بربه»[1].

وقال بعضهم في تفسير الآية «أي: ربي أعلم منكم بحال من أهَّله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى، يعني نفسه، ولو كان -كما تزعمون- ساحراً مفترياً لما أهله لذلك، لأنه غني حكيم، لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٣]، والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها: أن يختم للعبد

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٢٥٤.

بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران»[1].

وفي الآية قراءتان، الأولى: قرأ ابن كثير الآية بدون واوٍ في أولها، وتوجيهها أن الموضع موضعُ سؤال وجواب، وبحث عما يجيبهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم هذه الآيات العظام سحراً مفترى، فإن الآية سبقت بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

القراءة الثانية: قرأ باقي السبعة بالواو في أول الآية، وتوجيهها أنهم قالوا مقولتهم هذه، وقال موسى عليه السلام ما ذكره الله في الآية ليوازن الناظر والسامع بين القول والمقول، فهو عطف جملة على جملة، ليتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر[2].

ثم ما كان من فرعون إلا أن صرف الحاضرين لئلا ينكشف حاله إلى أمر آخر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، قال هذا لقومه موهماً ومتحايلاً عليهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، مع يقينه الجازم بأنه ليس بإله ولا يستحق العبادة، إنما هو التكبر والجبروت، يدل على هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٣٧.

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة ١/ ٢٧٨، حجة القراءات ٥٤٦.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ثم بين لهم أن الأمر محتمل وهذا من التمويه عليهم والظهور عليهم بالإنصاف والرغبة في التحقق من كلام موسى فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]أي: اصنع لي آجراً، ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾، أي بناء مكشوفاً، ثم قال ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، فيما يذكره موسى، تأكيداً لما أراده فرعون، وإعلاماً بأن ترجيه الصعود إلى إله موسى عليه السلام، ليس لأنه جازم بأنه هناك ، وهذا غاية التكبر والعناد، والجحود والاستكبار.

وقد استمر على حاله وتمادى في طغيانه وعناده، قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، ولكن الله له ولغيره من الظلمة بالمرصاد، يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ – ٤٢].

وصدق رسول الله ﷺ القائل: «**إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، هذا في الأمور العامة، وحتى على

مستوى الأفراد فإن الظالم لأخيه المسلم متوعد بالعقوبة والنكال، فعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة**، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: **وإن قضيباً من أراك**» رواه مسلم، وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار**» متفق عليه.

المبحث الخامس: السحرة

إن من الموبقات المهلكات في دين الإسلام تعاطي السحر وعمله وإتيان أهله وسؤالهم وتصديقهم، جاء التحذير من ذلك والنهيُ عنه بشتى الطرق وتنوع الأساليب، لأنه جريمة كبرى وفعلة شنعى، لا يختص ضررها بمن وقع فيها بل يعمُ غيره من الناس، كما أن السحر فيه من الأمور المحرمة والمسائل المنكرة ما جعله محرماً في دين الإسلام وغيره، ونُفي عن صاحبه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وذلك في خطاب موسى مع سحرة فرعون قبل إيمانهم.

قال العلماء: السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**» رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسمي السَّحور سحوراً، لأنه يقع خفياً آخر الليل، وقال

تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] أي: أخفوا عنهم علمهم، قال ابنُ قدامة المقدسي في الكافي: «السحر عزائم ورقى وعقد، يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتلُ ويفرقُ بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفُثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقةً لم يأمر بالاستعاذة منه.

وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وإنه قال لها ذات يوم «**أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مِشْط ومِشَاطه، في جُف طلعة ذكر في بئر ذي أروان**» رواه أحمد والبخاري ومسلم»[1].

وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وهذا غير صحيح بل من السحر ما هو حقيقة فيمرض ويُفرق بين المرء وزوجه ونحو ذلك، ومنه ما هو تخييل لا حقيقة له.

وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة محذرة من السحر متوعدةً الواقع فيه ومتعاطيه بالعقاب الشديد والعذاب الأليم، حاكمةً عليه بالكفر في الدنيا ووجوب قتله بالسيف، مع ماله من العقاب الشديد في الآخرة.

---

(١) الكافي ٤/ ٩٤.

فقد عبر القرآن الكريم عن السحر بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وسياق اللفظ يدل على أن المراد منه السحر، أي: وما سحر سليمان، وإنما عُبر عنه بالكفر تقبيحاً وتشنيعاً، كما قال تعالى فيمن ترك الحج مع القدرة عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفي هذا التعبير تنفيرٌ للناس من السحر، ودلالة على أنه من الكبائر الموبقات، بل هو قرين الكفر والشرك، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أما سببُ كون السحر كفراً فلأن رياضة السحر إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل لها، كالذبح والدعاء والسجود وغير ذلك من أنواع العبادة التي هي حق الله تعالى، كما أن الساحر يتلطخُ بالعذرات ويقعُ في أذية الناس ونحو ذلك.

ومن أدلة تحريم السحر وشناعة جرمه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا الإيمان بالله ومتابعة الرسل بالسحر وتعاطيه ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما «من نصيب» وقال الحسن البصري «ليس له دين»[١]، ولذلك فقد نص أصحابُ الإمام أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه[٢]، روى عبدالرزاق عن صفوان بن سليم مرسلاً عنه ﷺ قال: «**من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله**».

(١) ينظر لهما: جامع البيان ١/ ٥٠١.

(٢) ينظر: الكافي ٤/ ٦٤، الإقناع ٤/ ٣٠٧.

ومن أدلة تحريم السحر ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ فقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**- قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: **الشرك بالله والسحرُ وقتلُ النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكلُ الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات**»، فقوله: «**اجتنبوا السبع**» أي: ابتعدوا، وهو أبلغ من لا تفعلوا، لأن نهي القربان أبلغُ من نهي المباشرة، وقوله: «**الموبقات**» أي: المهلكات، سميت بذلك لأنها تهلك فاعلها في الدنيا، بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

ومن أدلة تحريم السحر والنهي عن تعاطيه ما رواه الإمام أحمد وأبو يعلى وابنُ حبان والحاكم وصححه عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة، مدمن الخمر ومصدق بالسحر وقاطع الرحم**»، وروى النسائي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق بشيء وكل إليه**».

وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن حد الساحر الذي ثبتت إدانتُه به ضربُه بالسيف، روي هذا عن جملة من الصحابة رضي الله عنهم، فعن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله مرفوعاً «**حد الساحر ضربه بالسيف**» رواه الترمذي وقال الصحيح أنه موقوف، قال بعض الشراح: «وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة، فقالوا: يقتل الساحر، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبدالله وعمر بن عبد العزيز، ولم ير

الشافعي عليه القتل بمجرد السحر، إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر، وبه قال ابنُ المنذر، وهو رواية عن أحمد»[١].

ومن الأدلة أيضاً ما رواه البخاري في صحيحه عن بجالة بن عَبَدة قال: «كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» قال: فقتلنا ثلاث سواحر، وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت، وصح عن جندب الخير الأزدي رضي الله عنه، قال الإمام أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[٢]، يعني: صح قتلُ الساحر عن عمر وحفصة وجندب رضي الله عنهم.

قال بعض أهل العلم «وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهذا كذلك على المشهور عن أحمد، وإليه ذهب مالك ، وقال: إن الصحابة لم يستتيبوهم، ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخُلي سبيله، وبه قال الشافعي، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، فكذلك الساحر، وعلمه بالسحر لا يمنع توبته، بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم، ولذلك صح إيمانُ سحرة فرعون وتوبتُهم.

والأول أصح لأن الصحابة لم يستتيبوا من قتلوهم من السحرة، ولو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وأما قياسه على المشرك فلا يصح، لأنه أكثر فساداً وتشويهاً من المشرك، وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد ٣٩١.

(٢) فتح المجيد ٢٩١-٢٩٢.

الإسلام يجبّ ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحد عنه بالتوبة أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقاً قُبلت توبته»[1] ولعل هذا هو الأقرب.

إن للسحر أنواعاً كثيرة وله صورة متعددة، ولكثرة وقوعها وعموم البلوى بها وخفائها على الناس ظن البعض أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء وعدها من كراماتهم، ثم انتقل الأمر إلى التعلق بهم وطلب النفع ودفع الضر والحفظ والكلاءة من الشرور بأنواعها منهم، بل اعتقد بعض الجهلة أن لهؤلاء تصرفاً في الكون وملكاً فيه، فوقعوا في الإشراك بهم مع الله تعالى، الذي له الأمر التام والملك المطلق، فليس كلُ من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى، لأن العادة قد تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبر به الشياطين المسترقون للسمع، كالإخبار بمكان الضالة وبيان السارق، فإن الله أعطاهم خفة وسرعة انتقال مما ليس للإنس.

وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في القرآن، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣] فأولياء الله الذين حققوا مقام التقوى بإخلاص الدين لله وتحقيق التوحيد له وفعل الأوامر وترك النواهي، ولم يذكر تعالى من شرط الولاية أن يجري على أيديهم شيئاً من خوارق العادة، أما ما يكون مع السحرة والكهان والمشعوذين فإنما هي الشياطين تؤزهم على فعل الشر وتضلهم عن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢ بتصرف.

سواء السبيل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

وغالب هذه الأمور الشيطانية والسحرية توجد عند من لا خلاق له، ترى أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي المكتوبة ولا يحضر الجماعة ولا يتنظف، بل يلامس النجاسة ويأوي إلى المزابل، يغمز الشرع ويستهزئ بحملته، يكره سماع القرآن وينفر منه، ويؤثر سماع الأغاني ومزامير الشيطان.

ومن أنواع السحر العيافة، قال ابن الأثير: «هي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها»[1] وما تدل عليه من خير أو شر، وكل هذا كلام باطل، ومن أنواعه الطَّرْق قيل هو الخط يخط بالأرض يستدل به السحرة على معرفة ما سيقابل الشخص من خير أو شر أو معرفة غائب ونحو ذلك، ويشمل أيضاً الضرب بالحصا.

ومن أنواع السحر القراءة في الفنجان أو قراءة الكف وهذا منتشر بين العوام والجهلة حيث يزعم هؤلاء المشعوذون أن في تلك القراءة ما يدل على أمور مغيبة قد تنفع أو تضر، وكلُ هذا من الأمور المنكرة التي تُحيق بصاحبها

(١) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٦٢٢.

العقوبة وتخرجه من الدين، فعلم الغيب مما استأثر الله به، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن أنواع السحر اقتباس معرفة الغيب من النجوم ومحاولة الاطلاع والتنبؤ بالمستقبل، كما يزعمه أولئك الضلال المشعوذون، فمثلاً يقول من ولد في برج كذا فسيرزق بولد أو سيحرم من مال ونحو ذلك، وقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**» أي: كلما ازداد من علم النجوم زاد له من الإثم مثلُ إثم الساحر، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فعلم أن اعتقاد تأثير النجوم باطل محرم وكذا العمل بمقتضاه، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»، رواه الطبراني، ورواه غيره عنه بلفظ «رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق».

قال بعض الشراح: «وذلك لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة وادعاء علم الغيب الذي استأثر الله به، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها معرفة علم الغيب هو الذي يُسمى علم الحرف.. فأما تعليمها للتهجي والقراءة فلا بأس بذلك»[1].

وقد روى البخاري عن قتادة قال: «خلق الله هذه النجوم لثلاث، زينة للسماء، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك

(١) فتح المجيد ٣٠٧.

أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

ومثل السحر من الأمور المحرمة في دين الإسلام الكهانة ونحوها، ومتعاطيها والمصدقُ بها ممن تعرض لسخط الله تعالى وعقوبته وحرم نفسه الفلاح في الدنيا والآخرة.

فالكهانة: ادعاء علم الغيب والإخبارُ بما سيقع في الأرض من خاص أو عام، والأصل فيها استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أذن الكاهن الذي له نفس شريرة، يفزع إلى الجن في أموره ويستفتيهم في الحوادث ويسألهم عن المغيبات، سواء مما يكون عند الملائكة أو ما يكون بين البشر، فيلقون إليه ما علموه من مكان الضالة أو المسروق ونحو ذلك، ابتلاء من الله وامتحاناً، ولا يفعلون له ذلك حتى يكفر بالله عز وجل فيذبح لهم أنواع القرابين ويسجد لهم ويعظمهم خوفاً منهم ورجاء فيهم أعظم مما يكون بينه وبين الله تعالى المستحق لهذا كله.

والكهان الآن قليلون بالنسبة لما كان في الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب، كما قال تعالى عن الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ - ٩]، ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الجني الأعلى فيلقيه إلى الأسفل، قبل أن يصيبه الشهاب، أما ما يخبر به الجني مواليه من كهان الإنس ومشعوذيهم، بما غاب عنهم مما لا يطلع عليه الإنسان من أحوال الإنس فكثير جداً.

وقد يسمى الكاهن عرافاً، قال البغوي: العراف الذي يدعى معرفة الأمور

بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل[1]، وقيل الذي يخبر عما في الضمير، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العراف اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في تقدم المعرفة بهذه الطرق»[2].

وقد جاء التحذير من الكهانة والعرافة ونحوها والوعيدُ الشديد للواقعين فيها المتعاطين إياها، كما جاء التحذير من إتيان الكهان والعرافين والمشعوذين وسؤالهم وتصديقهم عن أمور غيبية لا يعلمها إلا الله عز وجل، أو طلب شفاء مريض وكشف عائن وحل سحر عن طريق الجن والشياطين، ففي صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، فظاهر الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله هذا العراف والكاهن، سواء صدَّقه أو شك في خبره، لأن إتيان هؤلاء منهي عنه، كما في حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ وفيه «قلت: يا رسول الله إن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: **فلا تأتهم**» رواه مسلم، فكونه يشك في خبره دليل على أنه يشك في أنه يعلم الغيب، وذلك موجب للوعيد، بل يجب عليه أن يقطع ويعتقد بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، الظاهر أنه

---

(١) فتح المجيد ٣٠٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٧٣.

يشمل الفريضة والنافلة، قال بعض أهل العلم: «إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول»[(١)]، وقال النووي: معناه: «لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة»[(٢)].

ومن عقوبة من أتى هؤلاء الكهان والعرافين والمشعوذين ما رواه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

قال بعض أهل العلم: «لا تعارض بين هذا الحديث والذي قبله، فإن الأول محمول على إتيانهم والنظر فيما عندهم دون تصديق لهم، أما متى اعتقد صدقهم فيما يقولونه ويخبرون به واعتمد ذلك على أي وجه كان فقد كفر، لاعتقاده أنهم يعلمون الغيب، سواء كان ذلك من قبل الشياطين أو من قبل الإلهام ونحو ذلك، وإن كان الغالب عليهم أخذه عن طريق الشياطين»[(٣)].

ويشترك في حكم تصديق الكاهن والعرَّاف من صدَّق الساحر، فقد روى البزار بإسناد على شرط مسلم قوله عليه الصلاة والسلام: «**من أتى كاهنا أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» ففي هذا

---

(١) فتح المجيد ٣٠١.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ٢٢٧.

(٣) فتح المجيد ٣٠٢.

دليل على كفر الساحر والكاهن والمصدق لهما، لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفر أيضاً.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، قال الطيبي: «المراد بالمنزل: الكتابُ والسنة، أي من ارتكب هذا فقد برىء من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه»[1].

وقد اختلف في الكفر هنا أو هو كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال: إنه ينقل عن الملة، فيه روايتان عن الإمام أحمد، وقيل: هذا على التشديد والتأكيد، أي يقارب الكفر، والمراد: كفر النعمة، والصحيح أن الكفر هنا يخرج من الملة وينقل عنها، حيث اعتقد في هؤلاء أنهم يعلمون الغيب وصدقهم فيما يقولون، مما استأثر الله به، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً.

ومن الأدلة على التشديد والوعيد لمن وقع في هذه الأعمال المحرمة وخطورة إتيانهم وتصديقهم ما رواه البزار بسند جيد عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً «**ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله «**ومن أتى**» إلى آخره.

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله ﷺ، لكونه إما شركاً كالطيرة أو كفراً كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك وتابع

---

(١) فيض القدير ٦/ ٢٣.

عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه.

ومن الأدلة أيضاً ما رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر ومصدق بالسحر وقاطع الرحم**».

لقد حرص الإسلام في كل تشريعاته وأحكامه على سلامة عقيدة المؤمن في ظاهره وباطنه، ليكون دائماً متصلاً بالله معتمداً عليه، مستعيناً به على شدائد هذه الحياة ومصاعبها وأتعابها، لا يتوجه لغير الله في دعاء واستغاثة، ولا يرجو غيره نفعاً أو يخافُ منه ضراً ، ولا يقر لسواه بأي تأثير أو تحكم فيما خلقه وسيره بعلمه وقدرته إلا ما جعله سبباً في هذا الأمر، وهو مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

فإن زعم الإنسان أنه يعلم باتصاله بالكواكب وتعظيمه لها، أو اتصاله بالجن والشياطين الغيب والمستقبل، أو يستطيع بذلك أن يؤثر في أمور الحياة ومجريات الكون ويحكم مسيرتها الطبيعية بما يخرجها عما رسم لها، فإنه والحالة هذه قد خالف شرعة الله التي أوضحها في كتابه، وتجاوز الحدود التي وضعت له وخرج عن الحنيفية السمحة، ورضي على نفسه بالكفر حين ادعى معرفة الغيب الذي استأثر الله بعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

والمؤمن الصادق يعلم علم اليقين أن النجوم والكواكب مسخراتٌ بأمر الله عز وجل، تسير وفق نظام دقيق وخط مرسوم لها لا تحيد عنه، ولا تؤثر

حركتها على الإنسان الذي خلقه الله وقدَّر له رزقه وعمره، فلا ينتهي عمر إنسان بظهور كوكب أو اختفائه، ولا يزيد في رزق امرئ ولا ينقصُ عما قدره الله تعالى له، ولا يؤثر فيما يكتب له من زوج أو ولد أو غير ذلك، فإن أثبت له التأثير في هذا الكون وعظمه مثل تعظيم الله أو فوقه واستعان به من دون الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد كفر بالله سبحانه وظلم نفسه ورضي عليها بالحسرة والندامة والخزي والعقوبة في الدنيا والآخرة.

وإن كان قد يجري على أيدي هؤلاء السحرة والكهنة والمشعوذين شيء من إيصال ضر وبلاء على الناس، وقد يصل إلى التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك، فما هو إلا ابتلاء وامتحان وفتنة، كما قال تعالى عن الملكين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وما يقع منهم شيء إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وفرق بين المعجزة التي يؤتيها الله رسله وبين السحر الذي يتعلمه ويقوم به شياطين الإنس مع مَنْ يساعدهم من شياطين الجن، فالمعجزة من الله سبحانه لرسله ليكون بها التحدي وإثبات عجز الآخرين وتحقيق صدق نبوته، فهي تكون لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس الخيرة وهم الأنبياء والرسل.

بينما السحر لصاحب الشر وأفعال الشر، فالساحر يتعامل مع الشياطين بتأثير نفسي أو بالاتصال بالكواكب والنجوم، أو بالخداع والتمويه ونحو ذلك.

قال الخطابي: «الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما

تصل قدرتهم إليه، هذا والكهانة كانت في الجاهلية فاشية وبخاصة في العرب لانقطاع النبوة فيهم.

وهي على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه.. فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حُرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ١٠].

وثانيها: أي من طرق الكهنة ووسائلهم - ما يخبر به الجني مَنْ يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه مَنْ قرب منه لا من بعد.

وثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة، مع كثرة الكذب فيه.

ورابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بزجر الطير والطرق والنجوم، وقد أطال ابن خلدون في مقدمته الحديث في هذا[1].

وقد ثبت في الصحيحين أن نبينا ﷺ قد سحر، ولفظ البخاري عن

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٢١٧.

عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون السحر إذا كان كذا، ثم قال عليه الصلاة والسلام : **أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للآخر : ما بال الرجل؟ قال: مطبوب،** أي مسحور، **قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر في بئر ذروان، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أُريتُها وكأن ماءها نُقاعة الحناء** -أي لون مائها أحمر- **وكأن نخلها رؤوس الشياطين، قال: فاستخُرج**».

وقد أنكر سحر رسول الله ﷺ قلةٌ من أهل العلم، قالوا: لأن ذلك يحط من مقام النبوة وشرفها، ولأنه معصوم فيستحيل وقوع ذلك السحر عليه، وقد عد بعضهم ما ذُكر من هذا السحر الذي ألمّ بالنبي ﷺ حكاية يهودية غير صحيحة للتشكيك في نبوته عليه الصلاة والسلام وعدم تصديقه والإيمان به.

والصواب التصديق بما دلت عليه الأحاديث الثابتة في الصحيحين التي هي أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل. وأنه عليه الصلاة والسلام قد سحر وظهر أثره على جوارحه وجسده لا على عقله ومعتقده، قال القاضي عياض «السحر تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومعتقده وفكره» أي: لم يؤثر على روحه وعقله الذين ظلا سليمين عنده وبخاصة في تأدية الرسالة لأنه معصوم، والعصمة أن يحفظ الله رسوله عليه الصلاة والسلام من القتل والمكائد المهلكة التي تعطل تبليغ الدين ونشر الرسالة.

ولم يرد في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام امتنع عن الصلاة أو أخطأ فيها أو في أمر من أمور العبادة والتشريع أو توقف عن متابعة الرسالة أو نشر أفكاراً تخالف ما أوحى الله به.

مسألة: ثقل الموازين في الآخرة للمفلحين

من معتقد أهل السنة والجماعة إثباتُ موازين الأعمال التي تكون يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ – ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ومن الأدلة على إثباتها ما رواه البخاري ومسلم عنه ﷺ قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**، وهو ميزان حقيقي له كفتان، لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عنه ﷺ في صاحب البطاقة، قال: **«فوضعت السجلات - أي صحائف أعماله السيئة- في كفة والبطاقة في كفة- مكتوب فيها لا إله إلا الله- قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»** رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح.

وقد اختلف العلماء في الذي يوزن فيها، على أقوال ثلاثة، فقيل: العملُ نفسه لدلالة الآية وحديث «**كلمتان خفيفتان على اللسان**» السابق، وقيل: صحائفُ الأعمال لحديث صاحب البطاقة، وقيل: العاملُ نفسه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرؤوا** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] متفق عليه، وللحديث في فضل عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما وفيه: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد**» رواه أحمد وابن ماجه والطبراني، والله قادر على كل شيء.

فالميزان له حقيقة وشأن، ولكن علم كيفيته عند الله عز وجل لا يعلمه إلا هو، والواجب الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من غير زيادة ولا نقصان، قال الإمام ابن أبي العز الحنفي «ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحبُ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه»[1].

إن المؤمن بالله واليوم الآخر يستعد للقاء الله عز وجل بالعمل الصالح والتقرب إليه بما يرضيه، يجعل أهوال يوم القيامة وما يكون من البعث نصب عينيه، فيحاسب نفسه ويزن أعماله بميزان الشرع، يقول عمر رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٤٠٤.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1] [الحاقة: ١٨]، ويبحث عما يثقل ميزانه على وجه الخصوص من الأعمال الصالحة، وقد دلت السنة المشرفة على جملة مما يُثقِّل ميزان العبد على وجه الخصوص.

من ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حُسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش**»، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**» رواه البخاري ومسلم، وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض**» رواه مسلم، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، كان شبعه وريه وروثه وبوله حسناتٍ في ميزانه يوم القيامة**» رواه البخاري.

والمؤمن الصادق يتذكر وقوفه بين يدي ربه عز وجل للحساب والجزاء والسؤال عن الأعمال، فيكف نفسه عن ظلم الآخرين ويتحللهم من حقوقهم وتجاوزه عليهم، ويطهر قلبه من بغضهم والحقد عليهم والكراهة لهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، يقول عليه الصلاة والسلام: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ**

(١) ينظر: إغاثة اللهفان ١/ ٧٨، مدارج السالكين ١/ ١٧٠.

من سيئات صاحبه فحمل عليه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وروى مسلم عنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**».

إن المفلح حقاً من ثقل ميزانه يوم القيامة بالأعمال الصالحة يوم تطيش الموازين، فيفرح من وجد خيراً محضراً له ويندم المفرط على فعل السيئات، يوم يراه مثبتاً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولهذا قال تعالى في سورتي الأعراف والمؤمنون: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] أي: الفائزون المدركون ما طلبوا الناجون من عذاب الله يوم القيامة، وفي المقابل يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣ – ١٠٤].

ومما يجب أن يعيه المؤمن أن يعلم أن الناس فريقان يوم القيامة على تفاوت بينهم لا ثالث لهم في الميزان، قوم ثقلت موازينهم بالأعمال الصالحة فنالوا الفلاح والفوز، وقوم خفت موازينهم بما أسرفوا على أنفسهم من الذنوب والمعاصي وبما فرطوا في جنب الله، فتهاونوا في أداء فرائضه والقيام

بحقوقه وحفظ حدوده، ولهذا سمى الله ذلك اليوم يوم التغابن، حين يرى مَنْ أفلح فنال مطلوبه من الجنة وترقى في درجاتها وتبوأ أعلى منازلها، وكان هو من الخاسرين.





الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقد ظهر لي بعد الفراغ من هذا الكتاب النتائج التالية:

- يأتي الفلاح في اللغة بمعنى الفوز والسعادة وقد وردت هاتان الكلمتان وما اشتق منهما في مواضع كثيرة من القرآن، ويأتي الفلاح أيضًا في اللغة بمعنى الظفر والبقاء وهاتان الكلمتان لم تردا في القرآن الكريم.
- اجتمعت أقوال السلف والمفسرين في معنى الفلاح على أنه الفوز بالمطلوب وهو الجنة، والنجاة من المرهوب وهو النار.
- جاء الحديث عن أسس الفلاح ونعوت أهله في مواضع كثيرة من القرآن، وبأساليب متنوعة، ترغيبًا فيه وحثًا على القيام بأسسه والتحلي بنعوت أهله والسير على نهجهم.
- أعظم أسس الفلاح الإيمان بأركانه ولوازمه، ثم الإسلام وأركانه.
- العناية بأعمال القلوب كالتوبة وتزكية النفس الممدوحة وتحقيق مقام التقوى والقيام بمقامي الصبر والشكر من أسس الفلاح وأركانه .
- من أسس الفلاح القيام بطاعة الله تعالى، سمعًا وطاعةً للقرآن الكريم، وذكرًا لله عز وجل مع الدعوة إلى دينه والجهاد في سبيله.
- القيام بالحقوق وأداء الواجبات على تنوعها وتفاوت مراتبها من أسس الفلاح وقواعده.

- في مقابل ما سبق فإنه لا بد من اجتناب المحرمات والبعد عن المعاصي صغيرها وكبيرها كي يتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة .
- هناك محرومون من الفلاح، خسروا الدنيا والآخرة، بيّن أحوالهم وأعمالهم ربنا عز وجل في كتابه الكريم، وحذر من سلوك طريقهم، أعظمهم الكاذبون القائلون على الله بلا علم والمكذبون بآياته، الكافرون به.
- الظلم والسحر من أعظم الموبقات ومن أسباب سخط الله تعالى وحلول عذابه وأليم عقابه في الدنيا والآخرة، وأهله محرومون من الفلاح.

❁ ❁ ❁

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تعليق مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير- دمشق وبيروت- الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م.
- أحاديث في ذم الكلام وأهله - أبو الفضل المقرئ - تحقيق ناصر الجديع - دار أطلس - الطبعة الأولى - ١٩٩٦م.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ـ علاء الدين علي الفارسي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى : ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.
- إحياء علوم الدين - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي- دار الفكر - بيروت - بدون.
- أخلاق حملة القرآن - محمد بن الحسين الآجري- تحقيق وتعليق فواز أحمد زمرلي - دار الكتاب العربي- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ - يحيى بن شرف النووي ـ دار الرشد- الرياض.
- الإرهاب حقيقته أسبابه موقف الإسلام منه - بدر بن ناصر البدر - الطبعة الأولى - ١٤٢٦هـ.
- الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار - يوسف بن عبد البر - تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٢١هـ
- الاستقامة ـ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الطبعة

الثانية : ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
- الإقناع لطالب الانتفاع - موسى الحجاوي - تحقيق عبدالله التركي - دار هجر - القاهرة - الطبعة الثانية.
- إعلام الموقعين - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - مصر - الطبعة الأولى - ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- بعناية محمد حامد الفقي- دار المعرفة - بيروت - بدون.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - مجد الدين الفيروزآبادي - تحقيق محمد النجار - وزارة الأوقاف - القاهرة - ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥ م.
- البيان في مداخل الشيطان - عبد الحميد البلالي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- تاج العروس من جواهر القاموس - محمد مرتضى الزبيدي - تحقيق عبد العزيز مطر - دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون.
- تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار سويدان - بيروت - الطبعة الثانية.
- تاريخ بغداد - أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي- بيروت.
- تاريخ مدينة دمشق - أبو القاسم ابن عساكر - تحقيق عمر بن غرامة العمروي - دار الفكر - بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف - دار الكتب العلمية -

بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- التذكار في أفضل الأذكار – محمد بن أحمد القرطبي – تحقيق بشير محمد عيون –دار البيان– دمشق وبيروت – الطبعة الرابعة – ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة – محمد بن أحمد القرطبي– تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم – دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠٠٣م.
- الترغيب والترهيب – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري – بعناية مصطفى عمارة – مطبعة مصطفى الحلبي وشركاه – ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) – محمد بن محمد العمادي – دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- تفسير البحر المحيط – أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي– دار الفكر– بيروت– الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – الطبعة الأولى – بدون.
- تفسير الثعالبي – عبد الرحمن محمد مخلوف الثعالبي – مؤسسة الأعلمي – بيروت – بدون.
- تفسير القرآن ـ عبد الرزاق بن همام الصنعاني ـ تحقيق مصطفى مسلم محمد ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م.
- تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن كثير– دار المعرفة– بيروت– بدون.
- تفسير القرآن العظيم –عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم – تحقيق أسعد محمد الطيب– مكتبة الباز – مكة المكرمة – الرياض– الطبعة الثانية– ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- التفسير الكبير ـ فخر الدين عمر الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م.
- تفسير النسفي – (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) – عبد الله بن أحمد النسفي – مطبعة السعادة – ١٣٢٦هـ.
- تهذيب التهذيب – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى – ١٣٢٥هـ.
- تهذيب الكمال – يوسف بن عبد الرحمن المزي – تحقيق بشار عواد معروف – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- تهذيب اللغة – محمد بن أحمد الأزهري – تحقيق عبد السلام هارون – الدار المصرية – بدون.
- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد – سليمان بن عبدالله بن الحمد بن عبدالوهاب – المكتب الإسلامي – بيروت ودمشق – الطبعة السادسة – ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م.
- ثمار القلوب – أبو منصور عبد الملك الثعالبي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- جامع العلوم والحكم – ابن رجب الحنبلي – تحقيق شعيب الأرناؤوط

وإبراهيم باجس – طبعة خاصة بدارة الملك عبد العزيز – الطبعة التاسعة – ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد القرطبي – تحقيق أحمد البردوني – دار الفكر – بيروت – بدون.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي – تحقيق محمود الطحان – مكتبة المعارف – الرياض – ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- حجة القراءات – أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة – تحقيق سعيد الأفغاني – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- الحجة للقراء السبعة – أبو علي الحسن الفارسي – تحقيق بدر الدين قهوصي – دار المأمون للتراث – دمشق وبيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني – دار الكتاب العربي – القاهرة – الطبعة الرابعة – ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- خلق أفعال العباد – محمد بن إسماعيل البخاري – المكتبة السلفية – الكويت.
- الداء والدواء (الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي) – محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - تحقيق يوسف علي بدوي - دار ابن كثير - دمشق - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطي- دار الفكر –بيروت – الطبعة الثانية –١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

- ذم الهوى - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي – بعناية أحمد عبد السلام عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- أبو الفضل محمود الألوسي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- بدون.
- زاد المسير في علم التفسير – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي – بعناية أحمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – دار الباز – مكة المكرمة – الطبعة الأولى – ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت – الطبعة الثالثة- ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- السبعة في القراءات – أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد – تحقيق شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثالثة.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام – محمد بن إسماعيل الصنعاني – تحقيق فواز زمرلي وإبراهيم الجمل – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- سنن ابن ماجه – محمد بن يزيد بن ماجه- تحقيق محمد الأعظمي- شركة الطباعة العربية السعودية- الطبعة الثانية- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- سنن أبي داود – أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- عناية محيي الدين عبد الحميد- دار إحياء التراث العربي- بيروت – بدون.
- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) –تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- مطبعة

مصطفى البابي الحلبي- القاهرة-الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- سنن الدارمي – عبد الله بن بهرام الدارمي- دار الفكر- بيروت – بدون.
- السنن الكبرى – أحمد بن الحسين البيهقي- دار المعرفة-بيروت- بدون.
- سنن النسائي – أحمد بن شعيب النسائي – دار الكتاب العربي – بيروت- بدون.
- سير أعلام النبلاء – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية- ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- سيرة النبي صلى الله عليه وسلم – عبد الله بن هشام – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الفكر – بيروت – ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- شرح العقيدة الطحاوية – ابن أبي العز الحنفي – تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثامنة – ١٤١٦هـ.
- شرح النووي على صحيح مسلم- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي – دار الفكر – بيروت.
- شعب الإيمان – أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق محمد بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٠هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى – عياض بن موسى اليحصبي- تحقيق علي محمد البجاوي- طبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة.
- الصبر في القرآن – يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) – إسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق

أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.
- صحيح ابن خزيمة ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي.
- صفة الصفوة – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي- تحقيق محمود فاخوري- دار المعرفة –بيروت- الطبعة الرابعة –١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الطبقات الكبرى – محمد بن سعد – دار صادر – بيروت.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ـ عناية عبد المنعم العاني – دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية – دار التراث العربي – الطبعة الثانية – ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠ م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي- إشراف الشيخ عبد العزيز بن باز- دار الفكر- بيروت- بدون.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد – عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ – بعناية الشيخ عبد العزيز بن باز – المكتبة السلفية – المدينة المنورة- الطبعة الخامسة – ١٣٩١هـ.
- الفتن – نعيم بن حماد المروزي – تحقيق سمير أمين الزهيري – مكتبة التوحيد – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ.
- فضائل القرآن- أبو عبيد القاسم بن سلام- تحقيق وهبي غاوجي- دار الكتب العلمية- بيروت – الطبعة الأولى- ١٤١١هـ.

- الفوائد ـ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - دار الفكر - بيروت.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير - محمد عبدالرؤوف المناوي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٨٣م.
- القاموس المحيط - مجد الدين الفيروزآبادي - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب - أبو طالب المكي - المطبعة المصرية - الطبعة الأولى - ١٣٥١هـ.
- الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل - عبد الله بن قدامة - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.
- الكبائر - محمد أحمد الذهبي - تحقيق محيي الدين مستو - مكتبة دار التراث.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل - جار الله محمود بن عمر الزمخشري - دار المعرفة - بيروت - بدون.
- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها - الحافظ ابن رجب - تحقيق زهير شاويش - المكتب الإسلامي - الطبعة الرابعة - ١٣٩٧هـ.
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار صادر - بيروت - بدون.
- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف - ابن رجب الحنبلي - دار الجيل - بيروت.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - مكتبة ابن تيمية.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – عبد الحق بن غالب بن عطية- تحقيق المجلس العلمي بفاس- توزيع مكتبة ابن تيمية- القاهرة- بدون.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ـ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية - دار الفكر العربي – بيروت.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز – عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة- تحقيق طيار آلتي حولاج- دار صادر- بيروت- ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- المستدرك على الصحيحين وحاشيته تلخيص المستدرك للذهبي - أبو عبد الله الحاكم- دار الكتاب العربي-بيروت.
- المستطرف في كل فن مستظرف – بهاء الدين الأبهيشي – تحقيق صلاح الدين الهواري – دار ومكتبة هلال – الطبعة الأولى – ٢٠٠١م.
- المستفاد من قصص القرآن – عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة – ١٩٩٧م.
- المسند – أحمد بن حنبل- تحقيق أحمد شاكر- دار المعارف- مصر- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- مسند أبي يعلى – أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي – تحقيق حسين سليم أسد – دار المأمون للتراث – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.
- المصنف – عبد الرزاق بن همام الصنعاني- تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي- المكتب الإسلامي- دمشق –بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- المصنف في الأحاديث والآثار- عبد الله بن محمد بن أبي شيبة- بعناية كمال يوسف الحوت- دار التاج – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- معالم التنزيل – الحسين بن مسعود البغوي – دار الفكر – بيروت – ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- معاني القرآن وإعرابه ـ إبراهيم بن السري الزجاج ـ تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ـ عالم الكتب ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.
- المعجم الأوسط ـ سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق محمود الطحان ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- المعجم الكبير – سليمان بن أحمد الطبراني – تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي – مطبعة الوطن العربي – العراق – الطبعة الأولى – ١٤٠٠هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية – دار الباز – مكة المكرمة.
- المفردات في غريب القرآن – الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني – تحقيق محمد سيد كيلاني – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
- ملاك التأويل – أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي – تحقيق سعيد الفلاح – دار الغرب الإسلامي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر – المبارك بن محمد بن الأثير – تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي – دار الباز – مكة المكرمة.
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار – محمد بن علي الشوكاني – دار الجيل – بيروت.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب – محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية – عناية إبراهيم العجوز – دار الكتب العلمية – بيروت.

الفهرس